الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء التاسع و العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 3

الجزء التاسع و العشرون‏

سورة الملك- مكية- و آياتها ثلاثون‏

[سورة الملك (67): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (4)

إنه تعالى متبارك في ملكه، دون لعنة و لا نكسة و لا نكبة، خلاف ملك الخلق، إلا الملوك الذين هم ظلال الرب في ملكهم، إلا فيما يجهلون و يعجزون للقصور الذاتي، فهو تعالى متبارك في كافة شؤون الربوبية خلقا و أمرا: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (7: 54) و متبارك في الأمر التشريعي كما التكويني- سواء: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (25: 1) ففي ملك السماوات و الأرض ككلّ و في كلّ: تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما (43: 85) ف: تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 4

إنه ليس ملكا و مالكا يملك ملكه و ملكه، إنما هما بيده لا سواه، و هما له لا سواه، و كل مالك مملوك إلا إياه، و كل ملك يملك عليه سواه:

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ .. (3: 26) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ‏ (17: 111).

و فيما إذا يؤتي ملكه من يشاء لا يتحلل هو عنه، و لا يؤتيه الملك الخاص به:

وَ اللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (2: 247).

فالملك الحق من الخلق ليس وكيلا عن اللّه بانعزاله- سبحانه- عن شي‏ء من الملك، و لا شريكا له وليا من الذل، و لا معينا يعينه- بعض الشي‏ء- في الملك، و إنما يؤتاه تطبيقا لحكمه العدل بين الخلق، بشيرا و نذيرا، دون أن يكون له من الأمر شي‏ء: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ (3: 128) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (23: 116) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ..

(59: 23).

تَبارَكَ‏ و لأنه بيده الملك فهو متبارك: متعاظم بذاته و صفاته و أفعاله، لا تحد بركاته و لا يمدد فيها و إنما يمدد، و لا تعد نعمائه‏ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها و بما أن الملك يخصه، فالبركة أيضا تخصه:

الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ‏ ان اليد- هنا و في سواه مما نسبت إلى اللّه- توحي بالسلطة الإلهية اللامحدودة غير المغلوبة، و الملك قرينة أخرى إضافة إلى القرينة العقلية، يوحي أن اليد هنا ليست هي الجارحة الجسدانية، فإن الملك لا تصله هذه اليد، و إنما السلطة، و تقديم الظرف‏ بِيَدِهِ‏ و الاستغراق المستفاد من‏ الْمُلْكُ‏ يفيد ان الحصر، أن الملك- أيا كان- إنما هو بيد اللّه.

و الملك أعم من ملك الخلق و التقدير و التدبير، و من ملك النبوة و السلطة الزمنية، و لماذا يؤتيها الفجار إذا كانت هي أيضا منه تعالى؟ له تأويل يأتي في محله الأنسب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 5

كلام في القدرة الإلهية:

وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ: فما هو كل شي‏ء، و ما هي القدرة؟

فهل يقدر ربّنا أن يجمع بين المتناقضين ذاتيا، أو يخلق نفسه، أو يخلق مثله، أو يلد من لا يولد و لا يخلق، أو أن يدخل الدنيا في بيضة دون أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة، أو ما إلى ذلك من المستحيلات الذاتية عقليا؟.

نقول: الأمور المتصورة- من حيث تعلق القدرة بها و عدم تعلقها- على أربعة أضرب:

1- الكائنات التي بالإمكان تحويرها و تغييرها، دون حاجة إلى معجزة أو اختراع، فهي من أبسط الأشياء التي تتعلق بها القدرة.

2- التي تحتاج إلى قواعد علمية كالمخترعات، فهي قبل اختراعها قد تزعم مستحيلة، و لكنما العلم يثبت إمكانيتها.

3- التي لا تقدر المحاولات العلمية عليها من الطرق العادية، كمعجزات النبيين، التي يزعمها الإنسان- و لا سيما المتحلل عن وحي السماء، الشاك فيه- يزعمها: من المستحيلات، و لكنها من الممكنات الذاتية، مهما كانت مستحيلة بالنسبة للقدرات المحدودة.

و من هذه خلق العالم لا من شي‏ء، و سائر الاختصاصات الإلهية في خلقه المبدع، فاللاشي‏ء الذي بالإمكان إيجاده بالقدرة اللّامحدودة، إنه يستحق اسم الشي‏ء بهذه الإمكانية الاستعدادية لقبول الخلق، سواء أخلق أم لم يخلق، فالمادة الأولية كانت هي اللاشي‏ء الممكن إيجاده، و قد خلقت، و السماوات الثمانية و ما فوقها، كانت اللاشي‏ء الممكن إيجاده و لم تخلق، و لكنهما على سواء في أنهما شي‏ء لإمكانية خلقهما، مهما كانت الأولى راجحة في الحكمة و الثانية مرجوحة، فهي من المستحيل عرضيا، لا ذاتيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 6

4- الأمور التي لا تستحق اسم الشي‏ء، لأنها ليست كائنة، و لا بالإمكان تكوينها: معدومات مستحيلة التكوين، كالأمثلة المسبقة، فإنها ليست من الأشياء حتى تشملها القدرة، مهما كانت إلهية لا نهائية.

إن القدرة تعني إمكانية تعلقها بشي‏ء مما قدمناه، و الاستحالة الذاتية تعني- فيما تعنيه- استحالة تعلق القدرة بها و إن كانت القدرة الإلهية، غير المحدودة، فإذا تعلقت القدرة بأمر- مما يزعم استحالته- فالواقع المقدور، دليل لا مرد له على إمكانيته.

فهل بالإمكان الجمع بين النقيضين معا: أنا أنا و لست أنا أو سلبهما معا:

أنا لست أنا و لا لا أنا مهما كانت القدرة المحاولة لجمعهما أو سلبهما إلهية؟

و هل بالإمكان أن اللّه خالق نفسه، فخلق شي‏ء يسبقه عدمه، و هذا ينافي الوهية المخلوق، و خالقية شي‏ء تقتضي كونه قبل مخلوقه، فهل إن اللّه كان قبل كونه! أمران مستحيلان ذاتيا!.

و هل بالإمكان أن يخلق اللّه مثله، فيكون المثل خالقا غير مخلوق، مثله.

فالإله المخلوق إذا لم يكن مخلوقا، حتى يماثل خالقه. فهو معدوم لم يخلق! فهل المعدوم يماثل الخالق، و إذا كان مخلوقا فكيف يماثل خالقه في أنه غير مخلوق.

أم هل هو مخلوق و غير مخلوق لكي يربح الواجبين: مماثلته خالقه، و عموم القدرة الإلهية لخلق مثله؟ الأمر إليكم!.

إنه- رغم ما يزعمه الثالوثيون و أضرابهم-، ليس عدم تعلق القدرة الإلهية بالمحالات الذاتية، نقصا في القدرة، و نقضا في شمولها، و إنما هي المحالات النسبية، التي لا يقدر عليها إلّا اللّه، فيختصها بقدرته فإن الله‏ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ.

نسألكم: هل بالإمكان أن يكون اللّه إلها و ليس إلها؟ خالقا و لا خالق، عالما و لا عالم! فإذا «نعم» فليس الملحدون خاطئين إذ تمسكوا بأحد جزءي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 7

القضية المتناقضة موجود و معدوم إذ زعموا أنه معدوم، و إذا «لا» فلما ذا «لا» فهل إلا لأنه من المحالات الذاتية! فكذلك سائر المحالات الذاتية كالأمثلة المسبقة.

فالمستحيل ذاتيا ليس شيئا حتى تتعلق به القدرة، و لا أن القدرة تتعلق باللاشي‏ء الذي يستحيل أن يكون شيئا، اللهم إلا اللاشي‏ء الممكن إيجاده.

فذلك ليس لنقص في القدرة اللانهائية، و إنما لأن القدرة لا تعني إلا التي بإمكانها إيجاد الممكن الذاتي، فالنقص كل النقص في المستحيل الذاتي الذي لا يقبل الإيجاد، إن صح التعبير بيقبل و لا يقبل عن اللاشي‏ء المستحيل وجوده!.

و لئن سألت: هل لا يقدر ربنا أن يخلق في المحالات، حالة قبول لخلقها.

فالجواب أنه ليس للمحال جواب! فإنما الحالة و الصفة تخلق في شي‏ء موجود، لا المعدوم المستحيل الوجود، و فيما إذا كان الشي‏ء موجودا، لا يحمل صفة تناقض كيانه، فهل يحمل ذات اللّه صفة الحدوث، أو هل تحمل ذوات الممكنات صفة الأزلية. كذلك- و بالأحرى- لا تحمل الذوات المستحيلة الوجود- إن صح تعبير الذوات- لا تحمل صفة الإمكان و القبول، المناقضة للاستحالة الذاتية! فقبول صفة الإمكان للمفروض استحالته الذاتية يحمل تناقضين:

1- فرض القبول للمعدوم حالة عدمه: صفة دون موصوف! 2- تحميل الحالة المناقضة لذات المحمول، عليه، جمعا بين الصفة و الموصوف المتناقضين: مستحيل ذاتي يقبل حالة الإمكان! ظلمات بعضها فوق بعض.

فالمحال الذاتي محال أينما حل، و يجنب القدرة الإلهية أيضا، و ليس عنه خبر و لا جواب، إلا أنه ليس للمحال جواب يجيب به الإمام الصادق زنديقا سأله: أليس هو قادرا أن يظهر لهم حتى يروه و يعرفوه فيعبد على يقين؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 8

فيجيبه: «ليس للمحال جواب» يعني بذلك: أن المحال ليس شيئا يذكر فيسأل عنه، فلو أن اللّه أظهر نفسه فلتره العيون بمشاهدة الأبصار، و في ذلك تحول المجرد عن اللامادة إلى المادة، لكي تشاهد، و هذا محال!.

كما

يسأل الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ قال: إن اللّه تبارك و تعالى لا ينسب إلى العجز، و الذي سألته لا يكون» «1».

و إن كان هنا وجه آخر للجواب، فهو عن وجه آخر للسؤال و كما أجاب علي عليه السلام نفسه عن نفس السؤال:

«ويلك إن اللّه لا يوصف بالعجز، و من أقدر ممن يلطّف الأرض و يعظّم البيضة» «2».

يعني الحالة الممكنة في موضع السؤال: أن يلطف اللّه الأرض عن حجمها برفع الخلل و الفواصل عن عناصرها و جزئياتها و ذراتها، و دمجها كما يمكن، فتصبح قدر البيضة فيدخلها فيها، فالبيضة إذا لا تكبر حجما مهما كبرت ثقلا، كما الدنيا لا تصغر ثقلا مهما صغرت حجما، فهذه هي الحالة الممكنة من إدخال الأرض البيضة، بتلطيف الأرض حجما و تكبير البيضة ثقلا!.

ثم استحالة تعلق القدرة الإلهية قد تكون ذاتية عقلية كالأمثلة المسبقة، و قد تكون واقعية كصدور القبيح منه سبحانه، أو خلق المرجوح كونيا، و حسب المصلحة الجماعية للكائنات أو للمكلفين كالمقترحين المعجزات تعنتا و لجاجا:

قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى‏ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (6: 37).

فالأخيران- رغم إمكانيتهما ذاتيا، و بالنسبة للقدرات المحدودة أيضا-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 1 ص 32 عن التوحيد للصدوق عن عمر بن أذينة عنه (ع).

(2) نور الثقلين ج 1 ص 32 عن ابان بن تغلب عن الصادق (ع) عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 9

هما مستحيلان على اللّه، إذ يتنافيان و عدله و حكمته تعالى و تقدس، استحالة بالاختيار.

انه لا قدير على كل شي‏ء إلا اللّه، فلا يعجزه شي‏ء، و لا يفوته شي‏ء، يخلق ما يشاء، و يفعل ما يريد، إنه عزيز حميد، و هو غالب على أمره، غير مغلوب فيما يزيد، فما يحيله الإنسان بحساب قدرته المحدودة، إنه عند اللّه سهل يسير، لا يعزب عنه شي‏ء و لا يعزبه شي‏ء.

و ما يحيله العقل واقعيا، من المنكر، أو عقليا من المحال الذاتي، فهو ليس شيئا يذكر، أو لا يليق به تعالى حتى تتعلق به قدرته، فما دام القابل ناقصا لا يقبل الكمال، أم هو دون النقص و الكمال لاستحالة شيئيته، فعدم تعلق القدرة الإلهية به ليس نقصا فيها، و لا نقصا لعمومها و شمولها.

و هل إن القدرة الإلهية تتعلق بالشي‏ء الموجود: خلق الشي‏ء شيئا: خلقه كما كان قبل خلقه؟ فهو من تحصيل الحاصل! أو خلقه شيئا آخر بمعنى تغييره و تحويره؟ أو بمعنى إعدامه؟ فليست قدرته محصورة في حصار الكائنات بعد كونها، فمن هذا الذي كوّنها إلا هو؟! أم تتعلق قدرته بما كوّنها و يخلق الأشياء من اللاشي‏ء؟ فكيف يتحول اللاشي‏ء شيئا! أن يخلق اللّه العالم من اللاشي‏ء! أم خلق الأشياء لا من شي‏ء؟ و هذا هو الصحيح المعقول، أن لا مصدر لخلق المادة الأولية وجوديا و لا عدميا، إنما مصدرها أولا إرادته تعالى: أن خلق الأشياء لا من شي‏ء: إنما أمرنا لشي‏ء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون و إنما استحق اسم الشي‏ء قبل تكوينه، اعتبارا بإمكانية تكوينه و بحالة كونه المستقبل «علاقة ما يكون».

ثم مصدر الأشياء ثانيا هي المادة الأولية- المخلوقة لا من شي‏ء-، بإرادته تعالى، أن يحوّرها و يحوّلها و يبدّل ماهيتها، ثم ماهيات الأشياء إلى ما يريد، أو يعدمها، و سوف نخوض في البحث عن كيفية التكوين في محالّها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 10

إذا فعموم قدرته تعالى ليس إلا لعموم الممكنات: المعدومات المتمكنة للإيجاد، و الموجودات المتمكنة للتغيير و التحوير، أو الانعدام، فهي كلها أشياء معنية ب «كل شي‏ء» دون المحالات الذاتية فإنها ليست شيئا لكي تتعلق بها القدرة، و دون الموجودات في وجوداتها، فإن الموجود لا يحتاج إلى الإيجاد، اللهم إلا إبقاءه فإنه أيضا بحاجة إلى القدرة و العناية الإلهية كما في بداية وجوده، إذا فليست القدرة الإلهية فوضى تتعلق بالمحالات لكي تبرز الفلسفة الكنسية تقولها في الثالوث، المستحيل عقليا، و ان الابن إله، مولود منذ الأزل، غير مخلوق، و أن الإله المجرد اللامحدود حلّ في الجسم اللامجرد المحدود «1».

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ:

و من عموم قدرته للأشياء أنها تعم الموت و الحياة، فالموت شي‏ء لأنه إعدام للحياة و فصل بين الكائن الحي و بين حياته، و الحياة شي‏ء و هي أصل الأشياء في الكائنات.

و الموت الشي‏ء، المخلوق، هو الموت عن الحياة و بعدها «2»، لا قبلها، فإنه أمر عدمي و ليس إعداميا لكي يكون شيئا، و تقدّمه على الحياة هنا في التعبير، لا يقدّمه عليها في الواقع المعني، إذ لا واقع له قبلها إلا عدم الحياة، و هو ليس شيئا يخلق، فخلق الموت هو الإماتة: وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «حوار بين الآلهيين و الماديين».

(2)

نور الثقلين 5: 379 عن الكافي عن الباقر (ع) «قال: ان الله خلق الحياة قبل الموت»

و

فيه ايضا عنه (ع) قال: الحياة و الموت خلقان من خلق الله، فإذا جاء الموت فدخل في الإنسان، لم يدخل في شي‏ء الا و خرجت منه الحياة،

و

فيه ايضا عنه (ع) ما الموت؟ قال: هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة. الا انه طويل لا ينتبه منه الى يوم القيامة.

أقول: كل ذلك يعني الموت عن الحياة، لا الذي قبلها، و لا يشمله كذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 11

(53: 44)، لا الذي قبل الحياة فإنه كائن قبلها دون خلق، و لم يذكر إلا في آية واحدة: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (2: 28).

ثم إن بلوى الإنسان ليس بالموت قبل الحياة، إذ لا يشعره قبلها، و إنما حالها، بما يعلم انه يدركه لا محالة، فليهيئ له نفسه، و بعدها كذلك، ليذوق ألم الحسرة: يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي‏ فليحسن عمله في حياة التكليف، ليحيى فيها و بعد الموت في حياة الخلود حياة طيبة.

إن التسابق في الأعمال الحسنة هو الهدف لهذه الازدواجية من الموت و الحياة، و ليست الحياة فقط هي الباعثة لهذا التسابق، و إنما التي معها الموت علما، و بعدها واقعا، و مهما أنكر الإنسان حياة الحساب بعد الموت، الذي لا ينكره أحد، و لكن احتمال الحساب بعد قائم لا يمحى، فليحسب العاقل له حسابا، و كما يحسب كل تاجر حسابات في احتمالات الفائدة و الضرر، و لأن الموت يحمل هذه الذكرى الضرورية، و البلوى العالية، تقدّم هنا على الحياة رغم تأخره في غيرها من الآيات، إلا الذي هو قبل الحياة و ليس فيه بلوى! كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ‏.

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا و العمل هنا يعم عمل القلب- و هو أولى- و عمل القالب- و هو أدنى- لأن القالب يتبع القلب و يتّبعه في عمله، و ليس كذلك القلب، مهما تأثر هو بالقالب في خيره و شره.

ثم العمل منه حسن و منه أحسن، كما أن منه سيّئ و منه أسوء، و الغاية القصوى من بلوى الموت و الحياة الوصول إلى واقع العمل الأحسن قلبا و قالبا، و هو الذي يبتغى به وجه اللّه كأعمال المقربين، و دونه الأبرار الذين يريدون الآخرة، فعملهم حسن، كما أن الأسوء هو أعمال الكافرين الذين توافق سيئاتهم نياتهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 12

و من حسن العمل الأحسن نسيانه و عدم استعظامه، كما أن من الأحسن ذكر العمل السي‏ء فجبرانه.

فالموت و الحياة دليلان، بما معهما من أدلة إلهية، عقلية و فطرية و واقعية، يدلان الناس اليقظين إلى العمل الأحسن، فليس الموت قبل الحياة داخلا في المعني من الموت الابتلاء هنا.

هذا- و إن كان بالإمكان شمول الموت هنا لما قبل الحياة أيضا، بتأويل أنه مخلوق ضمن الكائن الميت‏ «1»، و كذلك الحياة غير الدنيوية فإنها حياة و أحيى من الدنيوية، و لكنما البلوى ليست إلا في الحياة الدنيا لواقع الإختيار و التكليف فيها، و في الموت عنها علميا حالها، فإنه الذي يحمل الذكرى، و يحمل صاحبه على التسابق في الأعمال الحسنة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، و للموت رحمات أخرى إضافة إلى البلوى‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لكن الخلق هنا يوحي بالاستقلال فلا يشمل الموت ضمن الكائن الميت.

(2) ان رحمة الموت لا تختص بالبلوى التي تدفع الى التسابق في الصالحات، و انما هي الأهم مر فوائده لبني الإنسان حال الحياة اعتبارا، و بعد الموت جزاء للحسنى بالحسنى، و للذين كفروا عذاب، و هو رحمة للمحسنين- و هنا رحمات اخرى نتيجة الموت في النبات و الحيوان و الإنسان:

فللانسان: هل يا ترى لو لم يكن موت، أ كانت الكرة الارضية بفضائها تسع نسله المتواصل؟ و لو وسعت، فهل بإمكان الأولاد ان يتحملوا عب‏ء معايش الآباء و الأمهات: الآلاف الالاف! و إذا أمكن، فهل بإمكان هذه الكثرة الخالدة في الحياة، المعايشة السلمية؟ كيف! و لا تعيش الآن- و هي تلمس الموت ليل نهار- الا في اضطرابات ناتجة عن تخلفات!.

فيا للموت من رحمة لبني الإنسان، بنّاء لحياة سليمة، لو تذكروا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 13

و لو لا العزة و الغلبة الإلهية لم تكن هناك بلوى و لا حسن الأعمال، فبعزته خلق الموت و الحياة، و بعزته يحافظ على الأحياء و الأموات، و على الأرواح و الأجساد، و على أعمال الإنسان، و بعزته يجازي كلّا على عمله، إذ لا يفوته من أساء.

و لولا مغفرته كانت الحياة الأخرى كلها بلاء و عذابا، و لكنه يغفر ما دامت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بها، و واعظا لمن كان له قلب او القى السمع و هو شهيد، و رادعا عن الشرور لمن أراد الحياة سالمة غير منغصة و ان لم يؤمن بالآخرة، و باعثا على التقوى لمن آمن بالله و اليوم الآخر!.

و للحيوان: لو ان بيضات الأسماك (البطروخات) صارت كلها اسماكا و لم تمت، لأصبحت البحار جامدة من زحامها، فامتنعت الحياة عليها كلها.

و لو ان الجراثيم استمرت على التوالد خمسة ايام دون انقطاع و لا موت لملأت المحيط الى عمق ميل، فكيف الحياة؟! و لو ان ميكروب الوباء (الكوليرا)- الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة- لو مضى عليه يوم واحد دون عائق، لبلغ وزنه 7366 طنا، و عدده رقم 5 مع 21 صفرا، فأين الحياة! ان بعض المحار في البحار تبيض الواحدة منها ستين مليونا، لو بقيت انسالها بين عام و عامين لزادت على الكرة الارضية، فكيف الحياة! و الذباب الذي ينغص عيش الإنسان، تبيض أنثاه خمس او ست مرات، في كل مرة 120- 150 بيضة، فلو عاشت دون موت لم يعش على وجه الأرض انسان و لا حيوان! فلو لا الموت لم تكن حياة، و انه يتبنى الحياة مادية و معنوية، خلقية و خلقية، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا سبحان الخلاق العظيم، فهل لا يستحق الموت- إذا- ان يحتل الرتبة السابقة على الحياة: خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ؟ فان الموت رحمة للأحياء و للأموات!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 14

المغفرة لا تنافي عدله، و يكفي أن مصير الموحدين كلهم الجنة، بعد المغفرة، أو و العذاب فيما لا يتحمل المغفرة ثم الجنة، فرحمته وسعت كل شي‏ء وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ.

أجل: و إن الخلق عامة، و خلق الموت و الحياة خاصة، ليس جزافا دون هدف، و إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم اللّه من سلوك المكلفين على الأرض، بلوى:

«بتكليف طاعته و عبادته، لا على سبيل الامتحان و التجربة، لأنه لم يزل عليما بكل شي‏ء» «1»

و

«أكيس المؤمنين أكثرهم للموت ذكرا و أحسنهم له استعدادا»

«فليأخذ الإنسان من حياته لموته» و استقرار هذه الحقيقة الحية من واقع الموت في ضمائر الأحياء، يدعهم أبدا يقظين منتبهين حذرين واعين، للصغيرة و الكبيرة، في النية المستسرة، و العمل الظاهر، لا يدعه يطمئن أو يستريح، إلا أن يسامح عن عقله و ضميره، فإن حسن العمل ليس إلا من حسن العقل، و على حد تفسير

الرسول الأقدس (ص): «أيكم أحسن عقلا، ثم قال:

أتمكم عقلا، و أشدكم للّه خوفا، و أحسنكم فيما أمر اللّه عز و جل به و نهى عنه نظرا، و إن كان أقلكم تطوعا» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

«نور الثقلين» عن الاحتجاج للطبرسي عن الرضا- عليه السلام- في الآية: «فإنه عز و جل خلق خلقه ..».

(2)

«مجمع البيان»: أبو قتادة قال: سألت النبي (ص) عن قوله‏ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ما عنى به؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلا.

و

فيه عن ابن عمر عنه (ص) قال: «أيكم أحسن عقلا، و أروع عن محارم اللّه، و أسرع في طاعة اللّه»،

و

في الكافي عن الصادق (ع): «ليس يعني أكثركم عملا، و لكن أصوبكم عملا، و إنما الإصابة خشية اللّه و النية الصادقة، ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد العمل، الا و العمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا اللّه، و النية أفضل من العمل، ألا و إن النية هي العمل، تم تلا قوله تعالى: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى‏ شاكِلَتِهِ‏ يعني على نيته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 15

السماوات السبع الطباق:

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً: الآراء حول السماوات بين مفرط يزعمها مليارات، عدد الأجواء المحيطة بالكواكب، زعم أن السماء تعني الجو المحيط بكل كوكب، و بين مفرّط يزعمها الأجواء المحيطة بالسيارات السبع، معتذرا عن الجديدين «بلوتو- نبتون» أنهما غير مرئيين غالبا، بالعين المجردة، رغم أن سبع المفرّط و مليارات المفرط، هي كلها في السماء الدنيا: الأولى، حسب القرآن.

نجد السماء في القرآن، تذكر 120 مرة، و السماوات 183، و السبع سبعا بسبعها، و مرتين بسبع شداد و سبع طرائق‏ «1».

فالسماء تعني مطلق الجو المحيط حول الأرض، سواء في حالتها الأولى الغازية الدخانية قبل تسبيعها أم بعدها، و السماوات تعني السبع، لا أقل و لا أكثر، و لأن الآيات التسع التي تعتبرها سبعا إنما هي بصدد عرض عدد السماوات المخلوقة:

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (2: 29) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ .. (65: 12) قل أ إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أندادا ذلك رب العالمين .. ثم استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين.

فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (41: 12).

فالسماء الدنيا، و هي أدنى السماوات إلينا نحن المخاطبين في الآيات، هذه السماء تحمل سماوات المفرطين و المفرّطين، ثم لا ندري ماذا تحمل السماوات الست الباقية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 25- من الجزء الثلاثين القسم الاول ففيه تفصيل عن السبع الشداد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 16

و لقد وصفت هذه السبع بأوصاف عدة، كالشداد و الطباق، مما تدلنا على خروجها و تحللها عن الحالة الدخانية قبل تسبيعها، إلى حالة أخرى و حالات، و من ذلك قصورها و مصابيحها و مدنها الشداد الطباق.

و إنها طباق لتطابقها بعضها على بعض، و تشابهها مع بعض، و تماسكها ببعض، و ترابطها ماديا و معنويا مع بعض، و تآخيها بما أنها ولدت من الدخان الأم:

ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ‏ .. فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ‏.

فلما ذا تتهافت و تتفاوت؟ فإنها و الخلق كله- كخلق اللّه- لم تخلق متفاوتة، و إنما التفاوت من الخلق نفسه، تخلفا عما خلق له، و أراد اللّه منه:

ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ‏:

إن رحمانيته تعالى، و هي رحمته العامة الشاملة لخلقه أجمع، إنها تشهد بعدم التفاوت و التهافت في خلقه كخلقه، فللائتلاف خلقهم لا للاختلاف: وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ (11: 19) رحمة التآلف في التكوين، و أخرى في التشريع، و ثالثة لمن يطبق التشريع، توفيقا لما أراده من الرحمة «فالخير كله بيديه و الشر ليس إليه» فالمخلوقون هم المتفاوتون المتضادون مع بعض، تخلفا عن شرعة التكوين و التشريع، و لكنما الخالق لا يخلق متفاوتا متهافتا، مما يدلّ على وحدته و رحمته، ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ‏.

هل ترى من فطور؟

ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ.

هنا يؤمر من له بصر و بصيرة لينظر في خلق الرحمان نظر الناقد البصير، هل يرى من اختلال و فطور؟ فلينظر نظرة أولى‏ ما تَرى‏ ثم ليرجع البصر عله يجد ما ضل عنه في الأولى‏ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ثم ثالثة هي الكرة الثانية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 17

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ‏ و في آخر المطاف: يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ! كرر أيها الناظر نظرك إلى السبع الطباق، من بعيد، و أحرى لك من قريب، على ضوء غزو الفضاء، مفكرا في عجائبها، مستنبطا غوامض تراكيبها يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً: بعيدا عما طلبه، من نقد في نظمها أو غور في ماهيتها وَ هُوَ حَسِيرٌ: ذليل بفوت ما قدّره من تفاوت و تناحر: قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (10: 101) و أما المؤمنون من الناظرين في آيات الأرض، و من غزاة الفضاء، فهم تغنيهم آياتها، دلالة على مدبر واحد حكيم.

إن الخاسئ هو البعيد المرذول، و كما يخسأ الكلب، و الحسير هو البعير المعيى، الذي بلغ السير مجهوده، و اعتصر عوده، فالبصر يرجع بعد كرتيه، و سروحه في طلب مراده، و إبعاده في غايات مرامه، يرجع كالا معيى بعيدا مرذولا ذليلا من إدراك بغيته، و نيل طلبته، من اكتناه حكمة الخلق، أو نقد زعم التفاوت فيه.

فليتجول الجوالون في غزوهم الجوي، و لينظر الناظرون، فليس آخر المطاف إلا عجزا عن الغور، دون أن يدركوا فطورا و فتورا إلا في أنفسهم، إذ لا تبلغ قمة المعرفة بخلق الرحمان، و كيف بالنقد فيه، أو شبهة فيما يحويه، اللهم إلا لمن سامح عن عقله، و لجّ في غيه، فليخسأ و هو حسير!.

إن الكائنات، رغم اختلافها في صفاتها و ماهياتها، و عناصرها، و جزئياتها، و ذراتها، فالاختلاف في آثارها و خواصها، و تفاعلاتها، إنها بالرغم من كل ذلك متلائمة متناسقة، تحصل من ازدواجها وحدة، و من قربها وحدة، و من خلطها وحدة، و من بعدها وحدة، تضرب- على تضاربها ظاهريا- إلى وحدة أنيسة رحيمة أليفة، مما يدل على مدبر و مكون واحد.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 2)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 18

هذه الآيات تتحدى الناقدين، أن ينظروا في خلق الرحمان، هل يقع نظرهم، بعدّته و عدّته، على شق أو صدع أو خلل؟ .. هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ: من وهي أو وهن، به يتصدع أو ينصدم، و هذه النظرة الفاحصة المتأملة هي التي يريدها اللّه: للمؤمنين لكي يزدادوا إيمانا، و لغيرهم ليزدادوا حجة تحسم مواد الشك و الريبة عن قلوبهم، و غشاوات الأوهام عن أبصارهم، فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الجليل، لا تشبع العيون من تملّي جماله و روعته، و لا القلب من تلقّي إيماءاته و إيحاءاته، و لا العقل من تدبر نظامه بقوانينه، فليعش الإنسان نظرا في خلق الرحمان، و لكي يعرف عجزه و قدرة الرحمان، و جهله يجنب علمه، و نقصه حيال كماله.

و من الرائع جدا أن قراءة كتاب التكوين لا تحتاج إلى ثقافة زائدة، و دراسة خاصة، و إنما بصر و بصيرة منح اللّه الإنسان إياهما و إن كانا في درجات، و إن كان للعلم أثرا عميقا في مزيد المعرفة، و لكنما القرآن يخاطب ساكن الغابة و الصحراء، كما يخاطب ساكن المدينة و رائد البحار و غازي الفضاء على سواء! و لأنه كتاب الناس أجمع، يحمل هداية الناس أجمع.

و كما قلناه مسبقا: إن التفاوت المنفي هنا هو التضاد و التنافي و عدم انسجام و التحام أجزاء الكون، في أصل الكيان و النظام، فهذه أرضنا تحول حول نفسها و حول شمسها في جادة فضائية، لا تنزلق عنها، و لا تبطئ و لا تزيد عما قرر لها من حراكها، و نرى كذلك كافة السابحات في يمّ الفضاء، بالمليارات المليارات، فكل في فلك يسبحون، دون اصطدام و اصطكاك و احتكاك، مما يدل على أن عليها سائق واحد مدبر حكيم.

فكلما تواترت الأنظار الدقيقة إلى خلق الرحمان، لم تزدد إلا زيادة المعرفة بنظمه الشامل، و تنسيقه الكامل، دون تفاوت فيه، و لا نقص يعتريه.

ترى رحمانية الخالق- نتيجة كرور الأنظار- من خلال هذا الكون،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 19

ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ‏: أيا كانت الرؤية و من أي كانت، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ؟ تأكدا و تثبتا، في رجوع نافذ ناقد أعمق من النظرة الأولى، عله فاتك شي‏ء فلتجده هنا، هل ترى من فطور: من فروج و شقوق و فتوق و خروق؟.

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ‏: بغية الإحاطة على ما عله خفي عنك من فطور، أو رجاء الإحاطة على خفيات الكون الغامضة: يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً مبعدا مصغرا ذليلا كليلا عما يهواه‏ وَ هُوَ حَسِيرٌ: ذليل أسير كليل أن يتعاطى نقدا، أو تحيط علما! إن الأنظار المتجهة إلى الكون، كلما تغرق في يمه المتلاطم، حائرة، لا يزداد أصحابها في سبرهم غوره إلا حيرة و بهرا، يذعنون أنهم خاسئون يجنب هذه العظمة الباهرة، و إذا عميت عليها حكمة فيه، كما في الكثير منه، فالناظر المنصف لا يتسرع بالنقد، لما يعلمه بإتقان أن صانعه أعلم منه و أحكم مهما تسرّع الجاهلون الملحدون و المتسامحون عن عقولهم و عن فطرهم و ضمائرهم.

و قد تكون النظرة الأولى، المأمور بها هنا، النظرة البصرية الميسورة لكل واحد، و الثانية النظرة العقلية على ضوء الفلسفات العقلية و العلوم التجريبية، و الثالثة هي النظرة في ملكوت السماوات و الأرض، في حقيقة كيانها، و أصل كونها، و كيفية تكونها و تعلقها في ذواتها بالرحمان، سواء أ كانت النظرة من بعيد، أو و أحرى من قريب على ضوء غزو الفضاء: أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ (7: 185) أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ‏ (50: 6).

هذه نظرات ثلاث أمرنا بها هل نرى من فطور، و لو كان كياننا كله نظرا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 20

إلى الكون و كررناه إلى يوم الدين، لم نرجع في نقدنا إلا خاسئين، و نرجع في استكشاف القدرة العجيبة الرائعة الإلهية إلى معرفة أسمى و بصيرة أنفذ و أسنى، إن الخلقة تملك كمالا دون نقص من حيث الصنعة الإلهية، ثم نجد له جمالا فوق الكمال و كما الآيات التالية تتحدث عن ذلك الجمال الرائع، بعد ما برهنت الآيات المسبقة لكمالها و عدم فتورها:

[سورة الملك (67): الآيات 5 الى 14]

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (5) وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (7) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قالُوا بَلى‏ قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (9)

وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (11) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (13) أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 21

السماء الدنيا بمصابيحها الرجوم:

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ‏:

هنا تتحدث الآية وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا عن سمائنا التي نواجهها، و هي الأولى، دون الستة الباقية البعيدة عن أنظارنا، و إن كانت بالعيون المسلحة، فضلا عن غزو الفضاء، فإننا حتى الآن لم نسبر غور السماء الأولى، فضلا عن سواها! هنا السَّماءَ الدُّنْيا الموصوفة بأنها الدنيا: أدنى السبع إلينا، لأسماء الدنيا! أ مقابل سماء الآخرة؟ فليست الآن مخلوقة! و الآية تحدثنا عما مضى، فهذه الآية مع نظيراتها، تدلنا أن المصابيح السماوية التي نشاهدها، و الكواكب التي نراها: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (37: 6) انها- كلها- في السماء الأولى، فما هي الكائنات في سواها، من الستة الباقية؟ لا ندري، و كيف لنا أن ندريها، و ما ندري ما في سمائنا الدنيا!

رجوم الشياطين؟

هل إن المصابيح هنا هي النجوم كلها، أو الكواكب كلها، أم قسم خاص منها؟ و هل الشياطين هم شياطين الجن فقط؟ أم و الإنس أيضا؟ ثم كيف تكون المصابيح رجوما على أية حال؟

المصابيح هي الكواكب و نجومها الطالعة و سواها، فهي مدرعات جوية و مقاذيف تقذف: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ، وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ، لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (37: 10) ..

هذه الكواكب هي كلها رجوم، و لا سيما بروجها: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ، وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (15: 18).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 22

فموقع الكواكب- بين مواقعها- أنها حفظ من مردة الشياطين، بعضها قذائف و شهب بحرسها: وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (72: 8) بين منفصلة عن بروجها و مدنها: عن وزارات الدفاع و مراكز الأسلحة، انفصلت شهابا رصدا، ترصد و ترقب مسترقي السمع‏ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (72: 9) و بين ما هو كرة سماوية، مهما كبرت أو صغرت. تدفع من قاذفاتها شهبا و نيازك نارية، تهدف أهدافا مقصودة، يدفعها الحرس الملائكي، أو تندفع دون حرس.

إن قذف الكواكب حتم لا مردّ له، و لكنه ليس من نوع واحد، فقد يكون رجوما، و قد يكون شهبا: الأحجار السماوية و نيازكها النارية.

فالرجوم هي الأحجار التي تحمل النار، أو تتبدل نارا باصطكاكها الجوي، و المصابيح الرجوم ليست هي الكرات، إذ لا يرجم بها الشياطين، و إنما يرجمون منها، من قذائفها المنفصلة عنها، جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ‏ لا تعني في الكرات إلا أنها مقاذيف، طالما تعني في الأحجار المنفصلة الحائرة في الجو، تعني منها أنفسها.

و الشهب هي النيازك النارية «1» فالرجوم التي تحترق في الجو و تندثر بعد نفاذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول (ماكسول رايد) العالم الفلكي في كتابه (النجوم للكل):

في ليلة نوفمبر 1833- أصبحت السماء مليئة من الشهب، و كأنها الكواكب، جعلت السماء ميدان النضال، و أدعى بعض انها كانت على كثرة ذرات البرد، فالشهب- هذه- كانت تنتشر، و كأنها من دوراة النار، من النقطة التي فيها الصورة الفلكية «لنوى»: اسد، لقد خيل الى بعض الناظرين كأن الدنيا انتهت، و بعد قليل سوف تنفجر الأرض بهذه الشهب الساقطة عليها، و قد دامت هذه الحملة النارية طول الليل، مخيلة أنها تمطر من ثقبة و تنتشر، و تصاحبها في نضالها الكواكب حولها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 23

أمرها، هي الشهب، و التي تصل إلى الأرض، هي الأحجار السماوية التي تمطر أحيانا على شياطين الأرض، جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ‏ تعم شياطين الجن بالشهب، و شياطين الإنس بالأحجار، و من رجوم شياطين الأرض سجّيل أصحاب الفيل و سواه، كالتي أرسلت إلى سدوم، و على قوم لوط: قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (51: 34) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (11: 82).

ثم كيف تقذف الرجوم و الشهب إلى شياطين السماء؟ و لماذا؟ فهل يسمح للجن المؤمنين اختراق السماء إلى الملإ الأعلى للاستماع إليه؟ و هل يمنع الإنسان أيضا من اختراق السماء و هو لا يستطيع التسمّع إلى الملإ الأعلى؟ ثم الشهب و النيازك النارية و الأحجار، هل إنها على كثرتها و توافرها لا تهدف إلا قذف شياطين السماء و الأرض؟ و كيف ذلك؟ تجد الجواب عنها في محالها الأنسب‏ «1».

وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ: عذابا فوق العذاب بخبره الحاضر الحاذر عن مستقبل شديد، و رجومهم يوم الدنيا- بواقعه- عليهم شهيد،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نقل احد الشاهدين هذه الحرب الجوية في «كارولينا الجنوبي»:

سمعت صوتا خشنا خارقا ايقظني من نومي، صرخة من ثمانمائة من العمال السود في المزارع، حاولت الكشف عن السبب، فإذا بصوت ضعيف من وراء الباب يطلبني، أخذت سيفي و اتبعت صاحب الصوت، فسمعت ثانية يسترحمني قائلا: قم فقد احترقت الدنيا، فتحت الباب، و لست أدري هل كانت الصرخات المسترحمة أدهش، أم المنظرة الرهيبة من الحرب الجوية، رأيت مائة من العمال ساقطين على الأرض، كانت حادثة عديمة النظير، و ان كانت لها أشباه في التاريخ.

(1). كما في سورة الحجر و فصلت و الصافات و الجن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 24

فهم بين عذاب حاضر و آخر معتد عتيد، عذاب فوق العذاب و بعد العذاب و بئس للظالمين بدلا.

عذاب معتد: لم يأت وقته، و لم يعد عدته، و لأنهم وقوده و لما يدخلوه، فإذا ألقوا فيه كمل العذاب بهذا اللقاء، كما يقرب البترول النار، فشهيق و فوار.

لا فحسب الشياطين: بناة الضلالة و أصولها من الجنة و الناس أجمعين، بل الحكم يعمهم و الكافرين أجمع:

وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ: فالذين لا يرجمون- منهم- يوم الدنيا، هم شركاؤهم في عذاب جهنم يوم الدين: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ.

إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ: يلقون فيها مهانة لهم، و إلقاء للصلاء الوقود، لكي يصطلون بأنفسهم، فلقد كانت كاظمة غيظها، باطنة فورتها و ميزها، و أما الآن و هي تعيش وقودها، فحق لها شهقتها و فورتها و ثورتها على الكافرين.

الشهيق. هو الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد و الكمد الطويل، و هو صوت مكروه سماعه، شديد إيقاعه.

أما إنها خائفة من وقودها الشديد، متضايقة القلب الحزين، من ورود هؤلاء الأرجاس الأوغاد، رغم تصبّرها لورودهم، في كمد طويل!.

تشهق فائرة: مرتفعة الغليان، تجذبهم إلى داخلها جذب الهواء بشهيق النفس إلى داخل الصدر.

تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ: من قولهم تميزت القدر، إذا اشتد غليانها، ثم صارت الصفة خاصة الإنسان المغضب، و هنا وصفت النار بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه- إذا بلغ ذلك الحد- أن يبالغ في الانتقام، و يتجاوز الغايات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 25

في الإيقاع و الإيلام، و قد يوصف الإنسان الشديد الغيظ، بأنه تكاد يتميز غيظا أي: تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل، و أخلاطه المتجاوزة تتنافى و تتباعد، من شدة اهتياج غيظه، و احتياج طبعه و احتدامه، فأجرى سبحانه هذه الصفة على نار جهنم ليكون التمثيل في أقصى منازله و أعلى مراتبه.

يا ويلاه! هل ألقيت فيها قنبلة ذرية فتميزت شاهقة فوارة؟ فإنها حصلت على عدتها بعد عدتها تحرق بها و تحترق، تميز بها و تتميز، و هكذا أعدها ربها لهذا اليوم العصيب! أعاذنا اللّه شره بحق الحبيب محمد و آله الطاهرين.

كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟: إنما يلقون فيها أفواجا. فعذاب الإلقاء مهانة، و عذاب الأفواج تطلعا و اطلاعا، بعضهم البعض، و عذاب النار الشاهقة الفوارة بوردهم، يضاف إليها كلها عذاب التنديد الشديد الذي لا جواب عنه إلا بلى!.

إنهم يساقون إلى جهنم و يلقون فيها أفواجا: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ زُمَراً (39: 71) جعل الخبيث على الخبيث و ركمهم جميعا: وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ (8: 37) ركما و لكي تشتعل النار و تتميز من الغيظ بركامة وقودها، تناصرا في الصّلاء، و كما تناصروا يوم الدنيا في إيقادها على المؤمنين.

و الملائكة الغلاظ الشداد، و هم أصحابها: عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً (74: 31) هؤلاء العدول الموكلون بالنار يسألون أصحابها: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ: حجة عليهم، و تنديدا بهم أن جاءهم نذير، إذ الهلاك يوم الدنيا و يوم الدين، ليس إلا عن حجة مسبقة تحملها النذر:

ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ (26: 208)، فالنذر تكفي حجة يوم الدين، و لو لم تغن أحيانا يوم الدنيا: حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (54: 5).

و إذ لا تنديد و لا عذاب لمن لم يأته النذر، فما هذا التنديد الشديد بمن لم يأتهم!:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 26

وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ‏ ... وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (34: 44).

تجد الجواب في: قَبْلَكَ‏ فإذ لم يأتهم نذير في الفترة بين المسيح و محمد (ص)، فقد جاءهم النذير الأخير محمد، و فيه الكفاءة إنذارا و فيه المزيد، و انما الآية توضح السبب في تصلبهم في الكفر: أنهم لم يأنسوا بالنذر قبله، و أنه صلى اللّه عليه و آله و سلم يلاقي أشد الصعوبات في الدعوة، و عليه أن يصّعّد أصعب العقبات فيها: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (36: 7).

ثم إذا كان واقع الإنذار شرطا لزاما في جواز العذاب، فما هي- إذا- حال من عاشوا زمن الفترة كما بين محمد و المسيح (ص)؟ أو عاشوا في البلاد المنقطعة عن النذر أو عن إنذارهم كأمريكا، إذ اكتشفت قبل حوالي خمسة قرون؟ أو عاشوا في الفترة بين النبيين، بعد موت السابق و قبل بعث اللاحق، أو عاشوا في زمنهم و لكنهم لم يواجهوهم في دعوتهم؟ فليس هناك- طوال التاريخ- إلا القلة القليلة من الكفار الذين تحق لهم النار، لأنهم أتاهم- أنفسهم- نذير! ثم الكثرة الكثيرة لا يعذبون، إذ لم يأتهم نذير! هنا و هناك تعرف الجواب إذا تعرفت إلى كيان النذير، الذي يفرض الحجة على المتخلفين:

إن الإنسان- غير المجنون و الصغير- إنه يعيش نذرا طوال حياة التكليف، مهما اختلفوا في مدى الإنذار و كيفيته، و طول مدته و قصرها، و قوة حجته و أقواها:

فالعقل نذير، و الضمير الإنساني نذير، و الفطرة نذيرة، و هذه نذر أنفسية دواخل ذواتنا، و هي أسس الإنذار، يتبنّاها المنذرون المرسلون، و تتبنّاها الآيات الآفاقية في دلالتها و إنذارها، سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 27

فعلى العقلاء أن يعقلوا عما تحيطهم من آيات اللّه البينات، و لا أقل الآفاقية الكونية منها، و لا أقل الأنفسية! عليهم أن يعقلوا و يسمعوا و يعوا، و منهم الماردون الذين يتأوهون يوم الورود: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (10).

ثم الرسل المنذرون، ليس لزاما عليهم الإنذار بأنفسهم مواجهة، و لا كل في زمنه، إنما المدار على بلوغ الإنذار الذي فيه الحجة البالغة، سواء حمله الرسول بنفسه، أم بمبعوثيه، أم بكتابه، و لا سيما الكتاب الذي يحمل معجزة الرسالة و معجزة الرسول- البالغة الخالدة: أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ‏! (29: 51).

فكل من بلغته الدعوة الحجة، كيفما بلغت، و بأيّ من الوسائل، فقد لزمته الحجة الإلهية: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (17: 15).

و العذاب دون حجة الإنذار، و كذلك اللّارحمة و اللاعذاب دون بلوغ الحجة، إنهما حجة للناس على اللّه، و حاشاه! و لكن: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ (6: 149) تبلغ العالم بعلمه، و الجاهل بعقله ما لم يقصر: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (4: 165) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏ (20: 134).

و لقد شمل الإنسان النذر و أحاطوا به طوال التاريخ: إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (41: 14) وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ (35: 24) لا تشذ النذارة الإلهية جماعة من الجماعات البشرية، أو قطعة من قطاعاتها سواء أ كان النذير من رجالات الوحي، أم رسلهم الخاصة، أو العامة، أم- و في أقل التقدير- نذر العقول التي تهدي إلى نذر الرسل، و تدفع أصحابها للتحري عنهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 28

و مما لا يريبه شك أن هناك قرى كثيرة ما أتتهم الرسل: وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (25: 51) و لأن الأصل المبنية عليه الحجة ليس إلا وصول الإنذار الحجة، لا مواجهة أصحاب الوحي كل القرى بكل الأمم، و لأنها مستحيلة في الواقع، إضافة إلى عدم لزومها فيما يرام.

صحيح أن النذر و الحجج تختلف، و البيآت تختلف، و العقول تختلف، و لكنما الجزاء كذلك يختلف، وفاقا لاختلاف هذه المبادئ، و

«إنما يداق اللّه الناس في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم» «1».

ثم المكلفون في الفترة الرسالية على حد التعبير المسبق، لم يعيشوا إلا فترة رسولية، لا رسالية، حيث الإنسان- كائنا من كان- يعيش دعوات الرسل و رسالاتهم، المودعة في كتاباتهم، و المنقولة على ألسنة خلفائهم و علماء أممهم، فهم رغم أنهم لم ينذروا بالرسل: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ‏ (36: 6)- هؤلاء الآباء غير المنذرين- و لكنهم أنذروا بحملة الرسالات من العلماء و النبهاء، و على أقل تقدير بنذر عقولهم و فطرهم، و أخيرا لو كانوا قاصرين أو مستضعفين فهم‏ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ‏ فالتوبة عليهم لضعف الحجة، و العذاب- و لا ريب أنه قليل- لأصل الحجة ما داموا عقلاء! ذلك‏ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

و أما العائشون في مثل أمريكا، فمن أين انهم كانوا منقطعين عن الرسالات، الفصل البحار حولهم؟ فعلها كانت متصلة قبل اكتشاف امريكا، اتصالا بريا، أم بحريا بقرب السواحل، ثم ابتعدت لفترة، اكتشفت لآخرها، أم- كأبعد الاحتمالات- كانت المواصلات بحرية رغم بعد سواحلها، و أخيرا، لو تأكدنا من انقطاع المواصلات كلها، بين أمريكا و أراضي الوحي، فمن المحتمل المعقول، بل المدلول عليه بالآيات، أنه كان فيهم منذرون، مستقلون بالوحي، أم من أتباع رجالات الوحي: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (40: 78).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي: باب العقل و الجهل عن الامام الباقر ع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 29

فهل يا ترى ان الأمة الأمة كانية- قبل اكتشافها- لم تكن أمة بشرية حتى تستحق نذيرا يخلو فيها؟: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ! (35: 24) أ فهل نكذب كلام اللّه لأن تاريخ الرسالات لم ينقل لنا عن أنبياء أمريكا شيئا؟

و القرآن يقول: وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ‏ و كيف بنا! إذ نجهل أحيانا من قصهم اللّه، فكيف بمن لم يقصصهم؟! قالُوا بَلى‏ قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ.

هذا الاعتراف- إذ لا مرد لهم منه- إنه عذاب نفسي فوق عذاب التنديد، إضافة إلى عذاب السعير، و شهود الجماهير، و إلقائهم جماعة في السعير مهانة، فقد شملهم و أحاط بهم مختلف ألوان العذاب: نفسيا و جسدانيا، و كما كانوا عذابا يوم الدنيا في الناحيتين، و خلقوا جو العذاب لمجتمعهم ..

و هنا نعرف من الجواب أنهم كانوا ممن جاءهم نذير بالوحي، فواجهوا سفراء ربهم بكل وقاحة و حماقة، تجمع بين توهين اللّه بفرية: ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ و توهين الرسل: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ و هذه إهانة ثانية للّه تعالى، إذ يحسبون رسالته السامية ضلالا كبيرا، و هؤلاء هم المشركون و كما عن باقر العلوم (ع) «1».

و من هنا نعرف و هن العذاب لمن لم يعش الرسالات، أو يواجهها بهكذا تكذيب وقح، فكل إنسان يعمل على شاكلته، و يجزى على شاكلته، و كان ربك بصيرا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 381 محمد بن مسلم عنه (ع) تفسيرا لهذه الآيات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 30

وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ.

أجل- إنما هو السمع و عقل ما يسمع، يفلح الإنسان في الحياة، و يفلج خصومه ضد الحياة! سواء أ كان سمعا بسماع الاذن فعقلا عما سمع، أو سمعا بإذن القلب و عقلا له كذلك، فإن للقلب اذنا كما للجسم.

و هناك اتصالات للإنسان بالعالم الخارجي، تجعله كأنه العالم كله، فيمشي مع الكون صراطه المستقيم .. بالسمع و البصر و مطلق الإحساس.

و لكنما السمع أفلح ما يكون و أقربه إلى الإعتبار و العقل، فأكثر ما يسمعه الإنسان و يفهمه، إنه يعقله، دون البصر و الحس، فإنهما بعد السمع في الإنتاج.

كذلك دواخل الإنسان من فطرة و صدر و فؤاد و قلب و لب و وهم و خيال، فإن العقل فوقها لأنه الذي يعقل: يأخذ- المفاهيم، بالسمع و بالبصر و الإحساس و سواهما، يعقلها فيحولها و يغربلها إلى الصدر و القلب، و القلب عامل نهائي في غربلة ما يرده من الصدر و العقل.

فإنما هو السمع و العقل، إذا عملا و اعتملا كما يجب، كان بعده الفلاح، ثم للمصيب أجران و للمخطئ أجر واحد، ما لم يقصر في الطريق.

ثم العقل: منه قبل السمع: يدفع صاحبه لكي يسمع، و منه بعد السمع يدفعه لكي يعقل ما سمع، و كثير هؤلاء الذين يسمعون و لا يعقلون، لأن سمعهم ليس عن عقل، أو يكتفون بالسمع فرارا عن تكلفات العقل فيما يسمعون، و كثير هؤلاء الذين لا يسمعون لكيلا يعقلوا، و هم أبعد و أضل سبيلا، و قليل من يسمع و يعقل ثم يواصل في عقله و سمعه، و على حد

قول الرسول (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 31

«ما يجزى أحد يوم القيامة إلا على قدر عقله» «1»

، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة.

و إنما يعطف العقل على السمع هنا ب أو لأن عقل الحقائق لا يختص بواسطة السمع و سواه من وسائط الإدراك، إنما الوسائط للأكثرية الساحقة من الناس الحسيين الذين ليست لهم تلك العقول الفائقة الناضجة، و لكنما العقلاء الناضجين يسمعون و يبصرون بعقولهم فوق ما يسمعه السامعون، فإنما هو العقل: عقل الحقائق و إدراكها، سواء أ كان عن سمع الأذان، أم سماعا عقليا و فطريا و فكريا، و هذه هي رؤية الآيات الإلهية في الأنفس: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (41: 53) فالذي يسمع و يعقل، أو يعقل و يسمع، أو يعقل دون حاجة إلى السمع، إلا عن رجالات الوحي لتكميل ما عقل، هذا الإنسان اللبق لا يورد نفسه هذا المورد الوبي‏ء، و لا يجحد مثل ما يجحد به أولئك الأوغاد المناكيد، و لا يتسرع باتهام الرسل بالضلال الكبير، فلا يكون آخر مطافه عذاب السعير: و ماذا عليهم لو سمعوا من العقلاء النابهين، أو عقلوا في أنفسهم! فإن حدود كيان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المجمع عن ابن عمر عن النبي (ص)، و عن انس قال: اثنى قوم على رجل عند رسول الله (ص) فقال رسول اللّه (ص): كيف عقله؟

قالوا: يا رسول الله! نخبرك عن اجتهاده في العبادة و اصناف الخير و تسألنا عن عقله؟ فقال: ان الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، و انما يرتفع العباد غدا في الدرجات و ينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم.

و

في نور الثقلين 5: 382 عن الكافي عن الصادق (ع) من كان عاقلا كان له دين، و من كان له دين دخل الجنة،

و

فيه عنه (ع) قيل له ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمان و اكتسب به الجنان، قيل: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء، تلك الشيطنة، و هي شبيهة بالعقل و ليست بالعقل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 32

الإنسان كإنسان، إنها سمعه من العقلاء، و عقله في نفسه، و لتصبح حياته في ازدواجية مشرّفة لا يضل فيها، و أما إذا حصر سمعه بالمضلات، و عقله بالملهيات و الشهوات فهو السعير في نفسه، و إنما سعير النار صورة واقعية عن سعيره:

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ: كما سحقوا كيانهم الإنساني بسحق عقولهم و محق فطرهم: بعّدوا عقولهم عن السمع، و أسماعهم عن العقل، فحرموا الحياة حق الحياة، فهم يوم القيامة عن حياة الجنة مسحوقون:

بعيدون.

بِذَنْبِهِمْ‏: و هو هنا عدم عقلهم، سواء عن سمعهم أو سواه، فأكبر الذنوب عدم استعمال العقل، لا عدمه، فإنه الجنون الاضطراري، و التكليف خاص بالعقلاء، و إنما الذنب هو الجنون الاختياري، للعاقل الذي لا يستعمل عقله حتى يصبح كأنه مجنون، في تفكيراته و تصرفاته الفوضى.

ايقاظان:

قد يستند إلى هذه الآيات في انحصار عذاب النار بالكفار المكذبين للنذر:

كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ‏ .. فَكَذَّبْنا .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ حيث العموم المستغرق لأهل النار في المكذبين الكفار! و هذا خلاف الآيات الشاملة لغيرهم، أو الخاصة بمن سواهم من المتخلفين!.

و الجواب نجده في الآية المسبقة: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ ..

فهم المعنيون ب كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ .. لا كل أهل النار، و إثبات النار لهؤلاء الكفار لا ينفيها عن سواهم ممن يسحق النار، و إنما اختص المكذبون بالذكر هنا لأنهم صلاء النار و وقودها، و هم الخالدون فيها أبدا، دائمون فيها ما دامت.

و قد يستند الجبرية هنا ب «لو»- الدالة على امتناع مدخولها- على أن سماعهم للحق و عقلهم عنه كان من المستحيل: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ‏ فكيف يلامون و يلومون أنفسهم؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 33

و الجواب: إن كانت هناك استحالة فإنما هي بالاختيار: إنهم تمادوا في الطغيان حتى كأنهم أصبحوا طغاة في ذواتهم بما كسبوا: كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ‏ فمن رين على قلبه لا يستطيع السمع و العقل بما كسب، و من العقوبات الإلهية يوم الدنيا انه يزيغ قلوب من زاغوا: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ:

الخشية خوف يشوبه تعظيم، و أكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه، و لذلك خص بها العلماء باللّه: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ (33: 39) و الخشية العالمة من نتائج العقل الفعال، فأصحابه يخشون ربهم، يخشونه لما عقلوه و علموه من ربوبيته لهم و لعالمهم، و كلما ازدادت المعرفة هذه ازدادت الخشية، و كلما ازدادت الخشية ازدادت المعرفة، تناصرا في الزلفى، ابتداء من العقل.

بِالْغَيْبِ‏: غيب الرب، فرغم أنه غيب عن الإحساس يخشونه، لأن عقلهم عنه و علمهم به جعلهم كأنهم يرونه:

«اعبد ربك كأنك تراه و إن لم تكن تراه فإنه يراك».

و بِالْغَيْبِ‏: غيب العقل، فبه يعرف الرب و يخشى، فهو لا يعرف و يخشى بالحس «فلا يحس و لا يجس و لا يمس و لا يدرك بالحواس الخمس» و إنما يعرف بالعقل و بأصحابه من الفطرة و الصدر و القلب، عقل معرفة لا عقل إحاطة و اكتناه ذات أو صفة.

و بِالْغَيْبِ‏: غيبا عن الناس، بينه و بين ربه، و لكي تسلم خشيته عن الرئاء، طالما يخشاه في الناس أيضا، فمن الناس من يخشى ربه عند الناس، و إذا (تفسير الفرقان- ج 29- م 3)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 34

خلى عنهم لا يخشاه، أو لا كما يخشاه عند الناس، و منهم من يخشاه في الغيب إخلاصا في الخشية، ثم قد لا يخشاه في الناس، زعم أنه مزيد في الإخلاص! و منهم من يخشاه في الغيب أكثر مما يخشاه علانية، و منهم من يعكس أمر الخشية هذه و هم الأكثرون، و منهم من يخشاه في الغيب و الشهادة على سواء، فلا يفرق له حضور الناس و غيبهم، و هؤلاء هم الأقلون عددا، و هم المعنيون هنا، و إن خصت خشيتهم بالغيب هنا بالذكر، لأنه الأصل فيها، ثم من سواهم في هدى أو ضلال، مهما اختلفت درجاته أو دركاته!.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ‏ و هو غيب، بغيب عقولهم، و في غيب عن الناس‏ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ: مغفرة لرفع ما ربما يعرضهم من خطأ و غفلة، و دفع ما ربما يقصدهم و لمّا، مغفرة دون عذاب، و لأنهم تبنّوا حياتهم من خشية الرب، و هي من أكبر كبائر الحسنات اللاتي يذهبن السيئات: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ‏ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً و أجر كبير لموقفهم هذا- الكبير.

وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ:

أسروا قولكم: مع ربكم- في ذكره و دعائه و عبادته، أو في معصيته، أو اجهروا به، فهما على سواء لربكم: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ فالقول إبداء لما في الصدر، و اللّه عليم بذات الصدور، أكثر مما يعلمه ذوات الصدور من أنفسهم.

فهل يجهر المؤمن بقوله لكي يعلمه اللّه؟ فلا يصلح هكذا جهر! أم يجهر لكي يتبعه غيره فيشاركوه في عبادة ربه؟ فنعم و نعما هو! أم هل يسر الكافر بقوله لكي يخفيه عن اللّه، فاللّه عليم بذات الصدور! فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏ فكيف بالجهر، و تقديم السر هنا يوحي بما يروى أن الكفار كانوا يسرون من وقيعتهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 35

على النبي لكيلا يسمعه ربه فيخبره به‏ «1» كما و يوحي بتقدم السر على الجهر إذ القول إنباء عما في الضمير، و اللّه تعالى خبير بما في الضمير و لمّا يظهر، ثم خبير به إذا ظهر و هو أجدر، فكأنه أخبر بالسر من العلن إذ قدم السر، و لكنهما له سواء: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ: صاحب الصدور، فإذا هو عليم بأصحاب الصدور ذواتهم، فكيف تخفى عنه الصدور و مطوياتها.

أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ: لطيف في ذاته فلا يرى، و لطيف في خلقه و

«بخلقه بلا علاج و لا أداة و لا آلة، و إن كل صانع شي‏ء فمن شي‏ء صنع، و اللّه الخالق اللطيف الجليل خلق و صنع لا من شي‏ء» كما عن الإمام موسى الكاظم (ع) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله (ص) فيخبره جبرائيل، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم- لئلا يسمع اله محمد فأنزل الله هذه الآية.

(2)

اصول الكافي عنه (ع) في حديث طويل، قوله (ع): انما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشي‏ء اللطيف، أ و لا ترى الى اثر صنعه في النبات اللطيف، و من الخلق اللطيف، و من الحيوان الصغار، و من البعوض و الجرجس، و ما هو أصغر منها مالا تكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره، الذكر من الأنثى، و الحدث المولود من القديم.

فلما رأينا صغر ذلك في لطفه و اهتدائه للفساد و الهرب من الموت و الجمع لما يصلحه، و ما في لجج البحار و ما في لحاء الأشجار، و المفاوز و القفار.

و افهام بعضها عن بعض منطقها، و ما يفهم به أولادها عنها، و نقلها الغذاء إليها، ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة، و بياض مع حمرة، و انه مالا يكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها، لا تراه عيوننا، و تلمسه أيدينا، علمنا ان خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 36

الْخَبِيرُ و على حد تفسير

الإمام الرضا (ع): «و أما الخبير فالذي لا يعزب عنه شي‏ء، و لا يفوته شي‏ء، ليس للتجربة و لا للاعتبار بالأشياء، فعند التجربة و الاعتبار علمان و لولاهما ما علم، لأن من كان كذلك كان جاهلا، و اللّه لم يزل خبيرا بما خلق، و الخبير من الناس، المستخبر عن جهل، المتعلم، فقد جمعنا الاسم و اختلف المعنى» «1».

و إن اجتماع الاسم و اختلاف المعنى بين الخلق و الخالق، يعم الذات و الصفات و الأفعال أجمع، فالموجود يطلق عليهما، و لكنما حقيقة الوجود الإلهي تباين وجود المألوهين تباينا كليا، و لا يعني باختلاف المعني، اختلاف المفهوم فقط، بل كلما وراء الاسم، من مفهوم و حقيقة خارجية، فكما أن واقع الوجود الإلهي يباين واقع وجوداتنا «باين عن خلقه و خلقه باين عنه» كذلك المفهوم من الوجودين، فنحن نفهم من وجوداتنا ما نفهم، و لا نفهم من حقيقة الوجود الإلهي إلا أنه غير معدوم، و أما الإحاطة بوجوده، أو إدراكه و لو شيئا ما- فلا!.

فالاعتراف بأنه خالق، لزامه الاعتراف بعلمه، إذ الخلق يلزمه اللطف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

أصول الكافي علي بن محمد مرسلا عن أبي الحسن الرضا (ع)- و في تفسير البرهان ابن بابويه باسناده عنه (ع) قال: انما سمي الله بالعلم لغير علم حادث علم به الأشياء و استعان به على حفظ ما يستقبل من امره، و الروية فيما يخلق و يفنيه ما مضى مما أفنى من خلقه مما لو لم يحضره ذلك العلم و يعينه، كان جاهلا ضعيفا، كما أنا رأينا علماء الخلق انما سموا بالعلم لعلم حادث إذ كانوا قبله جهلة، و ربما فارقهم العلم بالاية فصاروا الى الجهل، و انما سمي الله عالما لا يجهل شيئا فقد جمع الخالق و المخلوق و اختلف المعنى على ما رأيت-.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 37

و الخبرة: العلم و القدرة و الحكمة و البصيرة، فالخلق الفوضى لا يأتي إلا بالفوضى و الفتور و الفطور فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ! فهما أنكر الماديون الخالق المجرد عن المادة، فهل بإمكانهم إنكار الخلق، و ان خالقه عليم لطيف خبير؟! و إذا لم تدل حكمة الخلق و روعته و تناسقه و تلاؤمه، على لطف خالقه و خبرته، فهل تدل على جهله و فوضويته؟ فهل بإمكان الجهل و الفوضى أن يأتيا بالحكمة، و ليس بإمكان العلم؟ إذا فعلى الجهال أن يحتلوا كراسي التدريس في مختلف العلوم، ثم الأساتذة العلماء يعتبروا أنفسهم خدامهم أو تلامذتهم!.

[سورة الملك (67): الآيات 15 الى 22]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (15) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (18) أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ بَصِيرٌ (19)

أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (21) أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى‏ وَجْهِهِ أَهْدى‏ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 38

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ:

الأرض الذلول:

نستوحي من جعل الأرض ذلولا أنها كانت قبلئذ شماسا غير ذلول، و بما أن الذلّ ما كان بعد تصعّب و شماس، و الذلول هي الدابة التي ذلت بعد شماس، نتأكد أن أرضنا هذه تحكمها حركات متلائمة كالدابة الذلول، لحدّ كأنها دابة، و قد ذكرت لها مناكب كما للدابة: فَامْشُوا فِي مَناكِبِها!.

فمن رحمته تعالى أنه جعل أرضنا الشموس، المحترقة المجنونة، التي ما كانت تذل لراكب، و لا تحنّ لعائش، جعلها لنا كالمركوب الذلول، ممكّنة من الاستقرار عليها، و التصرف فيها، طائعة غير مانعة، و مذعنة غير مدافعة، فَامْشُوا فِي مَناكِبِها: في ظهورها و أعاليها، وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ.

فيا لحركات الأرض من نعمة في ليونتها و نعومتها، لحدّ ما كانت البشرية تحسها و لمّا، و لا تصدقها حتى برهن لها العلم، و قبله صرحت بها آيات بينات، منها آية الذلول، مهما أوّلها المفسرون الأول، زعم سكون الأرض، و حتى الآن لا يكاد يصدقها المؤمنون غير المثقفين!.

هذه الوالدة الحنونة، تنوّم و تعيّش أولادها، و أفلاذ كبدها، بحركاتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 39

الناعمة اللينة، حركات لولاها لا نصدمت الأرض و من عليها، بما لم يكن ليجبرها أيّ جابر.

فالأرض جعلت ذلولا في حركاتها و حرارتها و جرمها و كل ما يصلح للحياة فيها، و هذه هي غاية الذل و مبالغته المستفادة من صيغة المبالغة «ذلول».

و آية القرار: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً (40: 64) ليست بالتي تسكن الأرض عن حراكها، بل تقر الأرض في حركاتها، إذ «القرّ» أصله البرد، إيحاء بسابق حرارة الأرض و شماسها في حركاتها المجنونة، فجعلها ذلولا، و من ذلّها قرارها: برودتها لحدّ تحنّ لعائشيها و راكبيها أن يمشوا في مناكبها و يأكلوا من رزقه.

ثم نجد آيات: «الكفات»، و «المهاد»، «و الراجفة التي تتبعها الرادفة» و كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ‏ نجدها تصريحات في حركات الأرض، كما درسناها و ندرسها في طياتها.

فمن أسباب جعل الأرض ذلولا جبالها الرواسي و كما

في خطبة لعلي عليه السّلام: «و عدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها»

و منها تبريدها عن حرارتها الزائدة اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً (40: 64).

إن هذه الجبال الشاهقة الخشن الملامس، الصعبة المسالك، التي جعلت للأرض أثقالا و أوتادا، و للخلق معقلا، إنها مع سائر المرتفعات هي مناكب الأرض، و قد ذللها اللّه تعالى على شموخها أن نمشي عليها و نستثمرها لصالحنا، أو نفجرها أو نستفجرها لصالحنا، ثم الأرض ذلول لنا، لا ليّنة لا نتماسك عليها، و لا صعبة لا نقدر على حفرها و زرعها، و لولا أن اللّه تعالى جعلها ذلولا لما أمكنت من التصرف على ظهرها، و لا مثبت قدم عليها، و لا مسرح نعم فيها، سبحان الخلاق العظيم! جَعَلَ لَكُمُ‏: أما كانت الأرض قبلنا ذلولا؟ و ولادتنا نحن الأناسي من آدم ليست إلا زهاء مائة قرن، و الأرض تعيش و تعيّش العائشين عليها منذ ملايين السنين!؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 40

الجواب: أن «لكم» لا يخصنا نحن الإنسان من ولد آدم الأخير، بل تعم كل من يستأهل الخطاب ب «كم» ممن عاش على وجهها منذ الملايين من السنين، و كما

عن الإمام الصادق عليه السلام: إن اللّه تعالى خلق ألف ألف عالم و ألف ألف آدم و أنت في آخرهم.

ف «كم» هنا، تعني عامة المكلفين العائشين على وجه الأرض، منذ جعلت ذلولا، أو ان الخطاب هنا تختصنا تشريفا و تكريما لنا، كأنما الأرض ذللت لنا، و قد كانت مذللة لمن سبقنا. فقد أخذت الأرض- بجوها- تقبل بخار المياه و تبدلها ماء، و تقبل مياه السماء و اختباءها في عيونها، و إنبات الأرض نباتها، فإعاشة حيوانها و إنسانها، و كما نجد عرض التكامل الأرضي في الآيات من فصلت.

إننا- لطول ألفتنا بالحياة على هذه الذلول، و سهولة استقرارنا عليها، و سيرنا فيها، و استغلالنا لتربتها و مائها و كلاءها و هوائها- نحن ننسى نعمة اللّه في تذليلها لنا، و اللّه تعالى يذكرنا إياها و يبصرنا بها في هذا التعبير العبير، عديم النظير، الذي كله علم و حكمة و موعظة و ذكرى: يوحي ان هذه التي نراها مستقرة ثابتة، هي كدابة دائبة الحركة متحركة، رامحة راكضة مهطعة، لا تبعثر راكبها، و لا تتعثر خطاها، ثم هي حلوب: فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ.

فيا لها من إشارة عابرة في الذكر الحكيم عن مركوبنا، تحمل ما لم يتحمله العلم على تقدمه البارع، مدى التأريخ و حتى الآن.

فالأرض ذلول في حركاتها حول نفسها و حول شمسها، و هي معها حول فلك جماعي تحول حولها المنظومة الشمسية، بسرعة على ترتيب: ألف- خمسة و ستين ألف- عشرين ألف: ميلا في الساعة، و مع هذه الركضات المسرعة يعيش عليها الإنسان آمنا دون اضطراب فيها، و لا انفلات عنها، و لا دوخة و ارتجاج في مخه، و في كل هذه الدورانات حكم لا يحصيها العلم، و إن وصل إلى بعضها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 41

و اللّه تعالى جعلها ذلولا بآلاف من هذه المواقف الحكيمة الضرورية، التي لولاها، أو واحدة منها، لاستحالت الحياة عليها أو صعبت، و سوف نرسل البحث الفصل عن طائرتنا الجوية الكفات في سورة المرسلات، لو ساعدتنا الحياة، بتوفيق خالق الحياة و الممات.

و هل لنا أن نأمن على هذه الأرض، و لأنها ذلول؟ أما إن ذلتها ليست إلا بما جعلها تعالى لنا، فإذا شاء يخسف بنا الأرض فإذا هي تمور، أو يرسل علينا حاصبا! أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ:

هل يا ترى إن اللّه ساكن السماء و ما كنها حتى يخسف بنا الأرض منها! كلا! وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ (43: 84) ليس له مكان، لأنه الذي مكّن المكان! و إلهيته تشمل السماوات و الأرض، لا ذاته، و إنما قدرته و علمه و قيوميته! الجواب: أن من في السماء إنما هم المدبرات أمرا بإذن اللّه، لا ذات اللّه، سبحانه و تعالى عما يصفون، و منهم ملائكة يصدرون عن أمره و يفعلون ما يؤمرون.

أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ‏: يشقها بكم و يغيّبكم فيها، فإذا هي تمور: تتردد ذهابا و إيابا كالموج: ان يهزها هزا و يرجها رجا، فهي تمور و تفور، فتفرقكم في مورها من فورها، فالذي جعلها ذلولا بعد شماسها، هو القادر على أن يرجعها شموسا ماردا مائرا.

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ:

الحاصب: الريح التي تأتي بالحصى و الحجارة، و كما أرسلها على قوم لوط المجرمين:

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ (54: 34) فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ:

نذيري؟ كيف حال المنذرين، المؤمنين منهم و الكافرين، و كيف المنذرون، فهل هم كما قلتم: في ضلال كبير؟ أم أنتم الأوغاد المناكيد!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 42

و إذ لم نر حتى الآن مور الأرض و حاصب السماء، فقد رأينا الزلازل و البراكين التي تكشف عن الوحش الجامح الكامن في الدابة الذلول، التي يمسك اللّه بزمامها فلا تثور إلا بقدر، و لا تجمح إلا ثواني عدة، يتحطم فيها ما شيدناه، أو يغوص فيها إذ تفتح أحد أفواهها و تخسف قطعة منها و هي تمور! أَ أَمِنْتُمْ‏ أمان الغافل الناكر مكر اللّه‏ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ‏ (7: 99) أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى‏ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (16: 47).

هذا! أما إذا أمنتم إلى اللّه و رعايته و رحمته، فهذا من صفة المؤمنين، لا يقودهم إلى الغفلة و الانغمار في غمرة الأرض و متاعها، و إنما يدفعهم إلى الحياء من اللّه، و أن يرقبوا أعمالهم، و يربطوا بها أمنهم و آمالهم.

وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ: نكيري عليهم بما أنكرت موقفهم كما أنكروني و عاشوا حياتهم نكيرا لي .. فنكيرهم كان انكار نعمة اللّه بعد ما عرفوها، و إنكار طاعة اللّه و عبادته، و إنكار نذره و رسله، و نكير اللّه عليهم أنه ينساهم كما نسوه و نسوا سوء الحساب، جهنم يصلونها و بئس المآب.

فنكير اللّه هنا هو الإنكار و ما يتبعه من آثار الخراب و الدمار، تصف لهم كيف كان هذا النكير و ما أعقبه من تدمير خطير.

فهل بإمكان الإنسان أيا كان أن يكافح نكير الرحمان و يدافع عن نفسه مور الأرض و حاصب السماء، أو رجفة موضعية بسيطة، أو حسبانا؟ قد يخيل إلى البعض من العميان المناكيد أن الإنسان هو سيد الكائنات، و سوف يتمكن من كفاح الحوادث بقوة العلم، و هذا تكذيب لوعود اللّه: وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 43

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ بَصِيرٌ.

طير فوقنا حين الطيران، صافات مبدئيا، لأن الصفيف هو الباعث الأكثري الأصيل للمسكة و السير في الفضاء، و يقبض، كعملية هامشية في الطيران، قبضا للتهيؤ و الإمداد للطيران، و للراحة، و للطيران في بعض الأحيان.

أولم يروا- فيما يرون- من عجائب الخلقة و القدرة الإلهية، مما يسبح في الفضاء دون عمد كسائر الأنجم بسمائها: رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها و من طائرتنا الأرضية الذلول الكفات السريعة السير و الدوران، كيف تسبح في فلكها مع رفيقاتها السابحات: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ‏ .. وَ الشَّمْسُ‏ .. وَ الْقَمَرَ .. وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (31: 33).

أولم يروا إلى أمثال هذه الطائرات السابحات؟ فمن هذا الذي يمسكهن إلا الرحمان؟ لا نقول: إنه يمسكها عن السقوط دون سبب طبيعي، و إنما الأسباب الطبيعية هي أيضا منه و هو يمسكها و يسببها، كانت ظاهرة لنا بمسبباتها، أم خفية: سوف تظهر أم لا.

و لقد أخذت البشرية مثال الطير، و اختلق رمز مسكتها و طيرانها في الطائرات بعد أن سقطت ضحايا في دراسة الطيران من الطير «1»، ابتدأت الخطورة الناجحة في صناعة الطائرات سنة 1891 م- إذ قام (ليليانتال) و راقب الطيور في حركاتها عشرين سنة متوالية، و قال: إني درست من هذه الطيور أن سير الطيران يتم للإنسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منهم رجل ايطالي في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكندري في بداية القرن 16 م، و بعد قرن راهب الماني، ثم مركيز فرنسي في أواسط القرن 18 م، ثم عباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري، حاولوا الطيران باجنحة من ريش تقليدا ناقصا عن الطير فأخفقوا جميعا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 44

الواجبة للارتفاع عن الأرض، و حينئذ يمكنه أن يحوم في الفضاء كما يشاء، و لكنه مع نجاحه المبدئي أيضا سقط من طائرته فمات سنة 1896، و بعده- و على أساس فكرته و تجربته- قام شابان أمريكيان هما الاخوان (ويلبور) و (اورفيل رأيت) و استكملا ما تبناه المخترع الأول، شيئا ما، فطار أحدهما في الهواء أربعة و عشرين ميلا في ثمان و ثلاثين دقيقة، و هذا مبدأ فتح مملكة الفضاء، و هكذا إلى أن وصلت الطائرات في سيرها سرعة الصوت!.

أ فلم يروا- فيما رأوا- إلى طائراتهم صافات في جو السماء، ما يمسكهن إلا الرحمان، لأنه الخالق أسباب المسكة و الطيران، و خلق عقل الإنسان الذي استطاع به أن يكشف البعض عن رمز المسكة الجوية، فهل تطير الطائرات و تمسك إلا بالبترول؟ و قد خلقها الرحمان! أو هل بإمكانها الطيران لو لم يخلق الفلز الخفيف المناسب لغزو الفضاء، أو هل كان بمستطاعه هذا الاختراع لو لم يخلق له مثاله: الطير فوقه صافات و يقبضن! سبحان الخلاق العظيم.

ثم كم فرق بين طير الرحمان و طير الإنسان، فطير الرحمان يطير بشعوره الذاتي المتصل، بروح عاقلة فاهمة دون طيار غيره، و طير الإنسان يطير بشعور منفصل، بطيار الإنسان، فيه، أم في الأرض، بسياقته المنفصلة. و هذا ليس بإمكانه أخذ البترول في الجو، و بإمكان ذلك- و لو أحيانا- أخذ الغذاء و الماء في جو السماء! طالما الاثنان من صنع الرحمان، و لكنما الضعف في طير الإنسان ناشئ عن صنعه و قلة علمه: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا! إن تلكم الخوارق نعيشها في كل لحظة، مهما أنسانا وقوعها المتكرر، فالطير في جو السماء، حالة الصف الغالبة، و القبض العارضة، يظل في الهواء، مشهد رائع، و منظر فائق لا يملّه النظر و لا تمليه الفكر، و ما يمسكهن إلا الرحمان، برحمته التي وسعت كل شي‏ء.

لا ننكر أن ذلك كله- على الأكثر- لأسباب طبيعته، و لكن من ذا الذي خلقها و سبّبها؟ و من الذي رتبها؟: النواميس التي تكفل آلاف الموافقات،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 45

و تكلف آلاف المناسبات، في الأرض و الجو و خلقة الطير، لتتم هذه الخارقة، و تعم بانتظام دائب.

إنه ليس مسك الكون فقط من خالقه، فمسكة الكون، و ترتيب الكون، و تركيب الكون، و آثار الكون و خواصه، و ما إلى ذلك من مسك، ليست إلا من الرحمان: إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ بَصِيرٌ.

ليست هنا و هناك فوضى، دون بصيرة و لا هدف مقصود، و إلا لا نخرط نظام الكون، و بطلت قوانينه، و بطل اكتشاف العلل من المعلولات، و بطلت العلوم بأسرها! هل تظن أن إمساك الدواب على الأرض الطائرة، إنه أسهل من إمساك الطير في جوّ السماء؟ فهل يا ترى أيهما أصعب و أعجب؟ إمساك الطير، أو إمساكه بما يحمله؟ و الأرض طير تحمل البليارات من راكبيها، أحياء و أمواتا: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً. أَحْياءً وَ أَمْواتاً (77: 25) كفاتا: تسرع في طيرانها، متقبضة فيها أحياء ما عليها و أمواتها، مكافحة قانون الفرار عن المركز، و سوف يأتيكم نبأ الكفات في سورة المرسلات.

علك تسأل: لماذا القرآن لا يصرح بطيران الأرض و مسكتها في الجوّ، فيمثل الطير؟ الجواب: انه يمن- فيما يمن علينا- بكفات الأرض، منة عابرة، كيلا تفاجأ بالتكذيب، لأنه خلاف الحس العام، فيخص التصريح، و الأمر بالنظر، بما لا ينكره أي ذي بصر: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ‏ أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (16: 79) وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ‏ (24: 41).

جلنا جولات عاطفة عابرة، كلها عبرة، مع الأرض الذلول، و الطير الممسك، و مع الخسف و الحاصب، و لم نجد لنا منها جنودا منفصلة من دون الرحمان، بل هي و الكون كله من جنود الرحمان:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 46

أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ، إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ:

إنهم غرتهم الحياة الدنيا و غرهم باللّه الغرور، فظنوا أن ما نعتهم من اللّه آلهتهم التي ألهتهم عما يهمهم من متطلبات الحياة، و جمدتهم على ما غرتهم، فهل يجدون واقع النصر من جنودهم المزعومة من آلهة متفرقة مفتقرة إلى اللّه الواحد القهار؟

ثم رزق اللّه، المحيط بهم في آفاقهم و أنفسهم، المرسل من عند الرحمان بقدر معلوم، فهل من مرسل لهم دونه، إن أمسك رزقه؟

أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ:

و اللجاج في العتو و النفور- رغم لزوم الطاعة بوفور- إنه عادة كل كفور يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها (16: 83) أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (16: 71)؟

يا ليتهم ظلوا دون سلب أو إيجاب، و لم يضلوا هكذا في عتو و نفور، في طغيان عات، و إعراض نافر، كأنهم يكافحون ألد أعدائهم، و ينفرون عمن يخاصمهم حياتهم! فيا لهم من حالة مزرية و قحة حمقاء، فما لهم كيف يحكمون! و هذه هي مشية المكب على وجهه لا يعرف إلا هواه، و لا يمشي إلى هداه:

أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى‏ وَجْهِهِ أَهْدى‏ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏؟

إنها صفة من يخبط في الضلال، أو يخرط الظلمات إلى النور، أ هما على سواء؟

الضال الخابط الهابط حياته، كمن يمشي مكبا على وجهه، إذ لا ينتفع بمواقع بصره و هو في وجهه، و إذا كان الوجه مكبوبا على الأرض، كان ماشيه كالأعمى و أضل سبيلا، لا يسلك جددا، و لا يقصد سددا، فهو أبدا في بدد، يعثر كل ساعة، و يخر على وجهه في كل خطوة لاختلال قواه و انقلاب مشيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 47

الأعمى الماشي برجليه، قد يمشي على صراط مستقيم، أو يمشّى عليه، إذ لو فقد البصر، لم يفقد البصيرة، فهو يمشي بما به يمشى: برجله، لا على وجهه.

و لكنما العاتي النفور الكفور يمشي مكبا على وجهه، أ فبإمكانه أن يمشي أو أن يمشّى؟ كلا- و إنه يظل مرتكسا في حمأة الضلال!.

إنه مثل ما ألطفه و أمثله، لمن لا يعرف إلا نفسه بهواه، فليست مشيته في الحياة، في حركاته و تصرفاته، في تطوراته و تفكيراته، ليست إلا بغية الهوى و شهواتها، فلا يبصر إلا هواه، و لا يتبصر لهداه، فهو في خوضه يلعب، و في غيه على عيه يتردد، يمشي دوما إلى نفسه، فهي غايته القصوى، دون أن يمشي على صراط مستقيم: إلى اللّه و معرفته، و إلى صالح مجتمعه لمرضاة اللّه، فهو كدودة القز، ينسج حوله في كد، و يحبس نفسه لصالحه، ثم يخرقه لكي ينجو عن الخفق، و لا يستفاد من نسجه لصالح غيره، إلا أن يبتدره صاحبه، فيقتله بماء ساخن رغما عليه، فينتفع من نسوجه غير المخروقة! هذا الذي يمشي مكبا على وجهه، حياته مركوسة و قلبه منكوس‏ «1» و هو منحوس، لا يأتي حياته إلا بركسة و نكسة: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (18: 104)\*\*\*

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

معاني الاخبار للصدوق، و الكافي بالإسناد الى سعد الخفاف عن الباقر (ع) قال: القلوب اربعة: قلب فيه نفاق و ايمان، و قلب منكوس، و قلب مطبوع، و قلب أزهر أنور- قلت: ما الأزهر؟ قال: فيه كهيئة السراج، فاما المطبوع فقلب المنافق، و اما الأزهر فقلب المؤمن، ان أعطاه الله عز و جل شكر، و ان ابتلاه صبر، و اما المنكوس فقلب المشرك، ثم قرأ هذه الآية أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى‏ وَجْهِهِ أَهْدى‏ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 48

[سورة الملك (67): الآيات 23 الى 30]

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (30)

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ‏:

أَنْشَأَكُمْ‏: بأبدانكم: أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها (11: 61) و بأرواحكم: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (23: 14) و بما أن الإنشاء هو الإحداث و التربية، لذلك يعم إحداث و تربية الإنسان بجزءيه، كما و أن جعل السمع و الأبصار و الأفئدة- هنا- هو إنشاؤها: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ (23: 78).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 49

و إنشاء الإنسان هكذا و إن كان يشمل السمع و الأبصار و الأفئدة، و لكنها خصت هي بالذكر إيحاء إلى أهمية الروح بين جزءي الإنسان، ثم أهمية هذه الثلاث بين قواها الداركة، ثم اختصاص الأولين بين الحواس لأهميتها بينها، كما اختصاص الأفئدة بين المدركات الروحية لأنها أهمها، كل ذلك: إضافة إلى شمول السمع و الأبصار، أبصار الفؤاد و سمعه- أيضا، و لكنما الفؤاد يختص بقلب الروح فحسب.

نرى في ثلاثة عشر موضعا من القرآن قورن السمع بالأبصار، قرن المفرد بالجمع! و لماذا؟ طالما الأذن يجمع بالآذان في مواقف الجمع: أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها و فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ و لا نجد الأسماع و لا مرة واحدة! الجواب: عله أن السمع مصدر في أصله فلا يجمع، كما: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (26: 213) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (50: 37).

و أن السمع- غير المصدر- قوة في الأذن، و ليس هو الأذن، و لكل منا سمع في أذنين، و ليس بصر في عينين، حيث البصر هو العين، أو منه العين، فلا يجب إفراده، فالسماع أو قوة السماع لا يجمع، إلا أن يعنى به ما للناس أجمع، كما في القلوب.

و ان السمع- عله- جمع، أو مفرد و جمع، كما عن سيبويه، لذلك نرى صيغة الإفراد كأنه لزام السمع دون أخويه: الأبصار و الأفئدة.

ثم السمع أفضل الحسين، و كما أفرد بالذكر مع العقل: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ و إنما الأبصار من مساعدي السمع و الافئدة و قد يعم- كما هنا- سمع الأذن و سمع القلب بأذنه، كما يبصر ببصره: قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ (79: 9) رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 50

نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (32: 12) فإن بصر العين و سمع الأذن كان لهم و لكل الحيوان يوم الدنيا، لا يختصان بيوم تبلى السرائر و تنكشف الحقائق.

كما و أن الأبصار تعم البصر و البصيرة، بصر العين و بصيرة العقل و القلب و الصدر و السر و الخفي و الأخفى.

و الفؤاد كالقلب بتضمين معنى التفؤّد، أي التوقد، فالقلب المتوقد بنور المعرفة الفطرية ثم الاكتسابية على أساس الفطرة، هذا هو قلب الإنسان، و ما به الإنسان إنسان، دون القلوب المقلوبة الميتة التي لا وقود لها، أو تتوقد بنيران الشهوات و التخلفات.

نقف هنا وقفة الحائر أمام خادمي الفؤاد: السمع و البصر و ما فيهما من عجائب لم يبلغ العلم إلا إلى شي‏ء منها يسير، بجنب المجهول الكثير الكثير! إن حاسة السمع تبدأ في القسم الخارجي من جهازها (التليفوني) «الأذن» و لا يعلم أين تنتهي إلا اللّه! و القسم الداخلي من هذا (التليفون)، يأخذ بما فيه من «التيه»: الاهتزازات الواقعة على طبلة الأذن، و التيه يشتمل على نوع من الألية بين لولبية و نصف مستديرة، و في القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس، و في الأذن مائة ألف خلية سمعية دقيقة تحير العقول‏ «1».

«و مركز حاسة الإبصار هو العين التي تحتوي على مائة و ثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء، و هي أطراف أعصاب الأبصار، و تتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة، و الطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مقتطفات عن كتاب: الله و العلم الحديث للاستاذ عبد الرزاق نوفل ص 57.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 51

و مخروطات، يقال إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود، و الثانية ثلاثة ملايين مخروط» «1».

هذه من الهبات العظام التي منحها الإنسان ليشكر ربه فيها و بها، و لكن:

قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ‏ فقليل منا شكور، و هذا القليل كذلك قاصر عن أداء القليل من شكره، فلنعترف بالقصور و التقصير بجنب اللّه، عله يعفو عنا بفضله و كرمه.

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ‏:

ذرأكم: أظهركم و أوجد أشخاصكم، بعد ما كنتم خاملين تحت عموم التراب، دون أشخاص و لا شخصيات، ذرء أول، إظهار أبوينا الأولين و إشخاصهما إلى الوجود، و ذرء ثان مواصلة ذرئنا في الأنسال، الذراري من الآباء و الأمهات:

فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ .. (42: 11): يبرزكم أنسالا في جعل الأزواج فلولاها لم تكن أنسال، و كما يذرؤ الحيوان و مختلف النبات بالأزواج: وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ (16: 13) كما و أن لذرء النبات و الحيوان دخلا جوهريا لذرء الإنسان، فقد زرعنا اللّه تعالى كالنبات من الأرض: وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (71: 17) و ذرأنا أولا و على طول الإنسان.

وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ‏: و سوف تحشر: تجمع ليوم الجمع- هذه الأنسال الكثيرة المختلفة، ذرأكم في البداية، و إليه تحشرون في النهاية- إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ‏ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى‏.

وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏:

فهل يا ترى أية علاقة لمعرفة وقت الحشر بصدق وعده؟ فإذا قال المسؤول:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن كتاب: العلم يدعو للايمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ص 113.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 52

سوف تحشرون بعد ألف سنة، فهو صادق! و إن لم يدركان كاذبا! .. فأيّ منا يدري متى يموت، رغم علمه أنه سوف يموت، فهل لأحد منا نكران موته لأنه لا يدري متى هو؟.

أو لم يكف لتصديق وعد الحشر الجزاء عدل اللّه و حكمته، و لو لم يعد به، و قد وعد! أم لا يكفي شاهدا على إمكانية الحياة بعد الموت، تواتر الموت و الحياة، متواصلة متعاقبة على الكائنات؟ مهما جهلنا وقت الحشر! قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ‏: أنا نذير بين يدي عذاب شديد، مبين في إنذاري في لغة الإنذار، و كيفية الإنذار، و حجة الإنذار، لا أملك من موعد الحشر إلا الإنذار له، و إنما علمه عند اللّه.

و هكذا تكون أسئلة الناكرين المعاندين للحقائق، يدخلون أنفسهم في مآزق و يفضحونها، زعم أنهم ناجحون في هزئهم بحملة الرسالات الإلهية.

و بينما هم يسألون شاكين هازئين متعنتين، و يجابون عن حتم و جزم، نراهم يفاجأون بخبر الحشر كأنه واقع، فيجابون بواقع الجزاء عما يدّعون:

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ‏:

فلما رأوا المحشر كما وعدوا به- رأوه زلفة: قريبة- و كل آت قريب- سيئت وجوه الكافرين به، باديا فيها الاستياء، و وجدوا جوابهم حاضرا حاذرا في تأنيب: هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ‏: تطلبونه هازئين!.

يا ويلاه! كيف رأوه الآن و هم بعد أحياء ناكرون؟ أقول: هذه قفزة علمية- كأنها الواقع- يقفز بهم اللّه من الدنيا إلى قرب الحشر، إلى أشراط الساعة، طيا لخط الزمن الفاصل بين البعدين، فإن الزمن إنما يقوم بالقياس إلى أهله، الحاكم عليهم، و المتصرف فيهم، دون خالق الزمن، الكائن قبله و بعده و معه و إنّما يجذب اللّه الناكرين، إلى موقف علمه تعالى و موقعه من الحشر، برفع حجاب الزمن، بعد ما رفع حجب الارتياب فيه كلها، مواجهة حالة التكذيب بمفاجأة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 53

شعورية تصويرية كأنها توقفه أمام الواقع و لما يقع، توقفه على أشرافه و أشراطه فيقال: هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ‏! تطلبون هازئين متعنتين! قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ‏؟

توحي الآية بالبعض من أمانيهم الكاذبة: هل لنا الخلاص من محمد و حزبه؟

أن يهلكوا فلا نسمع بلاغهم الحار ليل نهار، عن النشر و الحشر، في دار القرار؟

فجاء الجواب: أن لا صلة لهلاكهم أو رحمتنا لهم بإجارة هؤلاء من عذاب أليم، فهل إذا انقطع النذير المخبر عن اللّه، إذن ينقطع العذاب المخبر به، فما كيد الكافرين إلا في تباب، دون انقطاع العذاب! ثم إنها تربط إجارة الكافرين من عذاب أليم، ببقاء الرسول هاديا و مبشرا و نذيرا، فبلاغه ليل نهار هو الذي يجيرهم من عذاب النار! و هذا إيحاء بأن حجة الرسالات هي أقوى الحجج، لا أنها الحجة وحدها، فلولاها لم يكن في سائر الحجج برهان يحتج به لعذاب المتخلفين، فحجة الرسالات تكملة لحجج الفطر و العقول، و إن كان دونها أعذار للقاصرين و المستضعفين، فهم‏ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ‏.

قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ‏:

هُوَ الرَّحْمنُ‏: رحمة تعم الخلق أجمع، فكيف تشذ عن المؤمنين بالرحمان، و هم مختصون بزيادة الرحمة و هي الرحيمية، فهل يا ترى إن الرحمان الرحيم يهلك المؤمنين بمن فيهم الرسول الأقدس و هو أول العابدين، يهلكهم لكي يقطع بذلك أخبار الوحي و إنذاره عن الكافرين.

هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ‏ لا سواه، وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا لا على سواه‏ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ‏ نحن المؤمنين، أو أنتم الكافرين.

و هنا: أخيرا- لا يحتم الضلال عليهم رغم الحتم المبين!- و رغم كون الهدى ظاهر البرهان، و إنما يرجعهم إلى أنفسهم- لو بقيت لهم نفوس إنسانية- حتى يدبّروا: مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ‏!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 54

فهل هذه البراهين تشي بالدمار على أفكارهم الخاوية، أم على المؤمنين؟.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ‏؟

.. إن أصبح ماؤكم الظاهر على وجه الأرض، أو ماؤكم النازل من السماء:

إن أصبح غورا: غائرا في العمق غائبا فيه: في عمق الأرض أو أعماق السماء، فلم تستطيعوا له طلبا، فمن هذا الذي يأتيكم بماء غيره معين، ظاهر على وجه الأرض، مشهود؟ أم إله غير اللّه يأتيكم به فكيف تأفكون، و على أبواب الضلالة تعكفون! الماء في كثير من المواضيع- و لا سيما هنا، إذ يلحق ماء الحياة: الرسول الأقدس محمدا (ص)- إنه يشير إلى الحياة الروحية، فلئن أصبحت رجالات الوحي غورا غائبا، بالموت و انقضاء الوحي، أم الانعزال عن بلاغ الوحي، أو فترة الغيبة عن الناس، فهل إله غير اللّه يرسل لكم رسلا مبشرين و منذرين، و دعاة مصلحين؟.

و هكذا تعني أحاديث الجري و التأويل، بيانا لمصداق من المصاديق المختلف فيها بين المسلمين، من الإمام الغائب المنتظر عليه السلام‏ «1» و علوم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 387 في كتاب إكمال الدين و تمام النعمة عن الباقر (ع) في الآية: هذه نزلت في الامام القائم- يقول: ان أصبح إمامكم غائبا عنكم لا تدرون اين هو؟ فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم باخبار السماوات و الأرض و حلال الله و حرامه، ثم قال: و الله ما جاء تأويل هذه الآية و لا بد ان يجي‏ء تأويلها.

و

فيه عن عيون الاخبار عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: لا بد من فتنة صماء صليم: (الداهية الشديدة) تسقط فيها كل بطانة و وليجة، و ذلك عند فقدان الشيعة الثالث من ولدي، يبكي عليه اهل السماء و اهل الأرض و كل حرى و حران: (امرأة حزينة و رجل حزين،) و كل حزين لهفان، ثم قال: بابي و امي سمي شبيهي و شبيه موسى بن عمران (ع) عليه جيوب النور تتوقد بشعاع ضياء القدس، كم من حرى مؤمنة و كم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 55

الأئمة «1»، و كما يصرح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه تأويل لا تفسير، على حدّ

قوله عليه السلام: إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فما ذا تصنعون‏ «2».

هذا، اعتبارا أن الأئمة من آل الرسول (ص) هم- بعلومهم و بلاغهم- استمرارية الرسالة المحمدية (ص)، فهو الماء المعين النضب العذب النابع الفائض المتدفق، و هم سواقيه الموصلة له إلى الأمة أجمع! اللهم صلّ عليه و على آله الطاهرين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من مؤمن متأسف حيران حزين عند فقدان الماء المعين، كأني بهم آيس ما كانوا قد نودوا نداء يسمع من بعد كما يسمع من قرب، يكون رحمة على المؤمنين و عذابا على الكافرين.

(1).

المصدر عن الامام الرضا (ع) «سئل عن قول الله عز و جل‏ قُلْ أَ رَأَيْتُمْ .. فقال (ع): ماؤكم أبوابكم الأئمة و الأئمة أبواب الله‏ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ‏ أي: يأتيكم بعلم الامام».

(2) المصدر علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال: قلت له: ما تأويل قول الله عز و جل‏ قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ... فقال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 56

سورة القلم- مكية- و آياتها اثنتان و خمسون‏

[سورة القلم (68): الآيات 1 الى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ (1) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9)

وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ (14)

إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 57

.. تسليات لخاطر النبي الأقدس محمد (ص) أن هتكوه و بهتوه و كل شي‏ء فعلوه مسا بكرامته، و إنها تحمل التصريح بأعظم المقامات الرسالية و الولايات الإلهية، تختصها به (ص): أن جاء بما جاء به النبيون و زيادة، كأنه النبيون أجمع، و كتابه الكتب و زيادة ..

تبتدئ السورة بنداء الرسول رمزيا ب ن‏ علها تعني «النبي» كأن النبوة تختصه و هو مختص بها! و شاهدا عليه هنا الخطاب اللاحق: ما أَنْتَ ..

و من تفسير أهل البيت‏

قول باقر العلوم عليه السلام: إن‏ ن‏ من أسمائه المذكورة في القرآن‏ «1»

و يا له من إيحاء لطيف: أن النبوة تختصه لحدّ أصبحت من أسمائه، فهو كيانه النبوة، و كله نبأ الغيب، لا يحمل من الأرض إلا الجسد، و هو أيضا تبدّل نورا لحدّ أصبح ألطف من أرواحنا و عقولنا، و من أرواح الملائكة! و كما يروى أنه (ص) لم يكن له ظلّ.

نراه يخاطب في القرآن- أكثر ما يخاطب- ب: النبي، الرسول، فهما ن‏ لأن النبوة و هي الرفعة، إنها مرتبة شامخة من الرسالة، فليس كل رسول نبيا مهما كان نبيئا.

و إذ قد نرى أحاديث عدة أن‏ ن‏ نهر في الجنة جعله اللّه مدادا يكتب به ما هو كائن إلى يوم القيامة

و هو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها «2»

فهي ترمز إلى موقف النبي (ص) في علمه المكنون، كأنه النهر المداد الذي نسخت عنه كتابات الوحي كلها، و هي النعمة الوحيدة، و الكرامة الفريدة التي اختص بها بين العالمين من النبيين و الملائكة و كافة الروحانيين!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 387 في الخصال عن الباقر (ع) قال: ان لرسول الله (ص) عشرة أسماء، خمسة في القرآن و خمسة ليست في القرآن، فأما التي في القرآن: محمد و احمد و عبد الله و يس و ن».

(2) نور الثقلين 5: 387 عن تفسير القمي عن الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 58

ن‏ هو النبي، و هو النهر المداد، فهو النبيون أجمع، و قرآنه هو الكتب أجمع.

وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ‏: قسما بالقلم: آلة الكتابة أيا كانت، و بما سطر به من وحي على لوح قلبك المنير، و على حد تعبير الرسول (ص) نفسه في الآية:

«لوح من نور و قلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة» «1»،

و قسما بأقلام أنوار الوحي كلها، و أقلام الإلهام التي تكتب الإيمان و التأييد في قلوب المؤمنين:

أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ‏ و أقلام الرحمة الرحمانية العامة للعالمين، و كالأقلام الضوئية و الصوتية، و أقلام التصوير في الأرحام، و أقلام القضاء و التقدير، و أمثالها من أقلام تسطر ما يصدر عن مصدر الوحي: تكوينا و تشريعا، تكليفا و سواه.

ثم الدرجة النازلة من القلم هي أقلام الكتّاب منا، و هي من أكبر النعم الإلهية، و الكتابة عنصر أساسي في النهوض بمهمة القيادة الصالحة الرشيدة، يقسم اللّه هنا- ضمن ما يقسم- بقلمها بين الأقلام، فيمن؟ في الأمة التي لم تكن آنذاك تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق، و كانت الكتابة فيها متخلفة نادرة! و في الدور المقدّر فيه للرسالة الإسلامية: نقل هذه الأمانة الكبرى و ما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء البسيطة! ففيه تنويه مليح بقيمة الكتابة، و إيحاء بنفي تهمة الكتابة و الاكتتاب عن محمد الأمي: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ‏ فدفع تهمة الاستكتاب و الاستنساخ واجب مبدئي لهذه الرسالة السامية، فأميته قبلها، هي من فضائله، و إن كان أخذ يكتب و يقرأ منذ الرسالة إلى أن قضى نحبه!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 250 عنه (ص) في قوله تعالى‏ ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 59

قسما بهذه العطية الربانية التي ما لها من فواق، و هي تشهد لوفور عقلك و رجاحته على عقول العالمين:

ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ‏: ان النبوة المحمدية و هي أعظم النعم الروحانية الإلهية، إنها برهان على أنك العقل كله، فكيف يفترى عليك بالجنون، فمهما كانت النبوة بذاتها خفية، و لكن آثارها المسطورة بأقلام الألسن و سواها، تدل عليها، فهل يا ترى إن عقل الوحي يجنن؟ و من رشحاته تكمل العقول الناقصة، و تتكامل العقول الراجحة! و على أضوائه يعرف الغث من السمين، و الخائن من الأمين! .. ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ‏: بسببها أو مصاحبتها:

بِمَجْنُونٍ‏ فنعمة الوحي لا تصاحب الجنون و لا تسببه.

فهل هذا من حكم العقل السليم: أن نعمة النبوة تسبب الجنون أو تصاحبه، فهل يا ترى إن التحلل عن وحي السماء يمنع الجنون و يسبب العقل؟ فما نسبة الجنون إلى صاحب الوحي إلا نسبته إلى الموحي! فهل اللّه أيضا مجنون؟.

و ما هذا الهراء إلا كالقول: إن صاحب المليار فقير، و حامل العلم جاهل! عجبا من هؤلاء الذين كانوا يرون محمدا قبل النبوة أعقل العقلاء، فلما اتصل عقله بخالق العقل و حيا قالوا: إنه لمجنون، و لكي ينفّروا الناس عنه.

إن العجب ليأخذ كلّ من درس عن سيرة الرسول (ص) شيئا، من تقوّلهم هذا عنه: مجنون و هم الذين عرفوه برجاحة العقل بينهم حتى حكموه في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام، و لقّبوه بالأمين، و لكنما الحقد يعمي و يصم و يقذف بالفرية دون حساب.

وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ‏: غير مقطوع عنك و لا ممنون عليك، رغم المنة الإلهية في نعمة النبوة على النبيين و على الخلق أجمعين، و لكن أجرك- و هو فوق أجور الخلائق- لا يمن به عليك، و لأنك صبرت على الأذى، و استقبلت كل لظى في سبيل الدعوة، بخلق عظيم، و ليس عدم المنة عليه لأنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 60

يستحق أجر الرسالة ذاتيا، و إنما هو إكرام له ثان بعد الأجر الأبد، فانقطاع الأجر ينقصه، و المنة عليه ينغّصه، و أجر الرسول غير الممنون من الجهتين، كرامة تختصه دون سواه من حملة الرسالات الإلهية، و إنه إيناس خاص كتعويض فائض غامر، عن كل حرمان و جفوة و بهتان يرميه بها المشركون، فلو حرم عطف المشركين، فقد زوّد بعطف رب العالمين بما لا مثيل له في ملأ العالمين، فاللّه تعالى هو أجره، و رحماته غير المحدودة هي أجره و هما غير مقطوعين عنه في في كافة مراحل حياته.

وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ‏ لأنك تخلقت بأخلاق اللّه العظيم و تأدبت بآدابه:

فما أحسنه و أحلاه أن تكون خلق الرسول محمد عظيما عند اللّه، و لا عظيم فيمن سواه تعالى إلا و هو صغير بجنبه! و ما أحراه (ص) أن يستعظمه ربه في خلقه، و لأنه رباه:

«أدّبه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب و انتهى به إلى ما أراد، قال له: إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ‏ «1»

إذا فخلق الرسول هو منتهى ما أراد اللّه من أول العابدين، و لو كان بالإمكان أن يزيد لزاد.

فالرسول محمد (ص) بكيانه ككل، هو منتهى الرحمة و النعمة الإلهية، الممكن إيتاؤها لمن سواه، و ما أحلى ما وصفه به سليمان عليه السلام: و كولو محمديم: و كله في غاية المحمودية «2»! و لتمامية خلقه العظيم و لأنه أفضل أو تمام ما أتى به البنيون،

يقول (ص): إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 389- عن الكافي عن الامام الصادق (ع) قال:

رواه فضيل بن يسار عنه (ع) و روى إسحاق بن عمار اضافة «و انتهى به الى ما أراد».

(2) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 61

إِنَّكَ لَعَلى‏: لا يقول إن لك خلقا عظيما، فقد يملك الإنسان أمرا ثم يفقده، بل‏ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ‏: ف «على» توحي بعلوه على خلقه العظيم، علوا مؤكدا لا يزول، كما توحيه حرفا التأكيد «إن- ل» فقد مزجت الخلق العظيم ذاته لحد لن تنفصل عنها، بعصمة و عناية خاصة ربانية، فلقد كان خلقه القرآن مزيجا بقلبه المنير، ظاهرا في أعماله بقلبه و قالبه، فهو هو القرآن الناطق «أنا القرآن و السبع المثاني. و روح الروح لا روح الأواني» فكيف لا تكون خلقه عظيما و قد تجلى اللّه لسره بأنوار أخلاقه كما يمكن للمكنات، و قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فليكن هو على تمامها قبل تتميمها للناس، فلم يبق بعد هذه البعثة الأخلاقية سفساف أخلاق أبدا إذ أبان لنا عن مصارفها كلها.

و بما أن مادة الخلق من الخلق، فلتكن كما الخلق، كأنها من كيان الإنسان، مخلوقا معها، و ليست إلا بسعيه الجميل، بين عنايتين إلهيتين، فطرة الحق، و تأييد اللّه لمن يتبنى الفطرة في استزادة من الخلق الطيبة، ثم علوه (ص) على هذا الخلق، كأنه يجعله أعمق من ذاته و أبقى، كأنه هو الخلق العظيم لا غيره.

و إن سيرة الرسول الأقدس، المجيدة، تتجاوب تماما و الثناء الفريد، شهادة من اللّه، في ميزان اللّه، لعبد اللّه: أول العابدين‏ وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ‏ تتردد هذه الشهادة الإلهية في الملأ الأعلى بين النبيين و الملائكة، في كلمة لا يعرف مداها و صداها إلا قائلها و من ألقيت عليه! و هل يا ترى إن محمدا يفقد توازنه في هذا الثناء المجيد؟ كلا! و لأنه على خلق عظيم، أو ترى انه تتأرجح شخصيته و تضطرب تحت وقعه، و يتبهّج به، و ينسحق تحت ضغطه الهائل فيرضى عن نفسه و يطمئن لها و إليها فيلهو؟ كلا! و لأنه على خلق عظيم، فمن هذا الإنسان الذي يستطيع حمل هذه الرسالة الصعبة و يتحمل أعباءها و وزرها، إلا محمدا العظيم، الذي هو على خلق عظيم؟ أجل:

انه محمد وحده الذي يرقى إلى هذا الأفق المبين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 62

ثم نجد لهذه الكلمة اللفتة دلالة باهرة على تمجيد عنصر الأخلاق في ميزان اللّه، و أصالته، كأنه الكل من الحقيقة الإسلامية، و لذلك يعلن:

بعثت لأتمم مكارم الأخلاق‏

، كأنما الرسالة المحمدية لا تعني إلا تتميم مكارم الأخلاق.

ليست هذه مبالغة، طالما الأخلاق تشمل الفضائل العقائدية و الأعمالية و الأقوالية، و من ثم: فردية و جماعية، ثم بين الإنسان و نفسه، و بينه و بين ربه، و بينه و بين مجتمعه، فهل بعث النبيون إلا لهذه، طالما اختصت لغة الأخلاق الحسنة بزاوية خاصة منها هي تحسين العشرة؟ و هي السجايا الفاضلة: المدركة بالبصيرة، و من ثم: الظاهرة بالبصر.

فللأخلاق معنى عام، و آخر خاص، و الأول هو المعني من غاية البعثة المحمدية تكميلا.

فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ‏: مهما كنت بصيرا بحالك القدسية، و انك كل العقل و كلك عقل، و إن مناوئيك كل الجنون و كلهم مجانين، فأنت أنت تبصر دونهم‏ فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ‏: في المستقبل مع بعض، يبصرون كما تبصر بِأَيِّكُمُ‏ العقل‏ الْمَفْتُونُ‏: المبتلى بالجنة، و بأيكم العقل المتحلل عما يحجبه، المتفتح بما يشرحه و يكشفه، فسوف يكون الإبصار مليا يوم الدنيا لمن يبصر، و عاليا يوم البرزخ إذ يكشف الغطاء، و أعلى يوم الحشر إذ لا يبقى خفاء، و لات حين مناص.

إن تقولاتهم المجنونة ليست عن جنون خلقي يرفع التكليف، إنما بما جننوا أنفسهم و ختم اللّه على قلوبهم: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ‏: فما أجهل من يحسب المهتدي الهادي ضالا، و يحسب نفسه الضالة مهتديا، و ما أحلى من يعلم الضال عن المهتدي، مهما أخطأ أحيانا في قدرهما أو مواضعهما، و ما أعظم علم اللّه بهما و بكل شي‏ء، إذ لا يعزب عن علمه شي‏ء في الأرض و لا في السماء! فالضال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 63

عن سبيل اللّه هو المجنون إذ يتجاهل أو يجهل خيره عن شره، و المهتدي هو العاقل.

فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ‏:

الطاعة المنهي عنها هنا هي مداهنتهم في الدين كما ودوها: لَوْ تُدْهِنُ‏:

تداريهم و تماريهم تاركا جدّ الدعوة إلى الملاينة و المصانعة فَيُدْهِنُونَ‏: يمارونك و يدارونك، بقسمة البلد بلدين، بمحاولة أنصاف حلول، و إن هذا إلا مكر يمكرونه دون أن يرجع بالضرر إلا إليك، لو أنهم أنصفوا كما يعدون، و لكنهم كاذبون، فلا تصلح لهم إلا القول: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ‏ فليست الديانة تجارة تقبل الالتقاء في منتصف الطريق، إنها عقيدة تمازج لب الإنسان و عمقه، و التنازل عنها تنازل عن لب الإنسان، و الهوة بينها و بين الجاهليات ليست بالتي تعبر، أو تقام عليها قنطرة.

إن الرسول (ص) كان- و كان عليه أن يكون- ألين الناس و أدهنهم فيما لا يمس من كرامة العقيدة و الدعوة، و هو أصعبهم تصلبا في الدين، لا يداري و لا يماري أحدا، و هكذا يجب أن تجابه الجاهليات أبدا، بالنضال الفصال الذي لا مداهنة فيه و لا دلال، صمودا صارما واصبا في دين اللّه، دون تمحّل فيه و لا تمهّل، و إنما تنكّل بالأعداء المحاربين، السافرين في عدائهم و المنافقين، و لم يكن الرسول يدهن، و كما توحيه حرف الامتناع «لو».

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ‏: تبدأ أنت بالمداهنة و التنازل عن بعض الشي‏ء من شريعة اللّه: فَيُدْهِنُونَ‏ كما يزعمون و يدعون، و ان رزقهم من شريعة الحق هو التكذيب به: أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ. وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ‏ (56: 82).

وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ‏:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 64

نهي ثان يعم كل من فيه هذه الصفات التسع، و هي رؤوس رذائل الأخلاق، و قد نزلت بشأن ألعن الشانئين برسول اللّه: الوليد بن المغيرة، إذ وقف وقفته العنيدة ضد الدعوة الإسلامية، و كما نزلت في الآيات في «المدثر»: ذرني و من خلقت وحيدا .. إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا .. سأصليه سقر ..

حملات منقطعة النظير ضد هذا الوحيد في كفره و فسقه .. ثم و تشمل الآيات كل من حذا حذوه في هذه الملعنات، الصفات التسع الموبقات:

فهو «حلاف»: يحلف كثيرا، و دون ضرورة و مواربة، مما يكشف عن كثرة كذبه، و عدم اكتراسه و احتراسه بساحة الربوبية.

و «مهين»: حقير الرأي و التدبير لا يثق بنفسه و لا يثقون به، و لذلك يحتاج إلى الحلف الكثير في كل جليل و حقير.

و «هماز»: عياب طعّان يلوي شدقيه في أقفية الناس، يعيش همز الناس و كأنه هو وحده بري‏ء.

و

في الحديث: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»

: شغلا عن همزهم و تعييبهم، لا عن نهيهم، بالحكمة و الموعظة الحسنة فإنه فرض.

«مشاء بنميم»: يمشي بين المتحابين بعدائهم لبعض، و بين المتعاندين، ليزدادوا عداء.

«مناع للخير»: يحاول دائبا لصد سبل الخير على الناس، و كان للوليد عشرة من البنين و أموال غزيرة، يهددهم و سائر أقاربه، من تبع منكم دين محمد لا أنفعه شيئا أبدا.

«معتد»: يجاوز الحق، و يتجاوز على أهل الحق.

«أثيم»: كثير الإثم: و هو كل مبطئ عن الخير و الثواب، و كأن الإثم أصبح لذاته لزاما لا يستطيع تركه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 65

عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ‏: و العتل هو الأخذ بمجامع الشي‏ء و جره بقهر، و العتل هو كثير الأخذ هكذا، فهو الآخذ بمجامع الرذائل، يجرها إلى نفسه و إلى مجتمعه بعنف، لفظة تخبر بجرسها عن مدى معناها في العتل السوء، و جره و جمعه: فهو الغليظ الجافي المريد، الشره المنوع العتيد، الأكول الشروب الحريص العنيد، اللئيم «الزنيم»: الذي لا أصل له و هو زائد في قومه، الدعي الملحق بمن ليس هو منه «زنيم ليس يعرف من أبوه- بفيّ الأم ذو حسب لئيم» و يا لها من رذائل قلما تجتمع في شخص واحد، اللهم إلا وحيدا: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً! و كل هذه الميوعة و الرعونة:

أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ‏:

أساطيرهم و خرافاتهم، رغم أنها آيات اللّه، تدل بنفسها أنها إلهية و ليست بشرية، و لو من أعقل العقلاء، فضلا عن الرجعيين الخرافيين! سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ‏: سنعلمه بعلامة يعرف بها على خرطومه: أنفه، إذ بلغ في استكباره لحد كأن له الخرطوم، و الفيل يبالي بخرطومه و يفتخر، و كذلك هذا الزنيم يشمخ بأنفه: ان كان ذا مال و بنين؟

إن خراطيم المستكبرين موسومة بالحق يوم الدنيا، يعرف و سمتها و صمتها العارفون ثم يوم البرزخ و الرجعة «1» و القيامة. تبرز الوصمة و تعلم، و لكي يعرفهم المحشورون معهم أجمع: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ‏.

و لقد وسم اللّه وحيدا على خرطومه «أنفه» يوم بدر إذا صاب أنفه جراحة فادحة بقيت علامتها كما قيل، و وسمه اللّه يوم البرزخ، و سوف يسمه يوم القيامة شر وسمة و وصمة يعرف بها بين أهل الجمع أنه الوحيد الشرير الأثيم الزنيم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي في آية الوسم: قال قال (ع) في الرجعة إذا رجع امير المؤمنين (ع) و رجع اعداؤه فيسمهم بميسم معه كما توسم البهائم على الخراطيم: الأنف و الشفتان.

أقول: و هذا من باب الجري على بعض المصاديق المختلف فيها.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 5)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 66

[سورة القلم (68): الآيات 17 الى 33]

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (17) وَ لا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (21)

أَنِ اغْدُوا عَلى‏ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ (23) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَ غَدَوْا عَلى‏ حَرْدٍ قادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (28) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (30) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (31)

عَسى‏ رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا راغِبُونَ (32) كَذلِكَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (33)

\*\*\* مشهد من مشاهد التخلف و التمرد يحمل طرفا من بلوى الدنيا لمن أجمل عن ذكرهم ب أَصْحابَ الْجَنَّةِ: بستان ملتف الأشجار، يجن بعضها بعضا، لحدّ استحق اسم الجنة التي قلما تعني الدنيوية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 67

هذا المشهد يصور جانبا من اللؤم البشري: اللااستثناء فيما رزقهم اللّه من نعمته، تعاميا عن حقوق الفقراء، تفانيا في جمع المال لمّا.

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ وَ لا يَسْتَثْنُونَ‏.

إِنَّا بَلَوْناهُمْ‏: هؤلاء الكفار المتهمين لك بالجنون، فابتلوا بعذاب الدنيا و بلائها قبل الآخرة «1» كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ: البستان الملتف الأشجار ذات الثمار إِذْ أَقْسَمُوا: باللّه تعالى حلفا به سبحانه‏ لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ. وَ لا يَسْتَثْنُونَ‏: لا استثناء بمشيئة اللّه في صرمهم ثمارهم مصبحين، و لا استثناء لحقوق الفقراء بعد صرمهم، و ياله من حلف خاطئ لا يلزم عليهم شيئا إلا ازدواجية الإثم: بحق الخالق و المخلوق، فقد قرّ رأيهم هكذا على أن يصرموا:

يقطعوا- ثمارها عند الصباح الباكر، مبيّتين هذا الكيد اللئيم إذا ناموا، و لكي يفاجئوا الفقراء بصرمهم و لا يستثنون لهم شيئا، فقوبلوا بمفاجأة العذاب الصارم قبل صرمهم، فصرم اللّه ثمارهم قبل صرمهم، فَطافَ عَلَيْها:

الجنة طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ‏: طائف رباني يذكر الغافلين التائهين: أن الصرم بالصرم، و الجرم بالجرم، جزاء وفاقا! وَ هُمْ نائِمُونَ‏ كما احتالوا في حرمان الفقراء النائمين.

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ‏: كالمقطوعة ثمارها، المقطوع عنها كل خير، كالرملة المنقطعة عن الرمال ليس فيها نبات، أصبحت كالليل المظلم في سوادها بصرمها، فقد صرم الطائف الرباني كل خيراتها فأصبحت قفرا لا ماء فيها و لا كلاء، و كل هذه يشملها الصريم.

فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلى‏ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ‏ تواصيا في حماس و حرص و حراس‏ فَانْطَلَقُوا: مروا متخلفين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي عن الباقر (ع) في الآية: ان اهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي اصحاب الجنة و هي كانت في الدنيا و كانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 68

كأنهم يفرون من أسد وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ‏: تخافتا في الإقدام و في الكلام، و تخافتا في وطء الأقدام، سدا لباب الاطلاع، و صدا عن دخول المساكين: أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ‏: الذي أسكنه العدم عن حركات الحياة، فلا يتحرك إلا بغية تحصيل بلغة العيش و لقمته، فهؤلاء اللئام يحتالون هذه الحيل، كيلا يفاجئهم مسكين، ففاجأهم قبل صرمهم صرم من رب العالمين، فأصبحت كالصريم! وَ غَدَوْا عَلى‏ حَرْدٍ قادِرِينَ‏: غدوا أمام أملهم الوحيد عَلى‏ حَرْدٍ: منع عن حدة و غضب، ممتنعين من تناول الثمر و صرمه إذ وجدوه صريما، قادِرِينَ‏: لم يمكنهم صرمه و هم قادرون عليه لو كان، فلم يمنعهم عجزهم عن صرمه إلا انصرامه قبلهم فما ذا يصرمون؟، و قادرين على منع الفقراء بهذه الحيلة لولا الصرم الإلهي، فهم على قدرتهم في الصرم و في منع الفقراء، امتنع لهم صرم الثمرة بانتفاء الموضوع! وَ غَدَوْا عَلى‏ حَرْدٍ منع للمساكين- قادِرِينَ‏: مقدرين أنهم سيصرمونها و يمنعونها المساكين، فَلَمَّا رَأَوْها: الجنة قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ‏: عن الصواب في غدوّنا هكذا، أو ضللنا عن طريق جنتنا! إذ لم تكن تشبه جنتهم و لا أية جنة! ثم نظروا إليها ثانية فتأكدوا أنها هي، و لكنها- و يا للعجب- صريمة خاوية على عروشها، فعدلوا عما احتملوا من ضلال الطريق، إلى ضلال الصراط، و هو الحرمان الإلهي عما أملوا: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ‏ هذا هو الخبر اليقين، و قد حاقت بهم عاقبة البطر و المكر، ثم حاق بهم التنديد الشديد من أوسطهم: أعدلهم و أعلمهم في الرأي، بين مفرطهم و مفرطهم:

قالَ أَوْسَطُهُمْ: أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ‏: و هنا يفتحون الآذان للناصح و قد فات الأوان، لَوْ لا تُسَبِّحُونَ‏: و لم يكن منهم من عدم التسبيح إلا ترك الاستثناء في حيلة و محاولة حمقاء، فتنزيه الرب تعالى في صفاته، من لزامه الاتكال عليه، و الاستثناء بمشيئته: إِنْ شاءَ اللَّهُ‏ فعدم الاستثناء بالمشيئة استقلال لمشيئة العبد، و شركة مع اللّه في المشيئة المستقلة، و تنزيهه تعالى فيما سن من أحكام العدل، و تطبيقه، و منه الاستثناء للفقراء، فعدمه شركة معه في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 69

التشريع، و محاولة لعدم تطبيقه، صدا عن نفاذ حكمه من ناحيتين: عدم استثناء لهم، و عدم فسح المجال لهذا الاستثناء على أية حال! إذ انطلقوا مصبحين الى حرثهم غادرين، فرارا عن تحقق حكم اللّه! و هنا لم يكن الا الاعتراف بنزاهة الرب و ظلمهم أنفسهم: قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ‏: منتقصين حق الفقراء، و بحق الرب تعالى إذ حاولنا الفرار عن حكمه، فباغتنا بطائف منه فأصبحت كالصريم.

و إنهم على حد تعبير

الرسول الأقدس (ص): قد حرموا خير جنتهم بذنبهم‏ «1».

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ‏: كلّ يوجه اللوم إلى الآخر، قبل أن يوجهه إلى نفسه، و لكنهم تنبهوا أخيرا أنهم ملومون أجمع، مهما كان اللوم مزدوجا على من ضل و أضل، و فردا على من ضل، أو تماشى مع الضالين كأوسطهم، فاعترفوا جميعا بطغيانهم: قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ‏: طاغين على ربنا في هذا التدبير الماكر فرارا عن حكمه، و على المساكين فرارا عن دخولهم جنتنا، و أخيرا طاغين على أنفسنا أن خسرنا الجنة بأسرها: في ظلمات ثلاث! فهل من مجير؟ أجل- و ما دامت المهلة باقية و لما يأت الأجل، و من أوليات الواجبات على التائبين الاعتراف بالذنب، راجين رحمة رب العالمين، و قد فعلوا:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 253 عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه (ص): إياكم و المعاصي، ان العبد ليذنب الذنب فينسى به الباب من العلم، و ان العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، و ان العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيئ له، ثم تلا رسول الله (ص) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ‏ قد حرموا خير جنتهم بذنبهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 70

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ. عَسى‏ رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا راغِبُونَ‏:

فالرغبة إلى الرب- و في توبة نصوح- هي التي تستجلب توبة الرب على العبد، ما لم تكن خوف العذاب، و إنما رغبة الرضوان و الثواب، فالإيمان عند رؤية البأس لا يفيد: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (40: 85) .. هذا! اللهم إلا إذا كان إيمانا صادقا و إن كان عند رؤية البأس كما في قوم يونس: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ (10: 98).

هذا- و لكنما العذاب في أصحاب الجنة كان عليها لا عليهم إلا في جنتهم، و لكي ينتبهوا، و قد فعلوا قبل حلول الأجل، فعلّهم مغفور لهم.

كَذلِكَ الْعَذابُ‏: عذاب التدمير و التذكير في الدنيا، وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ‏ و إنما عذاب الدنيا مهما تفاقم، نموذج ضئيل عن عذاب الآخرة.

\*\*\* [سورة القلم (68): الآيات 34 الى 52]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (38)

أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (42) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ (43)

فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (44) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى‏ وَ هُوَ مَكْظُومٌ (48)

لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَ ما هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (52)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 71

\*\*\* إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ‏: إنها ليست عندية مكانية إذ ليس له مكان، و إنما عندية من حيث القرب المعرفي، و الثواب، و كما يوحيها رَبِّهِمْ‏:

ربوبية الثواب و المعرفة جزاء وفاقا، بما اتقوا، كما المجرمون لهم النار بما طغوا، و هذا هو الحكم العدل، و سواه عادل عن الصراط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 72

أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ‏: برهان عقلي لضرورة المعاد الحساب بصيغة السؤال: أ تسوية بين المسلمين للّه و المجرمين؟ فنعذب المسلمين كالمجرمين! أو نعفو عن المجرمين كما عن المسلمين، أو نثيب المجرمين كما نثيب المسلمين، أو لا نحيي المسلمين كما المجرمون على حدّ زعمهم!.

نستوحي من الآية و أشباهها أن هناك زعما خاطئا من المجرمين. يزعمونهم كأنهم الأصل في المعاد الحساب و اللامعاد: ان اللّه يعامل المسلمين كما يعامل المجرمين سواء: أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (32: 18) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (38: 28) كان صناديد يرون وفور حظهم في الدنيا و قلة حظوظ المسلمين فيها، فقاسوا بها الآخرة قائلين: إن صح انا نبعث كما محمد يزعم، لم تكن حالنا إلا كحالهم سواء، أو أحسن، فخطئهم اللّه فيه.

ففي قصة الجزاء ضروب شتى من أفكار خاطئة:

1- إن اللّه سوف يجعل المسلمين كالمجرمين سواء، فالإسلام هو اللاشي‏ء في حساب الحق! فما يستحقه المجرم فالمؤمن يستحقه سواء أ كان اللاحساب، أم الحساب السوء، أم العفو، أم الإثابة، و المجرمون هم الأصول على أية حال، و هذا من أضل ما يتقول حول الحساب! 2- إن اللّه سوف يعفو عن المجرمين كما عن المسلمين، بما اختلقوا من فلسفات توحي كأن العذاب لا دافع له إلا الوعد الإنذار! 3- أو يجعلهم كالمؤمنين في الثواب أيضا: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (45: 21) .. و ما إلى ذلك من تقولات نبحث عنها في طيات الآيات التي تحملها.

فهنا و هناك تأتي الأسئلة الاستنكارية تلو بعض دون جواب، و لأنه واضح يعرفه كل من له أدنى مسكة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 73

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ‏؟ أ بحكم العقل أو العدل يسوى بين الفريقين؟ كلا! أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ‏؟: هكذا حكم خاطئ، لا يقبله عدل و لا عقل، و لو كان فهو كتاب مجنون ظلوم يحكم: إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ‏: كما تهوون، أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ‏: أن اللّه حلف لكم بحريتكم في هكذا حكم لا يمضيه عقل و لا عدل؟

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ‏: يزعمه عن اللّه لنفسه. أو عن العقل أو كتاب من اللّه، و هو تهكم ساخر عميق، أنيق بليغ يذيب القلوب حرجا .. و إذ ليس هذا الحكم لا إلهيا و لا بشريا، فهل هو من شركاء لهم: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ‏! شركاء لهم عندهم براهين أخرى على هذه الدعوى الزور الغرور؟ أم شركاء يزعمونهم أنهم آلهة من دون اللّه يسوون بينهم و بين المسلمين؟ أم شركاء يزعمونهم شفعاء عند اللّه يشفعون لهم في هذه التسوية الظالمة غير العادلة، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، صادقين في كيان الشركاء و صدقهم، و أنّى لهم ذلك! فهكذا حكم لا يملك من صنوف البراهين أيا كان، و إذ لا ينتبهون هنا فسوف يعلمون:

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ. خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ‏:

من عادة الناس أن يشمروا عن سوقهم عند الأمور الصعبة، التي تتطلب المعاركة، و يفزع عندها إلى الممانعة، فتشمير الذيول حينذاك أمكن للقراع، و أصدق للمصاع، كذلك و أحرى عند هو الأمر و شدته، و عظم الخطب و فظاعته، و على حد تفسير

الإمام الصادق عليه السلام في الآية: أفحم القوم و دخلتهم الهيبة و شخصت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر شاخصة أبصارهم ترهقهم ذلة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 74

و قد كانوا يدعون إلى السجود و هم ظالمون‏ «1».

ففي هذا اليوم العصيب هؤلاء الأوغاد يدعون إلى السجود، استمرارية التكليف ليوم ليس فيه تكليف، فرعا طبق الأصل و عنه، فلا يستطيعون السجود، إذ تركوه يوم الدنيا، فلا يستطيعونه يوم الدين، فمستطاع الطاعة و واقعها يوم الدنيا، مستطاع يوم الدين، و تركها رغم الاستطاعة هنا، ترك لها هناك: وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ‏ ففقدوا سلامتهم هناك لتركهم الاستسلام للّه هنا، و مرض اللااستطاعة للطاعة لزمهم ليوم الدين، و لكي تكون لهم عذابا فوق العذاب: عدم استطاعة الطاعة إذ ظهرت لهم الحقائق كلها! و كما

عن الرسول (ص): يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود فيسجد المؤمنون، و بين كل مؤمنين منافق فيتعسر ظهر المنافق عن السجود و يجعل الله سجود المؤمنين عليهم توبيخا و صغارا و ذلا و ندامة و حسرة «2».

خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ..: تغشاهم ذلة بقهر، و لأنهم لم يذلوا أنفسهم يوم الدنيا طوعا، فليذلوها قهرا يوم الدين: وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ‏ فالآن و هم مرضى بما افتعلوا، لا يستطيعون السجود.

و قد يعني الكشف عن الساق كشف الحجاب فظهور الحقائق، و على حد تفسير

الرسول الأقدس (ص): «يكشف عن نور عظيم فيخرون له سجدا» «3»

و

عن حفيده الرضا عليه السلام: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجدا و تدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» «4».

فساق المحشر يكشف، و ساق المحشورين يكشف، و ليس للّه ساق يكشف،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 396 في كتاب التوحيد للصدوق عنه (ع).

(2) الدر المنثور 6: 255 عن قتادة قال: ذكر لنا أن بني الله قال:

(3) الدر المنثور 6: 254 عن أبي موسى عن النبي (ص).

(4) نور الثقلين 5: 395 عيون اخبار الرضا (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 75

رغم المختلقات الزور، الوثنية و الإسرائيلية: ان ربنا يكشف عن ساقه‏ «1» اللهم إلا أن يعني بها ساق الآخرة و حجابها و عذابها.

فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ‏:

و عذاب الاستدراج يعم المكذبين بآيات اللّه: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (7: 182).

هل يكذب هذا الحديث، الذي تصدقه كافة براهين الصدق، حديث اللّه و طاعته و محشره و حسابه؟! ثم مالك و هذا الكذاب الأشر؟ ذرني و إياه: أنا الخالق الجبار الكبير الكبير، و هذا المخلوق المستكبر الهزيل الصغير المسكين الفقير، هذه الهباءة المنثورة! هذا العدم! فما حاله إذا أمام جبروت القهار العظيم.

انا انا استدرجه نحو العذاب بتواتر النقمة، التي يحسبها له كرامة، و أمهله على نعمته و لا أهمله: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (3: 178).

إنه الأمان في ظل النعم المتواترة تلو بعض، و لكنه الفخ الذي يقعون فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 254 عن النبي (ص) «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن و مؤمنة و يبقى من كان يسجد في الدنيا رياء و سمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا».

أقول: و قد خيل الى من لا يعقل انه ساق ربنا سبحانه و كما في الدر المنثور 6: 255 عن سعيد بن جبير انه أجاب عن سؤال الآية بعد ما غضب غضبا شديدا: ان أقواما يزعمون ان الله يكشف عن ساقه! و انما يكشف عن الأمر الشديد.

و

في نهج البلاغة: انه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد من مخوفا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 76

مغرورين، استدراجا لهم إلى أسوء مصير، و استنزالا لهم إلى أسفل سافلين شيئا فشيئا بما ينعم عليهم مرة بعد أخرى و هم يزدادون عتوا و نفورا، يحسبونهم على حق و انهم يحسنون صنعا، و إلا فلما ذا تواتر النعم عليهم و توتّرها على المسلمين، و هذا هو عذاب الاستدراج.

وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ‏: و الإملاء و الكيد المتين من رب العالمين هو من أسباب الاستدراج، أن يتدرج إلى الأسوء فالأسوء نتيجة الإملاء و الإمهال و هذا هو كيد اللّه المتين، ليس لأنه ضعيف، و إنما جزاء كيده بكيد متين لا هوان له و لا علاج، خلاف سائر الكيد من غيره تعالى، و على حد تفسير

الإمام الصادق (ع): «إذا أراد اللّه بعبد شرا فأذنب ذنبا تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار و يتمادى به، و هو قول اللّه عز و جل: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ‏ بالنعم عند المعاصي‏ «1».

و يا لها من و خزة بعد اخرى، إلى أن يأخذه اللّه نكال الآخرة بعد الأولى! و ان ذلك بما كسبت يداه و أن اللّه ليس بظلام للعبيد، فقد كذبوا من حيث يعلمون، فاللّه يستدرجهم من حيث لا يعلمون، جزاء وفاقا! و انه لشر العذاب يوم الدنيا، الاستدراج بالإملاء و الامهال، بكيد متين لا مفر عنه و لا منجى، و كما نرى المكذبين هكذا يستدرجون، تدرجا إلى العتو و الضلال، على تدرّج النعمة و الدلال، أعاذنا اللّه منه بحق محمد و الآل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 397 في كتاب علل الشرايع عنه (ع):

و

في روح البيان ج 10 ص 124 عن أمير المؤمنين علي (ع) «من وسع عليه دنياه فلم يعلم انه مكر به فهو مخدوع عن عقله»

و

روي‏ ان رجلا من بني إسرائيل قال: يا رب كم أعصيك و لم أنت لم تعاقبني؟ فأوحى الله الى نبي زمانه أن قل له: كم من عقوبة لي عليك و أنت لا تشعر كونها عقوبة: جمود عينك و قساوة قلبك استدراج مني و عقوبة لو عقلت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 77

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ‏؟: تتمة أسئلة الاستنكار على المجرمين المسوين أنفسهم بالمسلمين: هل تسألهم أجرا على الرسالة و هم مثقلون متثاقلون من مغرمها، فهم لا يقبلونها أو يقبلون إليها فضلا عن أن يفكروا في أجرها، و ليس أجر الرسالة في حساب الرسول إلا المزيد من تحقيقها و تطبيقها، دون الأجور المادية و حاشا الرسول عنها!: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا (25: 57) فليتخذ الرسول (ص) سبيلا إلى ربه، ثم أبواب الرسول: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏ (42: 23) و ليس هذا أجرا، فإن المودة في قربى الرسول تقربهم إلى الرسول فإلى اللّه زلفى: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ (34: 47) إذا فلا أجر يسأل: لا ماديا و لا معنويا، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، أجر يرجع لصالح المعطي دون المستعطي، إلا صالح نشر الدعوة و تطبيقها، المشترك بين أصحابها.

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً: فإذ لا مانع من الإيمان عقليا و واقعيا، و لا دافع إلى الكفر و التكذيب من هنا و هناك، فلا يبقى من الموانع إلا ثقل الأجر، و أنت لست بسائله: فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ‏: و لكي يثقلهم عن الإيمان ثقل المغرم الأجر، و بدلا من سؤال الأجر، أنت تعدهم اجر الدنيا و الآخرة، فليس هناك من مغرم يثقلهم عن الإيمان، و يدفعهم إلى الكفر، لا ماديا و لا معنويا، و إنما شهواتهم و حرياتهم في حيوناتهم هي التي تردهم إلى أسفل سافلين و بئس للظالمين بدلا! أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ‏: فتلك شهودهم الخاطئة المارقة الماردة، فهل عندهم الغيب غير الخاطئ فهم يكتبون منه هذه التقولات الزور؟ فما لهذا الغيب- إذن- يغيب عن العدل المعقول، و واجبه الحفاظ على العقول و توجيهها إلى المعقول؟ .. كلا فلا شهود يفيدونهم و لا غيب يشهد لهم، و هم على حالهم المزرية صامدون في التكذيب، ثابتون على التأنيب، فلا سلاح يكافحون به إلا الصبر لحكم اللّه ان يكفيك بأسهم و تعسهم:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 78

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ. إِذْ نادى‏ وَ هُوَ مَكْظُومٌ. لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ‏:

يا حامل الرسالة الخالدة، عليك ان تصبر في بلاغها، صبرا صامدا، دون فشل و لا فرار عمن أرسلت إليهم مهما كلف الأمر، فاثبت حتى يأتيك امر اللّه و أنت صامد و هم فاشلون‏ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ‏: و لا كأي من حملة الرسالات الذين غلبوا على أمرهم و قل صبرهم، فهذه و أمثالها من تجارب مضت في الأدوار الرسالية و حقولها، إنها لك زاد و رصيد، لتكون أنت صاحب الحصاد الأخير، و الزاد و الرصيد الأخير، فتعينك على العب‏ء الثقيل الكبير في هداية البشرية جمعاء، في كافة القرون و الأجيال، نبراسا تنير به الدرب على المستنيرين، و متراسا تكافح به المتخلفين.

فلقد حمل صاحب الحوت- يونس بن متى- رسالة جزئية مؤقتة إلى قوم خصوص، فلم يتحمل أذاهم، و انكفأ إناء صبره فدعى عليهم و خرج من بينهم فحبسه اللّه في بطن الحوت، لماذا هذه العجلة في ترك الرسالة، و المرسل إليهم؟

و كما

يروى عن الرسول الأقدس (ص) قوله: «كان رجلا تعتريه الحدة، و كان قليل الصبر على قومه و المداراة لهم، عاجزا عما حمل من ثقل أوتار النبوة و أعلامها، و انه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 397 في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر (ع) كتب امير المؤمنين (ع) قال: حدثني رسول الله (ص) ان جبرائيل حدثه ان يونس بن متى بعثه الله الى قومه و هو ابن ثلاثين سنة، و كان رجلا تعتريه الحدة و كان قليل الصبر على قومه و المداراة لهم، عاجزا عما حمل من ثقل حمل أوتار النبوة و أعلامها، و انه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله، و انه اقام فيهم يدعوهم الى الايمان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 79

و إلى تفصيل حاله في بعثته و رسالته: وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ. فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالله و التصديق به و اتباعه ثلاثا و ثلاثين سنة، فلم يؤمن به و لم يتبعه من قومه الا رجلان، اسم أحدهما روبيل و الآخر تنوخا، و كان روبيل من اهل بيت العلم و النبوة و الحكمة، و كان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل ان يبعثه الله بالنبوة، و كان تنوخا رجلا مستضعفا عابدا زاهدا منهمكا في العبادة، و ليس له علم و لا حكم، و كان روبيل صاحب غنم يرعاها و يتقوت منها، و كان تنوخا رجلا حطابا يحتطب على رأسه و يأكل من كسبه، و كان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبيل و حكمته و قديم صحبته. فلما رأى ان قومه لا يجيبونه و لا يؤمنون ضجر و عرف من نفسه قلة الصبر، فشكا ذلك الى ربه، و كان فيما شكى ان قال: يا رب انك بعثتني الى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم ادعوهم الى الايمان بك و التصديق برسالتي و أخوفهم عذابك و نقمتك ثلاثا و ثلاثين سنة فكذبوني و لم يؤمنوا بي و جحدوا نبوتي و استخفوا برسالتي و قد توعدوني و خفت ان يقتلوني، فانزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون، فأوحى الله الى يونس: ان فيهم الحمل و الجنين و الطفل و الشيخ الكبير و المرأة الضعيفة و المستضعف المهين و انا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا اعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، و هم يا يونس عبادي و خلقي و بريتي في بلادي و في عيلتي، أحب ان أتأناهم و ارفق بهم و انتظر توبتهم، و انما بعثتك الى قومك لتكون حيطا عليهم تعطف عليهم سخاء الرحمة الماسة منهم، و تتأناهم برحمة النبوة، فاصبر معهم بأحلام الرسالة، و تكون لهم كهيئة الطبيب المداوي، العالم بمداواة الدواء، فخرجت بهم و لم تستعمل قلوبهم بالرفق، و تسسهم بسياسة المرسلين، ثم سألتني مع سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك، و عبدي نوح كان أصبر منك على قومه و أحسن صحبة و أشد تأنيا في الصبر عندي، و أبلغ في العذر، فغضبت له حين غضب لي، واجبته حين دعاني، فقال يونس: يا رب انما غضبت عليهم فيك، و انما دعوت عليهم حين عصوك، فوعزتك لا انعطف عليهم برأفة أبدا، و لا انظر إليهم بنصيحة شفيق بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 80

وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ (37: 148) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (21: 88).

إنه أبق إباق العبد من مولاه، أبق من تكميل الرسالة و تتميم الدعوة، مغاضبا مع قومه، فظن ان لن يقدر اللّه: يضيق اللّه: عليه في هذا الإباق، فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت و هو مليم نفسه أن كان من الظالمين: المنقصين في بلاغ الرسالة، و لولا ان تداركه من ربه نعمة التسبيح للبث في هذا السجن إلى يوم يبعثون، فنبذه بالعراء لما سبح، و أرسله ثانية إلى قومه: إلى مائة الف أو يزيدون، فآمنوا فمتعهم اللّه إلى حين: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ (10: 98).

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ‏: حكم الاستقامة في الدعوة: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ (11: 112) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (46: 35): هذا- و حكم اللّه في هؤلاء الماردين يوم الدنيا و يوم الدين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كفرهم و تكذيبهم اياي، و جحدهم نبوتي، فانزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون ابدا، فقال الله: يا يونس انهم مائة الف أو يزيدون من خلقي، يعمرون بلادي، و يلدون عبادي، و محبتي ان أتأناهم للذي سبق من علمي فيهم و فيك و تقديري و تدبيري غير علمك و تقديرك، و أنت المرسل و انا الرب الحكيم، و علمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا تعلم منتهاه، و علمك فيهم ظاهر لا باطن له، يا يونس قد أجبتك الى ما سألت، انزل العذاب عليهم و ما ذلك يا يونس بأوفر لحضك عندي و لا أحمد لشأنك و سيأتيهم العذاب في شوال يوم الأربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس فأعلمهم ذلك فسر يونس و لم يسؤه و لم يدر ما عاقبته.

أقول: و فيه‏ ان الله رفع عنهم العذاب لما آمنوا، و سجن يونس في بطن الحوت و كما في الآية لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ (10: 98).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 81

يوم في حريق الحرب كما حان حينها منذ الهجرة، و يوم في حريق النار يوم القرار و لا فرار! وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ‏: يونس صاحب السجن الحي السابح في اليم، إِذْ نادى‏ ربه فيه‏ وَ هُوَ مَكْظُومٌ‏: مكظوم الغضب عن قومه لما عرف خطأه في التعجيل، و تركه واجب التأجيل‏ لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ‏:

أن كظم غيظه و غضبه، و وفقه للتوبة و التسبيح‏ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ‏ و لكنه سبح ربه و تاب فنبذ بالعراء و هو ممدوح، فلقد كان بانتظاره عذاب دائب يوم الدنيا: فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ‏ دون نبذ بالعراء مذموما أو ممدوحا، لو انه ترك كل الواجب قديما و في السجن، و لكنه كان من المسبحين هنا و هناك، و لقد نجاه تسبيحه أن نبذ بالعراء، و كان يبقى عليه الذم لو لم يكمل التسبيح بما أنعم عليه ربه من الاعتراف بالظلم، و من التوبة النصوح، و كظم الغيظ، فنبذ بالعراء ممدوحا فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ‏: لتكميل الرسالة: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ. وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ. وَ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ‏ (37: 148).

وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ‏:

الإزلاق هو إزلال القدم حتى لا يستقر على الأرض، و الإزلاق بالبصر كناية عن غاية المقت و الإبغاض عند النزاع و الخصام، كأن هؤلاء الكفار- و عند سماع الذكر الذي لزامه التذكير- كأنهم من كثرة بغضهم يكادون ليستفزوه من الأرض بأبصارهم الحاقدة، و ليمسوا من كرامته بألسنتهم الناقدة: وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ‏ رغم أن كيانه ذكر للعالمين‏ وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ‏ و هل يعقل انه بنعمة ربه مجنون، و هم بنقمته عقلاء، فما لهم كيف يحكمون؟

(تفسير الفرقان- ج 29- م 6)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 82

ثم و هل للعين تأثير عفوي، دون محاولة خارجية فيما يراد؟ عله يكون أحيانا، و لكنه لغير المؤيدين المدركين بالعصمة الإلهية، فقد كاد الكفار ليزلقوه و لن يزلقوه، حيث العصمة الإلهية ترقب الرسول الأقدس عن كل محاولة تمس من كيانه الرسالي، مهما كادوا له كيدا و مادوا عليه ميدا، و كادوا ليزلقوه بأبصارهم، فاللّه خير حافظا و هو أرحم الراحمين! هذا كله، رغم أن:

«العين حق» «1»

و

«العين تدخل الرجل القبر و الجمل القدر» «2»

و

«أكثر من يموت بعد قضاء اللّه و قدره بالعين» «3»،

كما يروى عن الرسول الأقدس (ص) تأثيرات نفسانية سيئة تبتدئ بالعين، و كما لسائر المحاولات الشريرة آثار، إلا أن يشاء اللّه غيره‏ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ‏! وَ يَقُولُونَ‏ قولتهم الكافرة المجنونة: إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ‏ فهل لأنه لا يمشي ممشاهم و لا يهوى هواهم؟ وَ ما هُوَ: قرآن محمد و محمد القرآن‏ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ‏: كل العالمين مهما كانوا في هذه المعمورة أم سواها من كواكب عامرة، فالعالمون العقلاء هم المعنيون بهذا الذكر، و لكي يعقلوا عنه الكثير الكثير من متطلبات الحياة العقلية، و يرفضوا به الكثير الكثير من خرافات الحياة المجنونة المنفصلة عن وحي السماء.

إنها في هذا الوقت المبكر و الضيق المستحكم تعلن عن عالميتها، دون أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 258 اخرج البخاري عن ابن عباس ان رسول الله (ص) قال:

(2) الدر المنثور 6: 258 اخرج ابو نعيم في الحلية عن جابر ان النبي (ص) قال:

(3) الدر المنثور 6: 258 اخرج البزاز عن جابر ان النبي (ص) قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 83

تكون هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة، و إنما كانت ثابتة في صلب الدعوة منذ بدأت في أيام مكة الأولى، و كذلك تستمر إلى الأيام الأخرى، لو أن حملتها لم يهملوها و يمهلوا أعداءها للنيل منها، إنها لم تعرضها معارضات من دواخلها و خوارجها، فإن هذه الدعوة مستمرة مستزادة في ذاتها و معطياتها.

فمهما تقولوا عليها فرية الجنون، لكنما العقلاء سوف يعرفون مدى عقلها على تقدم العقل و العلم، و مدى جنون المفترين عليها الزور!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 84

سورة الحاقة- مكية- و آياتها اثنتان و خمسون‏

[سورة الحاقة (69): الآيات 1 الى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ (4)

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (6) سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (8) وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (9)

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (12)

\*\*\* الْحَاقَّةُ: من أسماء القيامة الكبرى، ذات الدلالة على حقيقتها و حقيّتها، دلالة مزدوجة: بصيغة الفاعل و تاء المبالغة، حاقة بالأدلة و الآيات الآفاقية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 85

و الأنفسية، حاقّة لمن يعرفها بثوابها، و حاقة على من ينكرها بعذابها، بأحوالها الواقعة و أهوالها، و حاقة بكل ما يحق عقلا و عدلا في قسطاس الإله العدل المتعال، تحقّق لكلّ عامل سعيه، خيرا و شرا، إظهارا للحق المجهول و المتجاهل عنه يوم الدنيا، ليوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

مَا الْحَاقَّةُ؟ سؤال استعظام و إجلال لأمر الحاقة.

وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ؟ إعظام ثان لأمرها: إنك- و أنت الرسول- ما كنت تدري ما هي لولا أن اللّه عرّفك و أدراك بها! كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ: ثمود هم قوم صالح من الثمد و هو الماء القليل الذي لا مادة له، فهم و عاد قوم هود ألعن حماقى الطغيان، و قد كذبتا- فيما كذبتا- بالقارعة، القيامة القارعة، التي تقرع الكون و تدكّه، تضرب الناس بفنون الأهوال و جنون الأحوال، و السماء بالانشقاق و الانفطار، و الأرض و الجبال بالدك و النسف، و النجوم بالطمس و الانكدار ببعضه، فلما كذّبتا بها حقت عليهما القارعة التي تقرعهم بالحق فيما تقرع.

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ: بالصيحة الطاغية وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (11: 68)، و بالرجفة الطاغية فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (7: 77) صيحة و رجفة خلّفتا صاعقة: .. فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (41: 17)، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (51: 44).

إنهم أهلكتهم قبلكم الطاغية بطغواهم .. طاغية بطاغية: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (91: 11) و لقد اختصرت تلكم الحادثة هنا- في الحاقة- بحق الأمر الواقع من العذاب: «الطاغية» فائضا بالهول المناسب لثورة السورة، تطويهم طيا، و تطغى عليهم بما بغوا و طغوا فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 86

وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى‏. وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى‏ (53: 51) «1».

وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ: صَرْصَرٍ بالغة في الصّر و البرد، عاتية: شديدة الهبوب و الغلب و على حدّ تفسير

الرسول الأقدس «ص»: «غالبة» «2»

، عتت على خزانها. و كما

يروى عنه «ص»: «ما خرجت ريح قط إلا بمكيال إلا زمن عاد فانها عتت على خزانها، فخرجت في مثل خرق الإبرة فأهلكت قوم عاد» «3»

كذلك. و عتت في غلبها عليهم فلم يجدوا عنها محيصا، و عتت عليهم كما عتوا عن أمر ربهم، عاتية في كافة مراحلها إلا عتو البغي، وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

إنها كانت ريحا عقيما لا تخلّف إلا عقم الحياة بفور الممات: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ‏ (51: 42):

ريح عذاب لا تلقح شيئا من الأرحام و لا شيئا من النبات، و ما خرجت إلا على قوم عاد «4».

سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ:

هذه الريح الصرصر العاتية العقيم، سلطت على هؤلاء الأوغاد في مثل هذه الليالي و الأيام الحسوم: حسوما بصرصرها، إذ حسمت و قطعت و أزالت كافة آثار الطغيان و كما تحسم المكواة بكرورها آثار الفوضى في الثياب، فقد حسمت الريح الصرصر العاتية فوضويين طغاة مكابرين‏ فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ذكرت ثمود في 26 موضعا من القرآن مع طغاة كامثالهم، كما ذكرت عاد 24 مرة.

(2)

الدر المنثور 6: 259- ابن عباس قال: قال رسول الله (ص) في حديث‏ قال الله تعالى: بريح صرصر عاتية، قال: غالبة.

(3) نور الثقلين 5: 401 من لا يحضره الفقيه» قال رسول الله (ص).

(4) نور الثقلين 5: 401 عن روضة الكافي باسناده الى الباقر (ع) و هو حديث طويل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 87

و حسوما بتواصلها في أيامها الحاملة العذاب الصرصر فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ... (41: 16)

أيام كأنها في تواليها يوم واحد: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (54: 20).

فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏: في هذه الأيام النحسات، و في صرصرها العاتية تراهم ميتين في مصارعهم‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ: خالية جوفاء ملقاة على أعجازها. ك «نخل منقعر»: و النخل الخاوية الأعجاز، المنقعرة المصرومة، أشبه شي‏ء بالموتى الصرعى.

فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ: لا حاضرا إذ لا خبر واقع عنهم، إلا باقية باغية مزرية، و لا غابرا إذ لم تبق لهم حتى جثثهم: و الريح الصرصر العقيم هي التي جعلتهم مندثرين، إما قذفا لأجسادهم أو رمادهم في اليم، أو نثرها عبر الهواء.

فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ؟ كلا: لا نفوس باقية و لا آثار من جثثهم الجهنمية، فقد اجتثوا من جذورهم، بأنفسهم و نفائسهم: فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ‏ (46: 25)، فلم يبق منهم من يتحدث عنهم و لا حتى قبورهم اللهم إلا مساكنهم الخالية الخاوية .. فيا له من تعبير عديم النظر يرسم لنا مشهد التدمير كأننا الآن نشهده، فهنا عاصفة مزمجرة، و هناك ضحايا الزمجرة، صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية؟.

وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً.

وَ جاءَ فِرْعَوْنُ‏ موسى‏ وَ مَنْ قَبْلَهُ‏ من فراعنة التاريخ بهوامش الضلالة:

وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً. وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً. وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً (25: 39).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 88

و جاءت‏ الْمُؤْتَفِكاتُ‏: الأقوام المفترية على اللّه و رسله، كقوم لوط و أضرابهم.

جاؤا بِالْخاطِئَةِ: الحياة الخاطئة، بالأفكار و التصرفات الخاطئة، خطأ متعمدا في حياة جهنمية مريرة.

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ‏: كتلة الضلالة عصت كتلة الهداية التي تجمعها رسالة إلهية واحدة، و لأنهم أجمع من إله واحد، و باتجاه واحد، مهما اختلفت فروع جزئية من شرائعهم صوريا لا جذريا، لا فحسب أنهم واحد، بل و أمتهم أيضا واحدة: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (23: 53)، فشخصية الرسل واحدة، و شخصية الأمم التابعة لهم صدقا واحدة، مهما كان الأشخاص و الأمم عدة، فتكذيب رسول واحد تكذيب للرسل أجمع، لأنه تكذيب للرسالة الإلهية: لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ‏ في الاتجاه نحو إله واحد، و لقد كان نتيجة تكذيب تلك الأقوام الرسالة الإلهية هي الأخذة الرابية:

فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً عالية ضامرة غامرة تربو على قبيح أعمالهم: أَخْذاً وَبِيلًا (72: 16) إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (11: 102) كيف لا! و هو أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

أجل- و انها أخذة تعلوهم كما استعلوا و عتوا عن أمر ربهم، دون أن تربو على عتوهم‏ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فقد ينقص العذاب عن الاستحقاق دون أن يربو عليه، و إنما الثواب هو الذي يربو على الاستحقاق. بل و لا استحقاق .. إلا مغفرة من اللّه و فضلا.

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ. لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ لقد طغا الماء في طوفان نوح عليه السلام في طموّ أمواجه و ارتفاع أثباجه كالرجل الطاغي الذي علا متجبرا، و شمخ متكبرا، طغا الماء على الطغاة، و كثر على ضبّاطه و خزانه، فلم يضبطوا مدى الخارج منه كثرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 89

فكيف طغا الماء؟ و ما هي الجارية؟ و كيف حملتنا و لم نكن وقتئذ و إنما كان أجدادنا؟.

طغا الماء كما أراد اللّه: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ. وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (54: 11).

و لقد سميت سفينة نوح بالجارية لأنها كانت تجري في اليم المحيط، و تسمى السفن جواري: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (55: 24).

و أما كيف حملتنا؟ إنها حملتنا و نحن ذرية في أصلاب آبائنا المحمولين فيها، فقد حملنا بما حملوا، رحمة مزدوجة من ربنا: لنا و لهم، فكما يمن عليهم كذلك علينا و أحرى إذ حملنا و لم نكن شيئا مذكورا، إلا ذرية، و هو آية للرحمة و القدرة الإلهية: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (36: 41) فليست «ذريتهم»- و هم الموجودون حين نزول الآية- إنها ليست أبناءهم، كيف و لم يكونوا موجودين وقتذاك فضلا عن أولادهم، و لا أجدادهم، لأنهم ليسوا ذرية في أية لغة و اصطلاح، و إنما ذُرِّيَّتَهُمْ‏ هم أنفسهم إذ كانوا ذرية (اضافة الشي‏ء إلى نفسه اعتبارا بالحالة المسبقة) كما يقال: نطفتك- ميتتك- جيفتك، و المعنى فيها أنت حينما كنت نطفة، و حين تكون ميتة و جيفة كذلك الحال في‏ ذُرِّيَّتَهُمْ‏ فهم أنفسهم إذ كانوا ذرية في أصلاب آبائهم، و لئن كان هذا المعنى خفيا في البداية، فقرينة آية الجارية: حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ و كذلك نفس آية الذرية «1»، فيهما الكفاية التامة لحصر معناها في إضافة الذرية إلى نفسها:

ذُرِّيَّتَهُمْ‏ حملناهم إذ كانوا ذرية، و ما أحسنه تعبيرا عن الحالة المسبقة الضئيلة للإنسان، و لكي يتنبه نعمة اللّه عليه إذ لم يكن شيئا مذكورا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إذ لا يمكن أن يراد منها الأبناء و الأجداد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 90

لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً: لنجعل الجارية التي حملتكم في أصلاب أجدادكم، نجعلها لكم تذكرة: تذكرة في نعمتها لحملكم، و تذكرة في جريانها عبر التاريخ بآثارها الخالدة و أنقاضها الباقية بعد جريانها عبر البحر المحيط: وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (54: 15): إذ ظلت باقية حتى الآن: فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (29: 15) و بما يحملها من بشارة:

فهي آية في أنقاضها، و آية في الآيات المكتوبة عليها باللغة السامانية التي تصرح باسم الخمسة الطاهرين من أهل بيت الرسالة المحمدية «محمد (ص). علي. فاطمة.

الحسن. الحسين عليهم السلام» و كل ذلك واقع، فالسفينة آية في غابرها و حاضرها، في أنها نجاة للمؤمنين من قوم نوح و لذريتهم في الحياة الجسدانية إذ أنجتهم من الغرق، و في الحياة الروحانية إذ حملت بشارة الغيب: أسماء الطيبين الذين أقسم بهم نوح (ع) حتى نجاه اللّه من الغرق.

سفينة نوح و البشارة المحمدية على أنقاضها

: «في تموز 1951 عثر على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة و بالية، اكتشفها جماعة من العلماء السوفييت المختصين بالآثار القديمة، إذ كانوا ينقبون في منطقة بوادي قاف، مما دعاهم إلى تنقيب أكثر و أعمق، فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة و كثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض، و من بينها عثروا على خشبة مستطيلة الشكل طولها 14 سنتيمترا و عرضها 10، سببت دهشتهم و استغرابهم، إذ بقيت سليمة غير متناثرة بين الأخشاب الأخرى!.

و في أواخر 1952 أكمل التحقيق حول هذه الآثار الغريبة، فتبين أن اللوحة و سائر الأخشاب هي انقاض سفينة نوح (ع) التي استوت على الجودي حسب القرآن، و قد ظلت عليها حتى القرن الحاضر.

و قد شوهد على هذه اللوحة بعض الحروف التي تعود إلى أقدم اللغات، و للكشف عنها ألفت الحكومة السوفييتية لجنة قوامها سبعة من علماء اللغات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 91

القديمة «1» و بعد ثمانية أشهر من الدراسة لهذه اللوحة و الكتابة المنقوشة عليها، أجمعوا أنها من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح (ع) و أنه وضعها في السفينة للتبرك و الاستحفاظ بعد أن تحققوا أن تلك الحروف كانت باللغة السامانية أو السامية: لغة نوح (ع) و قد ترجمها العلماء الروس المعنيون باللغات القديمة إلى اللغة الروسية، ثم العالم البريطاني (اين ايف ماكس) أستاذ الألسن القديمة في جامعة (مانشستر) ترجمها إلى الانجليزية «2»، و هي بالعربية:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هم: سولي نوف- أستاذ الألسن القديمة في جامعة موسكو، و (ايفاهان خنيو) عالم الألسن القديمة في كلية لولوهان بالصين، و (ميشانن لو فارند) مدير الآثار القديمة، و (تانمول غورف) أستاذ اللغات في كلية كيفزو، و (دي راكن) أستاذ الآثار القديمة في معهد لينين، و (ايم احمد كولاد) مدير التنقيب و الاكتشافات العام، و (ميجر كولتوف) رئيس كلية ستالين» نقلتهم مجلة البذرة النجفية في العددين: الثاني و الثالث- شوال و ذي القعدة:

(2) ترجمتها باللغة الانجليزية كالتالي:

يا الهي و يا معيني‏replehym doG ymO برحمتك و كرمك ساعدني‏ycrem htiw sdnahym peeK و لأجل هذه النفوس المقدسةseidobyloh ruoy htiw dnA محمدdemahoM إيلياailA شبرribbahS شبيرribbahS فاطمة

amtaF selbaruonoh dna tseggib llaera yehT

هم جميعهم عظماء و مكرمون‏meht rof dehsilbatse dlrowehT العالم قائم لاجلهم ساعدني بحق أسمائهم.thgirot mrofernac uoy seman riehtyb em pleH أنت تستطيع ان توجهني الى الطريق الصحيح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 92

يا إلهي و يا معيني، برحمتك و كرمك ساعدني، و لأجل هذه النفوس المقدسة محمد- إيليا- شبر- شبير- فاطمة. الذين جميعهم عظماء و مكرمون، العالم قائم لأجلهم. ساعدني بحق أسمائهم، أنت تستطيع أن توجهني إلى الطريق الصحيح.

و لقد بقي هؤلاء العلماء في دهشة عظيمة أمام هذه اللوحة بأسمائها حيث توسل بها نوح و بقيت حتى الآن، واقع التصديق للقرآن‏ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ‏، و هذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو و في خبر أن المسلمين رأوها من ذي قبل‏ «1».

و لما اكتشفت هذه البشارة المحمدية نشرتها المجلات و الجرائد المهمة العالمية:

الروسية و البريطانية و القاهرية «2».

و إليكم صورة اللوحة الفوتوغرافية باللغة الآرامية كما نشرت في الجرائد و المجلات و بعض الكتب ككتاب إيليا، و أصل اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 260: عن قتادة في الآية قال: عبرة و آية أبقاها الله حتى نظرت إليها هذه الأمة، و كم من سفينة غير سفينة نوح صارت رمما».

(2). 1- مجلة روسية شهرية تصدر في موسكو تشرين الثاني 1953، 2- مجلة (ويكلي ميرر) الاسبوعية اللندنية العدد الصادر 28 كانون الاول 1953، 3 مجلة (أستار) اللندنية، كانون الثاني 1954- 4 جريدة (سن لايت) الصادرة في مانجستر 23 كانون الثاني 1954، 5- جريدة (ويكلي ميرر) اللندنية في 1 شباط 1954، 6 جريدة (الهدى) القاهرية في 30 مارس 1953» و المصادر الاربعة الاخيرة نقلت ترجمة العالم البريطاني (ان أف ماكس) أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانجستر.

7 و من المصادر كتاب إيليا من منشورات دار المعارف الاسلامية بلاهور باكستان برقم 42- اللغة الاردية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 93

و قد ترجمت كما سبق كالتالي:

«يا إلهي و يا معينى، برحمتك و كرمك ساعدني، و لأجل هذه النفوس المقدسة: محمد- إيليا- شبر- شبير- فاطمة، الذين جميعهم عظماء و مكرمون العالم قائم لأجلهم، ساعدني بحق أسمائهم، أنت فقط تستطيع أن توجهني إلى الصواب.

و لقد سبق نوحا إدريس النبي عليه السلام في ذكر أسمائهم باللغة السريانية «پارقليطا- إيليا- طيطه- شپبر- شپيير «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفصيل في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 94

لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ الأذن التي تعي الحقائق الناصعة إنها تعي آية سفينة نوح، بما على لوحتها من آيات، و أوعى الآذان آذان النبيين، و أوعاها بينهم جميعا أذن الرسول الأقدس محمد عليه السلام. فحياته وعي للحقائق دون نسيان، و يخلفه في وعيه الشامل أذن علي عليه السلام. و على حد

قوله (ص) لما نزلت آية الأذن، «سألت ربي أن يجعلها أذن علي قال مكحول فكان علي يقول: ما سمعت من رسول اللّه (ص) شيئا فنسيته» «1»

و

عن علي (ع): ضمني رسول اللّه (ص) و قال: أمرني ربي أن أدنيك و لا أقصيك و أن تسمع و تعي‏ «2»

[سورة الحاقة (69): الآيات 13 الى 18]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (13) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (15) وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (16) وَ الْمَلَكُ عَلى‏ أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (17)

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ (18)

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ هي الأولى من نفختي الإماتة و الإحياء و الواحدة توحي بنفاذها و سرعتها و شدة مفعولها دون مهل و لا فشل، نفخة و صرخة تسمع أعماق الكائنات و تصرعها و تمحقها كأن لم تكن، و على أثر هذه النفخة المدمرة:

وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً: نفخة واحدة تخلق دكة واحدة، واحدة في عدها، مزدوجة في شدها و مدها: كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (89: 21): يسمع منها صوت الدكداك: أشد الدقّ الذي يسحق و يبدل الشي‏ء إلى أجزاء دقاق كالدقيق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 260، و قد اخرج في غاية المرام ستة عشر حديثا مثله عن طريق الفريقين.

(2) رواه ابو نعيم في الحلية و الواحدي في اسباب النزول عن بريدة و ابو القاسم بن حبيب في تفسيره عن زر بن حبيش عن علي (ع) و رواه في تفسير روح البيان ج 10 ص 136.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 95

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ: واقعة الاماتة و التدمير و تتلوها واقعة الإحياء و التعمير، و من الأولى: وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ .. و من الثانية:

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ اعتبرت الثانية كأنها الأولى أو من الأولى لاتصالهما: «يومئذ» إذ دكت الأرض و الجبال و وهت السماء.

وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ: مسترخية بشد رباطها بعد شد قماطها، فلقد كانت سبعا شدادا: وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (78- 12) فهذه السبع الشداد سوف تسترخي و توهي: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ (14: 48) تصبح السماء غير السماء مغايرة في الصورة و الماهية، و المادة الاصلية هي نفس المادة، بانقلابها و انسلاخها عن ناموس العمار الى ناموس البوار.

وَ الْمَلَكُ عَلى‏ أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ إن الملك- عند انفراط الكون و تغيره بأرضه و سمائه- يخرج عن ميدان النضال الموت إلى الأرجاء: الجوانب، فرارا من الموت، إلى تحقيق أمر اللّه، بأمر اللّه و لعلهم ملائكة خصوص ممن شاء اللّه. إذ يصعق وقتئذ من في السماوات و من في الأرض: .. وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (29: 68) فعلهم هؤلاء الخصوص الذين شاء اللّه ألا يصعقوا، و لا سيما إذا كان‏ الْمَلَكُ عَلى‏ أَرْجائِها حالا من انشقاق السماء و وهيها! و يؤيده المروي عن النبي (ص) «1»» أو علهم كمن سواهم ممن هم قيام ينظرون في نفخة الإحياء، و لكنه يبقى السؤال:

لماذا على الأرجاء؟ أقول: و لكي يحملوا مع العرش، يحملهم الثمانية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 403 عن ارشاد المفيد عن النبي (ص) قال: ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر، و لا حي الا مات، الا ما شاء الله. ثم يصاح بهم صيحة اخرى فينشر من مات ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 96

وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ‏: الملك الذين هم على الأرجاء «ثمانية»: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ (40: 7) فهم المحمولون مع العرش، و لكي يساعدوا الحملة في تحقيق أمر اللّه.

فإذ

«ليس في طبقات السماوات موضع إهاب إلا و عليه ملك ساجد، أو ساع حافد «1»

فكونهم وقتئذ على الأرجاء، و باقي السماء منهم خلاء، ليس إلا أن منهم من صعق في الصيحة فانتهى دوره و منهم من لحق حملة العرش على الأرجاء، و هم ممن شاء اللّه ألا يصعقوا.

ما هو العرش هنا و من هم حملة العرش؟:

إن للّه عروشا عدة، منها عرش الخلق و التدبير، و منها عرش العلم، و منها كما هنا- عرش التربية: جسدانية، و نفسانية روحانية، يعنى به أعلى المقامات في أعلى الملإ، يحمله من خلق اللّه الملأ الأعلى ملائكية و بشرية أم ماذا؟!.

فهو على أية حال ليس عرشا كعروشنا يتكأ عليه، ثم خلقه يحملونه على عرشه، فيصبح في ازدواجية الحمل: محمولا مرتين! و إنما العرش خلق من خلق اللّه يحيط بسائر الخلائق من مصادر الأمر العليا بشأن الكون، في تدبيره جسدانيا و روحانيا.

فيوم الدنيا، لعرش العلم الإلهي حملة بين الخلق هم النبيون و أهلوهم المعصومون، و لعرش التدبير حملة منهم و من الملائكة المدبرات أمرا بإذن اللّه، و اللّه خالقهم و خالق العرش، و هو من ورائهم محيط.

لقد ذكر العرش في واحد و عشرين موضعا من القرآن و الكرسي في واحد، منها آيات استوائه تعالى على العرش، حينما كانت المادة الأولية دون أرض و لا سماء: هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ (11: 7)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 97

و منها ما في استوائه عليه بعد ما خلق الأرض و السماء:

الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏. لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى‏ (20: 6) عرش الالوهية و الملك المطلق، و منها ما يعنى به عرش التدبير:

ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ (10: 3) و منها عرش العلم: ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (57: 4) .. و ما إلى ذلك من عروش تناسب و ساحة الالوهية و الربوبية، و الحامل الأول و الأخير لهذه العروش هو اللّه تعالى، و قد يحملها من خلقه من يشاء، يحملونه باذنه و كما يريد من مصالح الخلق، و كما في الحملة الثمانية:

آيات ثلاث تحمل ذكر الحملة الثمانية، ثانيتها: وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ‏ (39: 75) تعني العرش يوم قيامة الإحياء و الحساب.

و آخرها: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (50: 7) و هي كذلك تعني يوم الحساب ثم عرش الحاقة يمتاز بأمور عدة: منها ذكر العدد «ثمانية» و منها اختصاصهم بيوم الحساب‏ وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ فهل لأنهم أقل منهم يوم الدنيا فزادوا يوم الدين، أم كانوا أكثر فقلوا؟

ثم الملائكة الحافون حول العرش ليسوا كلهم حملة، فمنهم محمولون‏ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ‏ و لا ان الحملة هم الملائكة فحسب، كما أن آيتي الحمل لا تختصانه بهم: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ‏ وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ فمن هم الثمانية؟ و هل كانوا يوم الدنيا أقل أو أكثر؟.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 7)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 98

نقول: هنا عرش قبل خلق السماوات و الأرض، و عرش بعدهما يوم الدنيا و عرش يوم الدين، كل حسب ما يتطلبه الخلق من حاجاتهم إلى اللّه فيما يصدر من لدنه تعالى، و لعل لكل عرش حملة، و آية الحاقة تصريحة لحملته يوم الدين «ثمانية» و تلويحة لهم يوم الدنيا، لا ندري الآن عدتهم.

ثم الثمانية يوم الدين: هل هم أشخاص أم أصناف ثمانية؟ أم طوائف ثمان، تأنيث العدد يوحي أنهم أشخاص، إذ الطوائف ثمان لا ثمانية! و لا بد للأصناف من دلالة زائدة، و إذا كانوا أصنافا فلا دليل أنهم كلهم حملة العرش.

و بما أن العرش هو المقام العلي الذي ترجع اليه أزمة جميع التدابير التكوينية و التشريعية، فلتكن فيه جميع الوقائع و الحوادث، إلا ما يستثنى للّه تعالى، الخاص بساحة الالوهية و الربوبية، فليس العرش الذي تحمله ثمانية، هو الذي استوى عليه الرب، إنما قدر منه يقدر على حمله أصفياء من خلقه لتحقيق أمره فيكونوا على مستوى عظمة العرش، و معنى الحمل للعرش.

فحملة عرش التربية و العلم هم العلماء الربانيون من الأنبياء المرسلين و الملائكة الكروبيين، حملة الوحي إليهم، و المدبرين أمر الخلق بأمره.

و بما أن القيامة فيها خلاصة النشأة الأولى و زيادة، فليكن حملة العرش فيها أكثر منهم يوم الدنيا، و يصدّق هذا الإيحاء، إضافة إلى «يومئذ» الدال على اختصاص العدد بيوم القيامة، يصدقه‏

المروي عن الرسول (ص): يحمله اليوم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 99

أربعة و يوم القيامة ثمانية «1»

و روايات عدة أخرى تحصر الثمانية بيوم القيامة

كالمروي عن الصادق عليه السلام قال: حملة العرش- و العرش العلم- ثمانية: أربعة منا و أربعة ممن شاء اللّه» «2»

لو عني ب «منّا» الحملة البشر، أو حملته يوم الدنيا.

و بالنسبة لهؤلاء الأربعة لو نظرنا من زوايا عدة إلى نبوات عدة أصيلة كان الأربعة هم «نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد (ص)» فإن موسى و المسيح لم يحملا إلا رسالة واحدة هي التورات، فهما إذا واحد «3».

و لو نظرنا إلى القمة المقسّمة على حملتها في الرسالة المحمدية الشاملة للرسالات كلها، المضيئة عليها كلها، كان الأربعة هم «محمد و علي و الحسن و الحسين» «4» و على أية حال هؤلاء هم حملة العلم و التربية الإلهية تحقيقا و جزاء.

و

عن الإمام أمير المؤمنين علي (ع) «5»: إذ سأله الجاثليق فقال: اخبرني عن اللّه عز و جل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 261- ابن جرير عن ابن زيد قال: قال رسول الله (ص): و

في التفسير الكبير (ج 30 ص 109) عن النبي (ص): «هم اليوم اربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله باربعة آخرين فيكونون ثمانية».

(2) نور الثقلين 5: 406 عن الصادق (ع).

(3) راجع كتابنا «المقارنات العلمية و تفسير سورة الجن في هذا الجزء».

(4) نور الثقلين 5: 406 عن تفسير القمي قال: حملة العرش ثمانية: اربعة من الأولين و اربعة من الآخرين، فاما الاربعة من الأولين فنوح و ابراهيم و موسى و عيسى، و اما الآخرون فمحمد و علي و الحسن و الحسين، و معنى يحملون يعني العلم.

(5) نور الثقلين 5: 405- عن اصول الكافي عدة من أصحابنا عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 100

يحمل العرش أو العرش يحمله؟ فقال: اللّه عز و جلّ حامل العرش و السماوات و الأرض و ما فيهما و ما بينهما و ذلك قول اللّه عز و جلّ: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً قال: فأخبرني عن قوله‏ وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ: فكيف ذاك؟

و قلت: إنه يحمل العرش و السماوات و الأرض! فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن العرش خلقه اللّه من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرت الحمرة و نور أخضر منه اخضرت الخضرة، و نور أصفر منه اصفرت الصفرة، و نور أبيض منه ابيض البياض، و هو العلم الذي حمّله اللّه الحملة، و ذلك نور من نور عظمته.

فبعظمته و نوره أبصر قلوب المؤمنين، و بعظمته و نوره عاداه الجاهلون، و بعظمته و نوره ابتغى من في السماوات و الأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة، و الأديان المتشتتة، فكل شي‏ء محمول يحمله اللّه بنوره و عظمته و قدرته، لا يستطيع لنفسه ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياتا و لا نشورا، فكل شي‏ء محمول و اللّه تبارك و تعالى الممسك لهما ان تزولا: و المحيط بهما من شي‏ء، و هو حياة كل شي‏ء و نور كل شي‏ء، سبحانه و تعالى عما يقولون علوا كبيرا، قال له فأخبرني أين هو؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام هو هاهنا و هاهنا و فوق و تحت و محيط بنا و معنا و هو قوله: ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا فالكرسي محيط بالسماوات و الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى، و إن تجهر بالقول فإنه يعلم السر و أخفى، و ذلك قوله: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ‏ فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمّلهم اللّه علمه، و ليس يخرج عن هذه الأربعة شي‏ء خلقه اللّه في ملكوته، و هو الملكوت الذي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

احمد بن محمد البرقي رفعه قال: سأل الجاثليق امير المؤمنين (ع) فقال له:

أخبرني عن قوله: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ فكيف قال ذاك، و قلت: انه يحمل العرش و السماوات و الأرض! قال (ع): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 101

أراه اللّه أصفياءه و أراه خليله فقال: وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ‏ و كيف يحمل حملة العرش اللّه؟ و بحياته حييت قلوبهم، و بنوره اهتدوا إلى معرفته».

أقول: علّ الأركان الثلاثة الأول هي مقادير التقدير و التدبير و الإبرام في سائر الكائنات تكوينا، و الركن الرابع هو زاوية العلم: تشريعا و تكوينا و ما أشبهها.

ثم الأربعة الآخرون يوم القيامة، علهم من الملائكة الكروبيين الخصوص، أو أنهم هم لا سواهم، إذ لو كانوا من الحملة يوم الدنيا لانتفى دورهم يوم الدين! و هؤلاء المكرمون الثمانية- أيا كانوا- هم فوق الخلائق أجمع، و يحملون عرش الرب فوقهم اجمع: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ.

و علهم- كما احتملنا مسبقا- ثمانية صفوف أو صنوف، فلتشمل كافة حملة الرسالات الإلهية، و حملة أمر اللّه تعالى: يوم الدنيا و يوم الدين، منقسمين إلى صفوف أو صنوف ثمانية، و انما ذكرت الروايات اولي العزم من الرسل لأنهم القمة فيما يحمّلون، و الائمة فيما يحملون.

و أخيرا ما أروعه و أعمقه حديثا عن العرش‏

يروى عن الصادق عليه السلام، إذ يسأله حنان بن سدير عن العرش و الكرسي فقال: ان للعرش صفات كثيرة مختلفة، له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة، فقوله: رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ‏ يقول: رب الملك العظيم، و قوله: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏ يقول:

على الملك احتوى، و هذا علم الكيفوفية في الأشياء، ثم العرش في الوصل مفرد عن الكرسي لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، و هما جميعا غيبان، و هما في الغيب مقرونان، لأن الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع، و منها الأشياء كلها، و العرش هو الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف و الكون و القدر و الحد و الأين و المشية و صفة الإرادة و علم الألفاظ و الحركات و الترك و علم العدد و البدء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأن ملك العرش سوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 102

ملك الكرسي، و علمه اغيب من علم الكرسي فمن ذلك قال: رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ‏، أي: صفته أعظم من صفة الكرسي، و هما في ذلك مقرونان، قلت:

جعلت فداك، فلم صار في الفضل جار الكرسي؟ قال عليه السلام: إنه صار جاره لأن علم الكيفوفية فيه و فيه الظاهر من أبواب البداء و انيتها و حد رتقها و فتقها، فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الصرف، و بمثل صرّف العلماء، و ليستدلوا على صدق دعواهما، لأنه يختص برحمته من يشاء و هو القوي العزيز «1».

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ: تعرضون على اللّه بشهود الأعمال، عرضا حاضرا حاذرا مشهودا، بعد ما كنتم معروضين عليه يوم الدنيا غير مشهودين، ثم ذلك عرض للحساب، و هنا عرض العلم، و في ذلك العرض الشهادة الحساب‏ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ: خافية النيات و العقائد و الأعمال و السرائر، مهما حاولتم في اخفائها، إخفاء عن اللّه؟ كلا! وَ عُرِضُوا عَلى‏ رَبِّكَ صَفًّا (18: 48) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى‏ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْ‏ءٌ (40: 16) بارزون لأنفسهم و سواهم، فكيف يخفى على اللّه منهم شي‏ء، و لا تخفى عليه خافية!.

و ما أخطره هول المطلع و العرض و ما أفظعه و أصعبه، ألا إنه ليوم عصيب أعصب من دك الأرض و مور السماء: وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان الضمير، عريان الحاضر و الغابر، عريان الآمال و الأعمال ما ظهر منها و ما استتر، أين؟ امام تلك الحشود الهائلة من خلق اللّه، و امام عظمة اللّه و جلاله! ألا انه حقا لأمر أمرّ من كل أمر و أدهى، فليحسب له الإنسان حسابه، و ليعدّ له عدّته، سبحان الغفار العظيم!

[سورة الحاقة (69): الآيات 19 الى 37]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (22) قُطُوفُها دانِيَةٌ (23)

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (24) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (25) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (26) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (27) ما أَغْنى‏ عَنِّي مالِيَهْ (28)

هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33)

وَ لا يَحُضُّ عَلى‏ طَعامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَ لا طَعامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخاطِؤُنَ (37)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التوحيد للصدوق باسناده عن حنان بن سدير:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 103

يوم العرض الأكبر إذ يظهر لأهل الجمع كل ما ستر، يؤتى الأخيار و الأشرار كتبهم: كتب الأعمال، فالحساب، فالسقوط أو النجاح، كتب تتناسب في التدليل على مواقف أصحابها، و لعلهم قبل الكل تؤتاهم كتب الشريعة:

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ‏: تدليلا على أنه ناجح بما عاش يمين الحياة بيمين الكتاب الإلهي على ضوء تطبيقه‏ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ‏: يقولها في فرحة غامرة بين الحشر تملأ الفرحة كيانه، و تظهر على لسانه هاتفا أهل الجمع:

هاؤُمُ‏: هاكم‏ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ‏: كتاب الأعمال و الحساب و النجاح.

إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ‏.

و الظن هذا أعم من ظن القلب الذي يساور يقين العقل الذي يدفع للصالحات فإن من يقين العقل ما لا يدفع للصالحات فضلا عن ظنه- و أعم من ظن العقل، فإن من المحشرين من يدخل الجنة بلا حساب و منهم من يدخلها بحساب، فهو يظن نفسه من الآخرين متهما نفسه تخضعا للّه، فإذا هو من الأولين و كما عن الصادق عليه السلام في ظن الشك الممدوح‏ «1»، و عن أمير المؤمنين (ع) في ظن اليقين‏ «2» و لفظ الآية يتحملهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 407 القمي في الآية قال الصادق (ع) كل امة يحاسبها امام زمانها- الى قوله- فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا الى الجنة بلا حساب .. فإذا نظر أولياؤهم في كتابهم يقولون لإخوانهم:

هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ‏.

(2)

المصدر في الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) و اما قوله:

وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها يعني: تيقنوا انهم داخلوها، و كذلك قوله: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ‏ و اما قوله للمنافقين: وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا فهو ظن شك و ليس ظن يقين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 104

معا حيث الظن يشملهما هنا لفظيا و معنويا: اني أيقنت لقاء الحساب و ظننت انني ادخل الجنة بحساب، فإذا بي أدخلها بلا حساب!، و تشمل الآية أيضا من يدخل الجنة بحساب فيختص بالوجه الأول.

فهذا الكتاب يحمل حسابي بعلامة النجاح‏ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ: عيشة بالغة في أنها مرضية لحد كأن الرضا أدغمت في ذاتها فأصبحت راضية، كما يقال:

شعر شاعر و ليل ساهر و سحر ساحر، مبالغة في كمالها و جمالها، راضية يوم الدين كما كانت راضية يوم الدنيا: صورة طبق الأصل، و تفضله هناك لظهوره تامة فيها، و لمزيد الرحمة الإلهية المضافة إليها.

فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ: عالية في المكان و المكانة، و في الرحمات الجسدانية و الروحانية «فيها ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر» قُطُوفُها دانِيَةٌ: أثمارها التي تقطف دانية إلى طلابها، لا تتكلف القيام و لا التوسل بأية وسيلة.

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ: اكلا و شربا هنيئا سائغا لا تنغيص فيه في الحلقوم، و ذلك بما اسلفتموه من الصالحات في الأيام الماضية: أيام التكليف يوم الدنيا.

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ‏: علامة السقوط فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ‏: فانه عذاب فوق العذاب و قبله‏ وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ‏ فانه يدخل النار بحساب، و دراية الحساب أيضا قبل العذاب عذاب فوق العذاب، فإتيان الكتاب بالشمال عذاب، و عرفان الحساب عذاب، ثم بعدهما واقع العذاب بقدر الحساب.

يا لَيْتَها: القارعة المسبق ذكرها كانَتِ الْقاضِيَةَ: علي، الماحقة لوجودي بعد الموت فحسب، دون أن تتلوها قارعة العذاب بعد صيحة الإحياء في حياة الحساب، و هي تشبه مقالة الكافر: يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً.

ما أَغْنى‏ عَنِّي مالِيَهْ‏: مالي و ما، لي: ما ادخرت من أموال، و ما كنت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 105

املك من طاقات جسدانية و نفسية كنت احسبها تغنيني، و من أعوان و أنصار تكفيني، كل هذه ما أغنت عني يوم الفقر الأكبر، الذي لم أحسب له حسابا.

هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ‏: فلا ماله بقي و لا ما له و قد هلكا، و لا السلطان و القدرات فما بقي لها نفع، فسلطان الطاقات، و سلطان الأعوان و الصداقات، و سلطان الجاه و المال كلها كانت قوى وهمية و واهية، انها هلكت و بقيت لي فقط سيئات الأعمال، و ليس المآل الا أمر اللّه المتعال:

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ‏: كما غل نفسه يوم الدنيا باغلال الشهوات، و استغل معطيات الحياة كلها للحيوانات‏ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ‏: أوقدوه نارا شديدة التأجج، فبوقوده تتأجج فيحرق حوامش الضلالة ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ‏: الغل الأكبر بعد الغل المسبق قبل الجحيم، و السلسلة السبعون تسلكه، و بعد ماذا؟ بعد ما يصدر من العلي الأعلى الأمر بأخذ هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة، فيبتدر لتحقيق أمر اللّه الملائكة الغلاظ الشداد و معهم من معهم من المنتدبين للتنفيذ، تدور السلسلة حوله فتقيدة، و لو كان هناك مجال لأصبحت السلسلة ملايين الأمتار لتسابق النادبين في سلكه بالسلسلة، لكنما المغلول محدود هكذا، و أمر اللّه محدد بالسبعين، عله مقصود لحده، و عله كناية عن طوله و مده بالكثرة الكثيرة: و

«لو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها» «1»

و لماذا هذا العذاب الشديد؟

إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ‏: كأن كيانه بشرّه أصبح تأبيا عن الإيمان باللّه «كان» مستمرا معاندا دائبا لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ‏ الذي ترى عظمته في الخلق أجمع، و في ضمير هذا الصغير! و أقل جزاء له هذا العذاب الشديد.

وَ لا يَحُضُّ عَلى‏ طَعامِ الْمِسْكِينِ‏: فقد قطع حبلا من اللّه إذ لم يؤمن به،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين (5: 409) الحديث 44: عن محمد بن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع).

و في الصافي ص 511 روى نفس الحديث عن القمي عن الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 106

و حبلا من الناس إذ لم يحرض على طعام المسكين: لا خير فيه لنفسه و لا لسواه فأصبح صفر اليدين عما يفلح الإنسان يوم الدين، لا ايمان باللّه ينجيه، و لا رحمة على عبادة تغنيه، إذ تركهما إلى الاضداد، فأصبح أسيره بما قدم.

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ‏ إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً. جَزاءً وِفاقاً (78: 25) و الا شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ (10: 4) و يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ‏ (22: 19) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (27: 67) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ‏ الا ما يحمّه من عذاب أليم، فهو يستحم في الجحيم، رغم ما كان له يوم الدنيا، فحميمه ينقلب عليه عدوا: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ‏ (43: 67) و لو بقي له حميم، لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (70: 10)، فالذي كان يحم له و يستحم يوم الدنيا، سوف يبرد عليه يوم الدين، و لأن حمّه كان على غير هدى و لا تقوى، و انما على ضلال و طغوى، فيوم تبلى السرائر و تنكشف الضمائر و تستقر الحقائق، في هذا اليوم العصيب تتبدل هنا الحمّ الخاطئ إلى برودة، كأنهم لا يعرف بعضهم بعضا، اللهم إلا عداء و بغضا!.

وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ‏ و هو من الضريع الذي يضرعه و يعذبه، بدل ان يلذه و يشبعه، و الغسلين: غسالة أهل الجحيم من قيح و صديد، و هو يلائم قلبه المقلوب الخاوي من الإيمان باللّه و من الرحمة لعباد اللّه‏ لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ‏: خطأ معمدا معاندا.

[سورة الحاقة (69): الآيات 38 الى 52]

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) وَ ما لا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ (41) وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (42)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (43) وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (44) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47)

وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (50) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ. وَ ما لا تُبْصِرُونَ‏ اللّاقسم هنا عام يشمل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 107

الكائنات كلها، إذ لا تخلو مما تبصرون و ما لا تبصرون، منعطفا إلى حقيقة ناصعة في ذاتها و معطياتها: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ‏ فالقرآن بذاته شهادة على مصدره الرسالي الإلهي، دون حاجة إلى براهين منفصلة عنه تدل عليه، فاللاقسم هنا تأديب و زجر للمرتابين ان يفكروا في القرآن نفسه فيستدل كلّ بزاويته الخاصة التي تهمه، إذ القرآن معجزة خالدة في كافة جوانبه و زواياه، فليجل جال بصره و ليقصر ناظر نظره إلى القرآن نفسه هل يرى فيه شعرا أو كهانة و سحرا، إلا تنزيلا من رب العالمين، تلمس فيه ربوبيته العالمية.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ‏: قول رسول لا يقوله إلا عن مرسله دون أن يتقول عليه الأقاويل، و هو كريم ليس على غيب الوحي بضنين، هو واسع صدره متفتح قلبه، لا يخون أمانة الوحي كالسماء ذات الرجع لا تخون‏ وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ. وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (86: 12) إنه أمين كريم ليس كيانه في حياته إلا الرسالة الإلهية و بلاغها.

وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ‏ وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (36: 69) يبين بذاته أنه ذكر و ليس شعرا و خيالا موزونا، رغم ما يتقولون عليه دون برهان انه شاعر: بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ (21: 5) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (37: 36) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ‏ (52: 30) هل هو شاعر؟ وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ‏ ... إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا (26: 224) فقد ينشد الشاعر عن إيمان و صدق، و أحيانا كثيرة عن الخيال و اللاإيمان، و هما مشتركان في زخرفة المعنى بموسيقى القول، ما يزيد المعنى لمعانا لو كان صادقا، و ما يريه حقا لو كان باطلا، و حاشى الرسول الكريم أن يزخرف الوحي بما ليس منه! و لماذا؟ فهل ليزيد في نضارة القرآن، و هو فوق القمم في فصاحة التعبير و بلاغة التنسيق! ..

ثم لا نجد أيا من أوزان الشعر و أوهامه و أساطيره في هذا الذكر المبين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 108

فكيف يتقول على قائله: انه شاعر، أو عليه: انه شعر، أ هكذا كذب واضح و فرية فاضحة؟.

إن هذا القرآن ليس شعرا و لا نثرا نتعوده، إنما هو بدع في التعبير، عديم النظير، لم يصدر و لن يصدر من أي مصدر إلا اللّه، و لأنه خاتمة الوحي، فريد في موسيقاه، فريد في معناه، يوحي من كل زواياه، انه ليس بقول بشر، و لا أي مصدر غير الوحي، منهج منقطع النظير، تفرد به اللطيف الخبير، و بين كتابات الوحي أيضا، فضلا عما سواها ممن سواه!.

إن المذاهب الأدبية أجمع، و المذاهب الفكرية أجمع، و المقاييس الموسيقية أجمع، إنها كلها و معها كافة المذاهب طوال التاريخ، هي فاشلة أمام المذاهب التي سلكها القرآن، منهزمة في صراعها العنيد الشديد، يعرف بذلك أهلوها شاءوا أم أبوا، و إنما يلقون دعايات يلغون فيها و يزخرفونها، علهم يضلوا جهالا كأمثالهم، و لكنما العلماء العقلاء لا يضلون.

فليست القولة الجاهلة: إنه قول شاعر، إلا نتيجة عدم الإيمان، لا أن لهم برهانا على ما يتقولون‏ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ‏! وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ‏ يؤخذ عن الجن و الشياطين‏ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ‏ فلو كان قول كاهن لم يرد فيه شتم الشياطين الذين يؤخذ منهم في الكهانة، ثم اناقه القول و عمق المعنى يحيده من أن يكون من غير اللّه، بل قليلا ما تذكرون حقائق تعرفونها من أصولها.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ‏: تنادي بهذه الحقيقة الناصعة آياته البينات فربوبيته العالمية باهرة فيها، ظاهرة لمن يتدبرها و يتذكرها و أراد الإيمان.

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ‏: الأكاذيب ... لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ....

لا هو فحسب، بل هذه السنة الإلهية ثابتة في رسله: ان لو تقولوا لفضحهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 109

و أخزاهم- و لن يتقولوا- يخزي المتقول لكيلا يخزي الوحي و الرسالة الإلهية و يضل الناس فتكون حجة لهم على اللّه، كما لو لم يبعث رسولا بل و أقوى: فالعقل هنا يستقل بما يوحيه النقل من ضرورة الأخذ بيمين القدرة الإلهية. من يتخلف من الرسل عن الرسالة الإلهية.

بشارة توراتية بحق الرسالة المحمدية:

تصرح التوراة- فيما تصرح- من عشرات البشارات بحق الرسول الأقدس محمد (ص) هنا بوجه عام- بعد تخصيصه بالذكر- أن المتقول على اللّه يؤخذ بأخذة قوية إلهية تفضحه كما في الأصل العبراني التالي:

(17) نبي أقيم لهم: (بني إسرائيل) من أقرباء أخيهم، كموسى و أضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به (17).

(19) و أي انسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه (19).

(20) و أي نبي تجبر فقال باسمي قولا لم آمره أن يقوله أو تنبأ باسم آلهة أخرى فليمت (20).

وخي تومر بيل بابخا إخاه ندع إت هدابار أشرلوء ديبرو ادوناي أشر يدبر هنابئ بشم ادوناي و لؤيهيه هدابار ولوء يابوء هوء هدابار أشر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 110

لوء ديبرو ادوناي بدادون ديبرو هنابئ لوء تاغور ميمنو (21- 22):

فان قلت في نفسك كيف يعرف القول الذي لم يقله الرب (21) فإن تكلم النبي باسم الرب و لم يتم كلامه و لم يقع فذاك الكلام لم يتكلم به الرب بل لتجبره تكلم به النبي فلا تخافوه (22).

هذه الآيات البينات تبشر أن اللّه تعالى وعد العالم أن يقيم نبيا كموسى من أقرباء أخوة بني إسرائيل، فإخوتهم بنو عيص كما تقول التورات (تثنيه 28: 8) فأقربائهم هم بنو إسماعيل. فهو الرسول الأقدس محمد الاسماعيلي الذي هو كموسى في استقلال شرعته، لا المسيح الذي هو تبع لموسى في شرعته.

ثم تتهدد الآية (19) هؤلاء الذين يتخلفون عن هذا الرسول العظيم، ثم تعزيزا و تثبيتا لموقفه الرسالي- و معه سائر المرسلين- يحكم بالموت: الموت الروحاني و موت الدعوة، على المتجبرين المتقولين على اللّه الأقاويل (20). ثم الآية (22) تأتي بميزان لصدق مدعي النبوة انه وقوع كلامه كما يخبر «1».

و القرآن يصدق هذه الآيات أن:

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ‏ أخذنا منه الرسالة و الوحي و استرجعناه منه بيمين القدرة ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ‏: قطعا لوتين الوحي حيث لا رجعة فيه، و قطعا لوتين العقل إذ يقول ما يفضحه مما يطارده العقل، موتا مزدوجا يفضحه أمام العقلاء النابهين، فليس يعني به وتين الجسم، و هو عرق رئيسي في القلب يمد شبكة العروق في الجسم، و إنما وتين قلب الروح الممدود به شبكات الروح.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد تفصيل البحث حول الآيات في كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 111

كما الموت المهدد به حسب التورات ليس موت الجسم فانه لا يخص الكاذبين، و كثير منهم يعيشون حياة الكذب طويلا، و إنما هو موت الروح الرسالية بأن يتبين كذبه في فلتات لسانه و صفحات وجهه و سقطات تصرفاته، و في تناقض أقواله و تهافت أحواله و دحض حججه في محكمة العقل و الفطرة.

فكما ان يمين القدرة الإلهية هي التي وفقته للرسالة و عصمته عن الضلالة، كذلك هي التي تسترجعها لو تخلفت عن جهات اشراعها! و لكن حرف: لَوْ تحيل على الرسول الأقدس (ص) تقوّل الأقاويل، كما العقل يحيله إحالة مزدوجا: أن اللّه اصطفاه و هو يعلم مستقبله كما علم ماضيه، و انه يعصمه عصمة لأمانة الوحي و كرامة الرسالة، و ما استرجاع المناصب إلا نتيجة جهل الناصب و ضعفه‏ وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ‏.

فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ‏: لا يحجزه أحد عما يريد، و هو الحاجز عما نريد.

وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ‏: الذين يتقون الجهل و التجاهل و العناد، فهم المتذكرون بهذه الذكرى، و أما الذين كفروا معاندين فهي عليهم عمى!. و هم في ضلالهم يعمهون.

وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ‏: لهذه الرسالة السامية وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ‏: ان تكذيبها حسرة عليهم يوم الدنيا و يوم الدين، لأنها تملك من براهين الصدق ما لا يملكه سواها:

وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ‏: ان القرآن و نبي القرآن، إنه لحق اليقين، لا علم اليقين فحسب أو عين اليقين، فحق الوحي القرآني حق اليقين، ذاته اليقين: لا ريب فيه هدى للمتقين، فبامكان من يعيش قلبه القرآن، و يسري في وتين قلبه روح الإيمان و في نياطه القرآن، فيعيش القرآن قلبه، بامكانه أن يعرج إلى أعلى معارج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 112

اليقين: حق اليقين، فعلم القرآن كما يحق هو علم اليقين، و عينه عين اليقين، و حقه حق اليقين! عميق في الحق و عميق في اليقين كاعمق ما يمكن.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ‏: سبحه باسمه الحق عما لا يليق به‏ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها و سبح كتابه باسمه عن أن يكون شعرا أو كهانة أو أي تقوّل، فربوبيته العظيمة لائحة في طياته، بارزة في آياته، و السلام على من اتبع الهدى، و جانب الردى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 113

سورة المعارج- مكية- و آياتها أربع و أربعون‏

[سورة المعارج (70): الآيات 1 الى 18]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4)

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (6) وَ نَراهُ قَرِيباً (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (8) وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (9)

وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (12) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (14)

كَلاَّ إِنَّها لَظى‏ (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوى‏ (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (17) وَ جَمَعَ فَأَوْعى‏ (18)

(تفسير الفرقان- ج 29- م 8)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 114

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ‏ فمن هذا السائل؟

و لماذا سأل العذاب؟ و هل نزل عليه ما سأل؟

تقول كثير من روايات الفريقين إن السائل هو النضر بن الحارث الفهري‏ «1»:

«انه لما شاع قصة الغدير في البلاد أتى ابن الفهري رسول اللّه (ص) فقال:

يا محمد! أمرتنا عن اللّه بشهادة ان لا إله إلا اللّه و ان محمدا رسول اللّه (ص) و بالصلاة و الصوم و الحج و الزكاة فقبلنا منك، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا و قلت: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فهذا شي‏ء منك أم من اللّه؟ فقال رسول اللّه (ص) و الذي لا إله إلا هو ان هذا من اللّه، فولى ابن الفهري يريد راحلته و هو يقول: اللهم ان كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل الى راحلته حتى رماه اللّه بحجر فسقط على هامته و خرج من دبره فقتله. و حينئذ نزلت الآية سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ‏ [ (و في شرح الأخبار) نزلت: أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ‏ «2»].

أقول: مكية السورتين قد تنافي الروايتين اللهم الا ان تكونا نازلتين بعد الغدير مسجلتين في سورتيهما النازلتين قبل الغدير و كم له من نظير!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور (3: 181): أخرجه ابن جرير و ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، و ابن جرير عن عطاء، و في: (6: 263) اخرج الفرياني و عبد بن حميد و النسائي و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن عباس و ابن المنذر عن زيد بن اسلم و ابن جريح، و ابن أبي حاتم عن السدي، و في بعض الروايات انه الحارث بن علقمة، و في بعض:

نعمان بن الحارث.

(2) ذكره ابو عبيد و الثعلبي و النقاش و سفيان بن عيينة و الرازي و القزويني و النيسابوري من إخواننا، في تفاسيرهم، و أصحابنا كذلك اجمع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 115

و القرآن يذكر السائل هنا و السائلين: وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ. وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (8: 32) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (38: 16) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ‏ (26: 204).

و قد يكون السائل في المعارج غير السائلين في سواها كيانا و سببا، و قد يكون منهم، و لكنه عجل قطّه: نصيبه بسؤاله، قبل يوم الحساب، و الباقون أجلوا ليوم الحساب، عله لكون الرسول أمانا ما دام فيهم أو يستغفرون، أو لأنهم استغفروا، و انما أصيب واحد منهم ذكرى لهم لعلهم يحذرون.

و على السؤال لم يكن ليختص بهامة الغدير، فقبلها هامات أتم و أعم، كالأصول الإسلامية التي كانوا ينكرونها، إذا فالروايات المفسرة لها بقصة الغدير هي من باب الجري و التطبيق، أو أنها من ضمن ما سألوا له العذاب، كما تظافرت به الروايات.

ثم السائل هنا- الذي أبهم عن اسمه- انما سأل العذاب الواقع تحديا على الحق و على وقوع العذاب، توهينا للرسالة و المرسل، فلقد كانت الحقائق الإسلامية عسيرة الإدراك و التصديق على من عاشوا الخرافات و الأساطير و الهرطقات، و قد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة، فكانوا يتسمعونها بكل دهشة و استغراب، و ينكرونها أشد الإنكار، متحدين الرسول بألوان التحديات و لو تعرضوا للخطر، كهذا السائل الغبي!:

سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ‏: إنه سأل ما لم يكن بحاجة الى سئوال لأنه واقع للكافرين و السائل منهم.

بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ‏: واقع للكافرين ليس له دافع من اللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 116

للكافرين فقط ليس له دافع، و اما غيرهم فلهم دوافع عنه من توبة و غفران و شفاعة و اضرابها من دوافع العذاب.

مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ‏: سأل من اللّه، بعذاب من اللّه، ليس له دافع من اللّه‏ ذِي الْمَعارِجِ‏ الذي له معارج الرحمة و معارج العذاب، يعرج خلقه في أيّ منهما يوم الدنيا و يوم الدين، و لكنما الأغبر الغبي يسأل العذاب، لأنه في تباب، و ذاته تباب، و كيانه عذاب.

و ان حق المعارج للّه هو معارج الرحمة و معارج الحساب:

تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ:

فما هذا اليوم؟ هل هو يوم القيامة؟ فلا نهاية له! أم هو يوم من أيامها؟ فما هي تلكم الأيام؟ أم من أيام الدنيا، فهذا خرق لنظام الكون! و لا تعرج الملائكة و الروح عن مناصبهم الى اللّه و الدنيا قائمة، و انما ذلك ليوم الدين إذ تقطعت الأسباب و قضي الأمر و رجعت الكائنات كلها الى اللّه كما بدأت.

ان اليوم حسب القرآن- و في وجهة عامة- يعنى منه مطلق الزمان، من واحد الزمان كما نعرف و فوق ما نعرف، و من مجموعة الزمان، و بينهما متوسطات.

فمن واحد الزمان إلهيّا ما فيه شأن الخلق من اللّه العلي القدير: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (55: 29) يعنى كل آن ليس فوقه آن، فان الشأن الإلهي لا يخلو منه أقل آن، فلا بد أن يعنى هنا بالآن أقل الآنات في حساب اللّه.

و منه اليوم النهار مقابل الليل: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ‏ (69: 8) فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى‏ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (2: 185).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 117

و منه اليوم: بليلة و نهارة: فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ‏ (11: 65).

و منه يوم خلق السماوات و الأرض: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ .. (9: 36) .. و هو مجموعة زمان خلقهما، و قد عدت في آيات ستة أيام: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (7: 54).

منها يومان لخلق الأرض، و يومان للسماوات السبع، و يومان علهما: لخلق الدخان السماوي و خلق الأنجم في السماء الدنيا، أم ماذا؟ سوف نوافي بحثه في الآيات من فصلت و ان المعني من اليوم هنا الدور.

و من اليوم ألف سنة مما تعدون: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (32: 5) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ‏ (22: 47).

و منه خمسون ألف سنة مما تعدون، فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا لنرى ما هو واحد الزمان الربوبي و ما هو الألف و الخمسون الف؟

أقول: انه ليس اليوم الألف و لا اليوم الخمسين الف هو الزمان المنطبق على الحدين، و إلا كان حق التعبير في الف سنة و في خمسين الف سنة و اليوم زائد، و لكان‏ عِنْدَ رَبِّكَ‏ زائدا، لأن الزمن اليوم: الالف و الخمسين الف لا يخصه.

إذا فليكن المعني من اليوم واحد الزمان بحساب سرعة السير الملائكي في آية المعارج، و سرعة نفاذ التدبير الإلهي نازلا من السماء و راجعا إليها في آيتي الحج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 118

و السجدة، و على سير المعراج للنبي الأقدس هو كسير المعارج و على حد

قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «انه أسري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى مسيرة شهر، و عرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين الف عام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى الى ساق العرش‏ «1»»

و هذه المسيرة هي في واحد الزمان، لا في ثلث الليل.

فهل إن واحد الزمان في سير المعارج ثانية في حسابنا المألوف؟ أم 000، 50/ 1 منها في حساب أدق و هو الزمن الالكتروني‏ «2» 000، 50 ضعف الزمن الأرضي؟ أم أقل منها في دقة ثانية: ان نحسب كل دورة الكترونية سنة ثم نقسمها بحساب الثواني‏ «3»، أم و أقل منها أيضا لأن الزمن في حساب اللّه يختلف عما عندنا.

ثم الخمسين الف هل هو حساب السنين الضوئية؟ التي هي- على أقل التقدير- 180 مليون ضعفا بقياس السير العادي؟ أم فوق الضوئية و على حساب أكثر السرعة في سيرنا المتصور المقدر؟.

ثم المسافة الى العرش، الى السدرة المنتهى، ليست مسيرة يوم هكذا، انما هذا قياس السرعة الملائكي و في معراج الرسول (ص) في واحد الزمن الربوبي،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 413 في كتاب الاحتجاج للطبرسي روى عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين (ع) ان امير المؤمنين قال- و قد ذكر النبي (ص)-:

(2) لان الالكترون يدور حول شمسه البروتوني في الذرة 000، 50 مرة في الثانية الارضية.

(3) إذ ان كل دورة الكترونية و هي 000، 50 ثانية ارضية، تعتبر سنة الكترونية، إذا نقتسم هذه السنة كذلك الى الثواني، فكل ثانية منها نعتبرها واحد الزمن الربوبي في سير المعارج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 119

و الرسول اجتازها في أقل من ثلث الليل- أربع ساعات- و هل تعرجها الملائكة و الروح في نفس الوقت أم أكثر؟ لا ندري! و حسب الحساب الدقيق الذي نعرفه حتى الآن تصبح المسافة المجتازة في المعارج، في واحد الزمن الربوبي- كالتالي:

000، 50- الثانية الالكترونيةx 000، 000، 000، 000، 200، 43 بتحويل الثانية الالكترونية بحساب 000، 50/ 1 منها: سنة، الى 000، 50 ضعفا ثم بحساب سرعة الضوء تضرب في 000، 300 و النتيجة:

000، 000، 000، 000، 000، 000، 000، 800، 64 هذا المقدار هو السير المعارجي في واحد الزمان الربوبي كما نعرفه، و لكنه بحساب اللّه أكثر بكثير، لأن واحد الزمان هو واحد الحركة في المادة الأولية و ليست هي الالكترون حتى نحسبه بحسابه، ثم انه في ثلث الليل: أربع ساعات يصبح العدد المسبق مضروبا في/ 86400، فالسير المعراجي أيضا يصبح:/ 000، 000، 000، 000، 000، 000، 000، 000، 7200، 578، 5 ضعفا بالنسبة لسيرنا في 000، 50 سنة:، و الحاصل ان اليوم المعراجي و المعارجي هو واحد الزمان الذي هو من مظاهر واحد الحركة، و إذا كان سير الرسول (ص) في معراجه في واحد الزمان قدر خمسين الف سنة مما نعده، و لا سيما إذا عددناه حسب السنين الضوئية حينئذ يفلت حسابه عن عدّنا و تصورنا «1».

و أما ان هذه السرعة الهائلة تخلق حرارة هائلة تذوب و تتحول فيها العناصر الى أبسطها، ثم الى كم؟ لا ندري، فكيف عرج الرسول هكذا سليما و رجع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من قوله تعالى: تعرج، نستوحي أن هذا السير انما هو بحساب سرعة العروج لا زمنه، في‏ كانَ مِقْدارُهُ‏ اي مقدار السير في سرعته لا في زمنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 120

سليما؟ فالجواب. ان المعراج خارقة إلهية خرق فيها الكثير من القوانين الطبيعية العادية، كما النار أصبحت بردا و سلاما، فلتكن معجزة عدم تحول الجسد المحمدي الى غيره، كمعجزة أصل المعراج الى الأفق الأعلى قلبا و قالبا، و تكملة البحث تجدها في النجم و الإسراء إنشاء اللّه تعالى.

تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ‏ «1»: الى عرشه، و الى قمة الكون و كاهله، لا الى ذاته المقدسة، فليس له تعالى مكان! و انما الى حول العرش كما شرحناه مسبقا في الحاقة، و لأنهم قضوا ما كان عليهم يوم الدنيا، و مضوا فيما أمروا و قضي الأمر فإلى اللّه ترجع الأمور، و ليقض بينهم الحق: وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (39: 75).

الملائكة و الروح- و هو أعظم منهم و ليس منهم بقرينة قرنه بهم‏ «2»- انهم يعرجون هكذا للعرض و الحساب، و كما المكلفون أجمع يعرضون على اللّه، سواء.

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا.

الصبر: منه عليل كليل و منه عظيم جميل جليل، فالجميل منه ممدوح و العليل مقدوح، و الجميل ما يجمل صاحبه و سواه، بتحمل المكاره و الأذيات في سبيل اللّه لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمرا، كما حدث أمر اللّه الجليل لهكذا صبر جميل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ان اختلاف حساب الزمن لا يختص بالزمن الربوبي و الخلقي، فان العلم اليوم أثبت الاختلاف بين زمن الأرض و سائر العوالم السماوية، و الكتاب و السنة أثبتا اختلاف زمن الدنيا عن البرزخ و هو عن المحشر.

(2) راجع سورة القدر في ج 30- ص 382.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 121

لأهله الصالحين. فهو من عزم الأمور: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (46: 35) وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (16: 126)، صبر ابتغاء وجه اللّه: وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ‏ ... أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (13: 22) و الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (16: 42) و من هؤلاء الأئمة الدعاة الى اللّه: وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا (32: 24) فمجال الصبر هو ان يكون ابتغاء وجه اللّه و اتكالا على اللّه، و رضى برضى اللّه، و انتظارا لحكم اللّه: وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ‏ (10: 109): و كما صبر يعقوب عليه السلام إذ قال: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ (12: 18) و لكن الرسول الأقدس عليه أن يجمع في سبيل تنفيذ هذه الرسالة الخالدة، يجمع صبر أولى العزم و هممهم: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (46: 35).

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً: فهم يرون العذاب الواقع يوم الحساب، و يرون الحساب: بعيدا عن العقل و الواقع، و نراه قريبا حسب العقل و الواقع بحكم العدل، و كل آت قريب! ثم عله قريب حلوله أيضا: وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (32: 63) و كيف لا و قد جاء أشراطها؟! فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها (47: 18) فبيننا و بين الساعة أقرب مما بيننا و بين بداية الخلقة لو انها القيامة الأولى، أو من بداية خلقنا أو خلق كوننا الحاضر، لو أنها غير الاولى، فقد مضى- على اية حال- اكثر الزمن و بقي اقله، و كفاه قربا للساعة، فلئن يشك الرسول الأقدس في قربها فهو بحساب آخر: وَ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ‏ (21: 109): قربا أو بعدا بالنسبة لزمن نزول القرآن، لا قياسا الى ما قبله، و على هذا القياس: وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (42: 17).

فهنا للساعة قرب مؤكد بحساب العقل و العدل، و مؤكد بحساب الواقع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 122

قياسا إلى ما مضى، و مجهول لأنه في علم الغيب قياسا إلى ما يأتي: أبعد سنة أو آلاف أو ملايين؟ لا ندري.

و إذا كانت الساعة قريبة فهي تسلي النبي في صبره الجميل على الأذي، إذ يرى من هنا كيف يجب على مناوئيه أن يصبروا على اللظى‏ نَزَّاعَةً لِلشَّوى‏. تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى‏.

فأمره بالصبر، و قرنه بقرب الساعة، هما تثبيت لقلبه المنير على ما يلقى من عنت المناوآت، فهو ضروري لثقل العب‏ء و وعثاء السفر و بعد الطريق و غور النضال، حفظا لهذه النفوس النفيسة و جعلها متماسكة راضية، متمسكة بحبل من اللّه، موصولة بالهدف البعيد، متطلعة إلى أبعد الآفاق.

و من مشاهد هذا اليوم الرهيب العصيب في أغوار النفس و مجالي الكون أنه:

يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ. وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ‏ هذه الحرب المعلة الشعواء تجعل من السماء مهلا و من الجبال عنها، ما يبرهن على انهزام تام للكون أجمع! تحت رحمة الواقعة القارعة و الطامة الكبرى، و يومئذ يتذكر الإنسان ما سعى.

و المهل هو دردي الزيت المغلي و هو كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ‏: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (55: 37) و هو المهل بعينه، و علّ منه عكر القطران و الفضة المذابة، فالمهل- أيا كان- لا يمهل و لا يهمل و إنما يغلى و يغلي، و هذه من الحالات المستقبلة للسماء ذات الرجع، و علّه إلى حالتها الأولى الدخانية.

و من المهل المعادن المذابة، فهل الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية الدخانية، و على حد تعبير علماء الطبيعة و الفلك؟ فترجع إلى نفس الحالة في رجعها، أم إن السماء كلها مخلوقة من غازات أولية، مهما انقلبت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 123

إلى معادن و سواها من السماويات، كما القرآن يقول، فتنقلب إلى ما كانت و في أوساط الطريق إلى المهل؟: دردي الزيت؟ فهذا أتم و أعم، و لم ينظر العلم إلا إلى زاوية منه محدودة.

و العهن هو الصوف المصبوغ و عله هنا صبغتان: صبغة أولى هي من الجبال أنفسها فإنها ألوان: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ (35: 27) و ثانية هي من أثر الدكة الواقعة التي تحمرّ منها عين السماء و كلها عين! ثم هذا العهن ينفش: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ‏.

فيوم السماء و المهل و الجبال العهن، سوف يصبح الإنسان عهنا و مهلا، سواء.

وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً: سواء كان له حميم كالأخلاء المؤمنين، أولم يكن:

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (69: 35) كغير المتقين- الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ‏ فلقد زال التساؤل بين الأحمة و سواهم، كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ‏ و لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (80: 37) فكيف يسأل حميم حميما و لماذا؟ و السائل و المسؤول كلّ في شأنه الشائن أم سواه! و سواء أ كانت حمّة القرابة أو الصداقة أم أيا كان، أجل! و لأنهم كلهم في همّ شاغل، فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج و تعطلت الأسباب و رجعت الأمور إلى اللّه لا تتعداه إلى سواه‏ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (44: 41) فلا هناك تساءل استخبار عن أحوال، و لا شفاعة و لا أيا كان من أي و لأي صالحا أم طالحا إلا من أذن اللّه أن يشفع أو يشفّع له دون سؤال.

يُبَصَّرُونَهُمْ‏: يعرّفونهم فيعرفونهم تماما، فعدم التساءل من عدم المعرفة لوقعة الطامة، و لكنهم يعرفونهم بعد ما جهلوهم، و لكنما المتقون سوف يتساءلون و اما المجرمون:

يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 124

فهذه المعرفة في يومهم العصيب لا تغنيهم إلا أملا ليس بواقع، يأمل الكل على تحسر: لو يفتدي و يستبدل من عذاب يومئذ بمن يملك أمره و من لا يملكه، لو يفتدي بأعز الناس عليه، ممن كان يفتديهم بنفسه يوم الدنيا، فهو يبتدئ في زعم الافتداء من بنيه الى صاحبته و أخيه، و هم الأحمّة الأقارب، ثم الى فصيلته: أمه التي فصل عنها و فصلت هي عنه و هي مع ذلك تؤويه، ثم الى جماعة فصيلة عنه تؤويه عن مهالكه، مما يجعلهم كالأحمة، ثم يبلغ به هذا الأمل المحال الى الافتداء بغير الأحمة و الفصائل و الى من في الأرض جميعا لكي ينجيه، فلهفته على النجاة في هوله الحائل بينه و بين عقله، انها تفقده الشعور، صورة للهفة الطاغية و الفزع المذهل تجننه و تخبطه لهذا الحد: ان لو يفتدي بمن في الأرض جميعا، مما يصور لنا ثقل العذاب الهائل الذي يفقد الشعور عن أهله أو يضطرهم الى هذه الآمال المجنونة الفوضى!.

كلا! ليس هنا دافع من عذابه و لا فدية مالية: فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ (3: 91) و لا فدية نفسية و لا ما في الأرض جميعا من نفس و نفيس: وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ (13: 19) و لو كان لهم ما تقبل منهم: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5: 36) و ليست الفدية المنفية تختص بالذين كفروا:

فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (57: 15)، و لأن الفدية من الرشوة و ليس في حكم اللّه رشوة، و أنها ظلم بحق المفتدى به، و سماح عمن يستحق العذاب و كلاهما خارجان عن نجد الصواب.

كَلَّا إِنَّها لَظى‏، نَزَّاعَةً لِلشَّوى‏، تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى، وَ جَمَعَ فَأَوْعى‏:

كَلَّا! ليست جهنم مما تقبل الفدية، إِنَّها لَظى‏: لهب خالص يتوقد و يلهب عن كفر خالص، من وقودها الكفار الذين يصلونها موقدين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 125

نَزَّاعَةً لِلشَّوى‏ تقتلع بشدة و اعتماد، للشوى: جلدة الرأس و الكوارع و الأطراف ما عدا المقتل لكيلا يقتل، فهي تنزع ما شوته و أحرقته ثم ترجع هي جلودا غيرها، فهي هي و هي غيرها باختلاف الصورة و المادة: كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ (4: 56).

و لأنها لظى: لهب خالص متوقد من أنفسهم الجهنمية، لذلك ليست لتقبل بدلا و فدية، و انما تدعو و قودها لا سواه، فهل يا ترى ان النار تدعو وقود غيرها؟ كذلكم هؤلاء الذين هم حطب جهنم و وقودها لا تدعو نارها إلا إياهم و لا ترضى بسواهم، اصطحاب العلة و المعلول!.

تَدْعُوا: تجذب الى نفسها دون رادع‏ مَنْ أَدْبَرَ عن الحق‏ وَ تَوَلَّى‏ دعوة لإيقادها وصليها: فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى. لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى، الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (92: 16) وَ جَمَعَ فَأَوْعى‏ جمع المال للإيعاء دون فائدة شخصية و لا جماعية، و دون تفهّم و وعي لعوائدها، و انما ايعاء للأموال كأنها هي الغاية، تبديلا للوسيلة الى الغاية، ثم تجميدا للغاية، و توقيفا لرحى الإقتصاد و الحركة العمالية و التجارية، فهؤلاء خطر على البشرية مادية و معنوية، و هم وقود لنيران الضلالات و الفشل و البتل الاقتصادي، فلذلك لا تقبل منهم فدية، و انما يدعون الى ما كانوا جزاء وفاقا.

فمن الناس من يقبل الى الحق بكلا جزئية: نفسانيا و جسدانيا، و منهم من يقبل بجزء و يدبر بالآخر، و منهم من يدبر بجسمه و يتولى بروحه عن الحق و هو مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى‏ فالإدبار عمل الجسم، فكيانه المادي تأخير و تأخر عن الحياة المادية لإيعائه الثروات، و التولي عمل القلب إذ يعرض به عن الحق، فهو بقلبه و قالبه معرض عن اللّه الى اللهو، فهو أشر الخليقة، يصلى النار الكبرى و هو وقودها و هي زبانيته!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 126

[سورة المعارج (70): الآيات 19 الى 35]

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (23)

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (25) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28)

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (29) إِلاَّ عَلى‏ أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغى‏ وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (31) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (32) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (33)

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (34) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً جزوعا حريصا جبانا ضعيفا لا يصبر:

و خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً (4: 28) و خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ‏ (5: 57): مني يعجل حين صدورها، فيعجل المخلوق من هذا العجل في صدوره و وروده، فهل ان كونه هلوعا صفة ذم؟ و كيف يخلق اللّه مذموما ثم يذمه كأنه من خلق الإنسان! و قد أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ‏! (32: 7)؟!.

نقول: إن هلع الإنسان فيه جهتان: خير كما في تكوينه، و شر إذا عامله الإنسان بغير وجهه، فالصالحون يهلعون الى الصلاح و الإصلاح كما المصلون حسب الأوصاف المسرودة في هذه الآيات، و الطالحون يهلعون و يهرعون الى الطالحات و يتغافلون عن الحسنات، فالصالح يتبنى الهلع المخلوق هو عليه لصالحه، يتبناه لاستكماله، و الطالح يتبناه لشقوته، فلا يرجع الذم إلا الى كيفية معاملة الإنسان في هلعه، و كما يمدح على حسن عمله في هلعه: إِلَّا الْمُصَلِّينَ ...!

مبدئيا لا بد للإنسان- في سبيله الى الاستكمال- ان يكون هلوعا: حريصا لنفسه، جزوعا بمس الشر لكي يفر منه، منوعا عن الخير لكي يجلبه إليه و يمنع من يمنعه عنه، و لكنما هلع الإنسان هذا لم يخلق إلا لصالحه و لصالح مجتمعه، دينا و دنيا و عقبى، فليصرفه الى ما صرفه اللّه اليه، فليهلع إذا مسه شر في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 127

دينه، و ليمنع من يمس من كرامته إذا مسه خير، و ليهرع مجدا مجاهدا في سبيل اللّه، و لكي يتلمع في حياته المجيدة المشرفة بلمعان الإيمان.

فالمستثنون المصلون هنا لم يستثنوا عن أصل الهلع، الذي هو من خلق اللّه‏ «1» و انما عن طيش الهلع و فساده و حريته في حيونة الحياة، و فيما إذا قيد بقيود الشرع و العقل، و اهتدى بهداية السماء، أصبح هلعه المخلوق لصالحه كاملا لامعا.

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً: هذا بيان الواقع في خلق الإنسان، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً و هذا تنديد بالهلوع كيف يصرفه و يتصرف فيه لغير وجهه‏ إِلَّا الْمُصَلِّينَ‏ و هذا تبجيل للهلوع على تصرفه الجميل ان يصرفه في سبيل الصلاح و الإصلاح.

فالإنسان بطبعه الاولي، المتحلل عن وحي السماء، الهابط الى أرض الشهوات، هذا الإنسان يصرف نعم اللّه في نقمه، و يبدل نعمة اللّه كفرا، فيحل نفسه في دار البوار إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. و لا يدفع خسره، و لا يبدل عسره الى يسره إلا التمسك بحبل من اللّه، و الرباط العقائدي و العملي بوحي اللّه، لا كلمة تقال باللسان، و لا شعائر تعبدية- فقط- تقام، انما حالة نفس و منهج حياة تعيش الإنسان ككل و يعيشها الإنسان.

فالإنسان بما خلق هلوعا، و قبل الاستضاءة بوحي السماء: إن هلعه يرجع به الى ضلال:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الا أصبح الخالق للهلوع غير الخالق لغير الهلوع، او ان الخالق الواحد خلق البعض هلوعا مذموما، و البعض الآخر غير هلوع ممدوحا، و هذه قسمة في الخلق ظالمة، و مس من كرامة العدالة الالهية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 128

إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً يتألم للذعته، و يجزع لوقعته، و يحسب انه دائم لا كاشف له، سرمدا مضروبا عليه، لا يتوقع تغييرا، و لا يرجوا من اللّه تحويرا، و لا لنفسه من أسر الشيطان تحريرا، و من ثم يأكله الجزع، و يمزقه الهلع، و لا يفكر: عله شر أصابه كردة فعل من شره هو، فليمسك شره لكي يأمن بأسه، بدل ان يجزع، أو أنه شر أصابه من الأشرار في سبيله الى ربه فليصبر إن وعد اللّه حق و لا يستخفنه الذين لا يوقنون: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ (29: 10) أو أنه امتحان من اللّه ليستكمله بما يمسه من الاتعاب، يمتحنه بها دون امتهان، فلما ذا يجزع؟ أو أنه شر أصابه من ظالمه و هو قادر على دفعه فليدفعه بما منحه اللّه من نعمة القوة، فلما ذا يجزع؟ أم لا طاقة له به فليصبر و ليحتسب عند اللّه عناءه و يطلب منه جزاءه، فلما ذا يجزع؟ و على أية حال ليس الجزع إلا من الجهل و اللاإيمان و عدم الوثوق باللّه، و اللاحساب فيما يجزع به.

وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً: يمنعه عن غيره كأنه ملكه من كدّيده، فيحتجنه و يختزنه لنفسه، و كأنه إله نفسه و رازقها، فما يصيبه من خير ليس رزقا من اللّه يمتحنه فيه، و انما من نفسه يحتجنه، و هذه هي الفكرة الخاطئة القارونية الماردة:

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ عِنْدِي (28: 78). و لنفرض انه منك و إليك، فلتكن كريما بما عندك لا تبخل فيه، لو انك أنت الذي حصلته بلياقة و لباقة! و لكنه ليس منك و لا لك، و إنما امانة سمي ملكا و أنت مستخلف فيها، لا مخول تعمل فيها ما تشاء: آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (57: 7).

فكيف لا تدرك حقيقة الرزق و دورك فيه، و لا تتطلع منه إلى خير عند ربك، خاويا قلبك من الشعور، تهرع و تهلع إلى نفسك، كأنك أنت فقط و لا مرزوق سواك؟! إِلَّا الْمُصَلِّينَ ...: فهم منقطعون عن شر الهلع الى خيره، و ليس من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 129

الاستثناء المنقطع، فإنهم أيضا ممن خلق هلوعا، أجل‏ إِلَّا الْمُصَلِّينَ‏ و لكن لا كل المصلين، فكثير منهم يهلعون كمن قبلهم من المذمومين، و انما المصلين:

الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ دائِمُونَ ... و الذين هم على صلاتهم يحافظون.

أولئك في جنات مكرمون:

إنما الصلاة تذكر- فيما يذكر هنا من الصفات المنجية- مرتين: أولا و آخرا، مرة بدوامهم عليها، و أخرى بحفاظهم عليها، رعاية لها مرتين: في كمها و كيفها، و هذه هي الصلاة التامة التي تنهى عن الفحشاء و المنكر: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ و هي التي تدفع لعامة الخيرات، و قد ذكر أهمها مع ما ذكر من ترك الفحشاء، بين البدء و الختم من ذكري الصلاة:

من الحفاظ على حق السائل و المحروم، و التصديق بيوم الدين، و الإشفاق من عذاب الرب، و الحفاظ على الفروج، و للأمانات و العهود، و القيام بالشهادات:

أركان سبعة للايمان تتوسط بين دوام الصلاة و الحفاظ عليها، فالسبعة هي الدين، و الصلاة هي عمود الدين! عمود في البداية و عمود في النهاية!.

و من نظائر هذه الآيات ما في سورة المؤمنون‏ «1»: و إليكم تعريفا بهذه الخصائل الثمان، و علها تفتح علينا أبواب الجنة الثمان:

1- «الصلوة»: الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ دائِمُونَ‏: دواما عليها لأوقاتها، لا دواما فيها فانه ليس فرضا و لا بالإمكان الدوام فيها، و انما عليها، مما يوحي بالسلطة الكاملة لهم لأداء الصلوات المفروضات في أوقاتها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون. و الذين هم عن اللغو معرضون. و الذين هم للزكاة فاعلون. و الذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون. و الذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (23: 11) (تفسير الفرقان- ج 29- م 9)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 130

وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ‏: فهم يحافظون على شرائطها و أجزاءها، على ظاهرها و باطنها، و على سائر الواجبات فيها و لها، فيقيمونها على وجهها، لا يأتونها كسالى و سكارى و لا مثقلين متثاقلين، بل خاشعين‏ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ‏.

فالصلاة هي صلات للعبد بربه، و انفصال عن المحدود من هذا الوجود الى اللامحدود من خالق الوجود، يتجرد فيها مقام الربوبية و مقام العبودية في صورة معينة معنية، و الدوام فيها هو الصلة المستمرة التي لا يقطعها كسل و لا فشل و لا بتل، فانها ليست لعبة توصل أحيانا و تقطع أخرى، و انما صفة الدوام صورة تمثل دوام العبودية و الربوبية و كما

في الحديث: لا تترك الصلاة بحال‏

و من الدوام على الصلاة إتمامها إذا شرع فيها و كما

يروى عن الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلم: خذوا من العمل ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا و كان أحب الأعمال الى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم ما دووم عليه و ان قل، و كان إذا صلى دام عليها، قال اللّه: الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ دائِمُونَ‏ «1».

2- الحق المعلوم: وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ‏: هذا الحق ليس هو الزكاة، فانها لا تختص بالسائل و المحروم، و لا انها واجبة على كل من سوى السائل و المحروم، و الآية تفرض فرض حق معلوم للسائل و المحروم على غيرهما، تعلقت بما له الزكاة أم لا، دفعها أم لا، فهذا من صفات المتقين:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ‏ ... و فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ‏ (51: 19) و كما

يروى عن الامام الصادق عليه السلام: ان اللّه تعالى فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون بأدائها و هي الزكاة، بها حقنوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 266- اخرج ابن حيان عن أبي سلمة عن عائشة عنه (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 131

دماءهم و بها سمّوا مسلمين، و لكن اللّه تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة فقال سبحانه و تعالى: وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ‏ فالحق المعلوم غير الزكاة، و هو شي‏ء يفرضه الرجل على نفسه في ماله، يجب عليه ان يفرضه على قدر طاقته و سعة ماله، فيؤدي الذي فرض على نفسه ان شاء في كل يوم و ان شاء في كل جمعة و ان شاء في كل شهر «1»».

و حَقٌّ مَعْلُومٌ‏ يوحي: انه لأهليه شاء أم لم يشأ، فليس له أن يصرفه لنفسه أو غير السائل و المحروم، و لا له أن يعتبره فرعا و في هامش النفقات، بل هو أصل كغيره من أمواله المصروفة في حاجياته الضرورية، فهما- إذا- شريكاه في أمواله، عليه أن يدفع الحق المعلوم إليهما دون منّ و لا أذى.

و عليه أيضا ان يدفع الحق المعلوم منذ حصول المال: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (6: 141) فحق المذكورات ثابت يدفع يوم حصادها، سواء أ كان زكاتا كما في النخل و بعض الزرع، أم غير الزكاة كما في غيرهما، و على حد ما يفتي الفقهاء، انه ليس فيها زكاة، فليكن الحق الواجب هنا غير الزكاة، و كما في صحيحة معاوية بن شريح في خصوص الزرع‏

عن الامام الصادق عليه السلام: «في الزرع حقان حق تؤخذ به و حق تعطيه، أما الذي تؤخذ به فالعشر و نصف العشر، و أما الذي تعطيه فقول اللّه عز و جل: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ‏

يعني من حصدك الشي‏ء بعد الشي‏ء، الضغث بعد الضغث.

و حَقٌّ مَعْلُومٌ‏: يعلمه صاحب المال و صاحب الحق، فصاحب المال يعلمه كما يقتضيه الضمير الانساني المؤمن العطوف، يقرر نصفا أو ثلثا أو ما نقص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 416 عن الكافي في الصحيح، و مثله مع اختلاف يسير في الألفاظ ما رواه القمي عنه (ع) و ما في الكافي عن الباقر (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 132

أو زاد كما يستطيع، و صاحب الحق يعلمه بما يعلم من صاحب المال أو من نفس المال أو أيا كان.

لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ‏: للسائل محروما و غير محروم، لحق السئوال، فهو موضوع الحكم في السائل لا الحرمان، و الذي بذل من ماء وجهه أكثر بكثير من الذي يأخذ! و للمحروم سائلا كان أم غير سائل، محروم عن المال و محروم عن السئوال، أو محروم عن لقمة العيش و مع السئوال، كل ذلك لحق الحرمان، أو و مع السئوال، فالسائل المحروم أسبق على أحدهما، و المحروم أسبق على السائل غير المحروم و ان تأخر هنا في الذكر، و عله رعاية للوزن: حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ‏.

و من المحروم‏ لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ‏ ... يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ (2: 173) فطالما السائل يبرز حاجته بسؤاله، فكيف تبرز حاجة المحروم غير السائل؟ فعلى صاحب المال أن يفتش صارما دقيقا رفيقا علّه يجد محروما هكذا فينفق عليه بلا منّ و لا أذى، فما دام حق المحروم في ماله معلوما، لا يحق له التأخير عمن هو محروم، طالما السائل هو يفتش عن صاحب المال، و هكذا يجب ان يكون المؤمنون الأخوة يستخبر بعضهم عن بعض، عله يجد ذا حاجة مدقعة مفقرة، لا أن يكون هلوعا، إذا مسه الخير منوعا، يفر عن مظان الحاجة و السئوال، و إذا حوصر به ينكر أنه ذو مال.

3- التصديق بيوم الدين: وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ‏: لا تصديقا عقائديا لا يظهر في الأعمال، و انما الذي تصدقه الأحوال و الأعمال، تصديق يشفقه من عذاب ربه:

4- وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ‏: و الإشفاق عناية مختلطة بخوف، إذا عدي بمن كما هنا، فمعنى الخوف فيه أظهر، عكس ما إذا عدي بفي: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ‏ فالخوف مع الرجاء، من عذاب الرب، هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 133

من لوازم التصديق بيوم الدين، و لا يأمن عذاب اللّه إلا الكافرون:

إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ‏: لا واقعا و لا شعوريا، لمن له الحساسية المرهفة، و الرقابة اليقظة، و الشعور بالتقصير في جنب اللّه، و الخوف من تقلب القلب و تفلته.

5- العفاف: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ، إِلَّا عَلى‏ أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغى‏ وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ‏:

حفظ الفروج: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ‏ (24: 30) و الحفظ للفروج، كما هنا و في «المؤمنون» فحفظ الفرج عن ان ينظر اليه أو يلمس أو يفعل به، و الحفظ له عن أن يعمل به ما يرغب منه و يترقب له، و من التوليد و ان كان دون لقاح، كأن يؤخذ من نطفته فتزرق في رحم محرّم عليه: من المحارم و من المحرمات، إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم.

فمن التعدي ألا يحفظ فرجه و لفرجه عمن وراء الأزواج و الإماء، في أي من رغبات الفرج أو ما يترقب منه إطلاقا، كأن يسمح لزرق نطفته في أرحام غيرهن سواء لذوات البعل العقيمات أم للبنات العذارى أم محارمه، فان الاستيلاد من أصول ما يرغب من الفروج، دون اختصاص بالوطئ و اللمس و النظر.

و آية التحريم أيضا تعم دلالة على التحريم: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ ... (4: 23) إذ إن المحرم منهن ليس ذواتهن، و إنما ما يرغب منهن كنساء لا كأناسيّ، إنما كنساء، من النظر و اللمس و الوطء و الاستيلاد، بأية طريقة حصلت.

لا نجد إطلاقات في الكتاب و السنة تلمح الى حلية زرق النطفة، فلا سند لتحليله، و هنا إطلاقات تمنع كما هنا و في آية التحريم، و الآيات التي تمنع عما وراء الأزواج و ما ملكت الايمان، و الصور المتصورة من زرق النطفة كالتالية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 134

1- زرقها في الأزواج بلقاح أو سواه، و لا بأس بالثاني عند الضرورة و إلا فالأحوط تركه، و يلحق بهما الولد إطلاقا و في كافة الأحكام.

2- زرقها في أرحام المحارم نسبيا أم سببيا و هو حرام قطعا سواء بلقاح أم سواه، و لا يجوز للغير زرقها في أرحام محارم اصحاب النطفة، إذ منع عن المحارم إطلاقا، و في لحوق الولد بصاحب النطفة تردد، و الأشبه عدم اللحوق للحصر المستفاد من الحديث «الولد للفراش و للعاهر الحجر» و العهر من الموانع و ليس المانع الوحيد، إذ ان الفراش هو الدافع الوحيد للحوق و لا فراش هنا.

3- زرقها في أرحام النساء الأغارب، سواء العذارى أم ذوات البعل، و ان كان البعل عقيما، و لا يلحق الولد هنا بالبعل قطعا و في لحوقه بصاحب النطفة تردد أشبهه العدم لما تقدم، إلا عند الشبهة فيلحق.

كل ذلك لإطلاق المنع عما وراء الأزواج، الشامل للاستيلاد، بل هو أهم ما يرغب من النساء كنساء، و يجوز كل شي‏ء بالنسبة لهن كبشر لا كنساء، فالممنوع معاشرتهن أو الاستفادة منهن فيما يرغب منهن كنساء و أهمه الاستيلاد.

و من المؤيدات هنا ما

عن الصادق عليه السلام قال: «ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجلا أقر نطفته في رحم يحرم عليه‏ «1»»

و الإقرار يعم اللقاح المنفصل و هو الزرق، و المحرم هو القرار الحرام سواء أ كان بفعل صاحب النطفة أم سواه.

و

عن الرسول الأقدس صلى اللّه عليه و آله و سلم قوله: «لن يعمل ابن آدم عملا أعظم عند اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة ج 7 ص 239 ب 4 محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن عثمان بن عيسى عن علي بن سالم عنه (ع) و رواه الصدوق في عقاب الأعمال عن علي بن احمد بن عبد الله عن أبيه عن جده احمد بن أبي عبد الله عن أبيه عن عثمان بن عيسى، و رواه البرقي في المحاسن مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 135

عز و جل من رجل قتل نبيا أو إماما أو هدم الكعبة التي جعلها اللّه قبلة لعباده أو أفرغ ماءه في امرأة حراما «1»».

أقول: و هذا يعد من اغتصاب الفرج:

«و قد سئل ابو جعفر الباقر عليه السلام عن رجل اغتصب امرأة فرجها، قال: يقتل محصنا كان أو غير محصن‏ «2»».

ثم الأزواج تعم الدائمات و المنقطعات و ملك اليمين عينا أو منفعة، كالامة الموهوب وطئها مع شروطها.

و هكذا يريد اللّه للجماعة المسلمة أن تكون عفيفة، تلبي دوافع الجنس دون فوضى ترفع الحياء، قائمة على أساس الأسرة الشرعية، فيها يعرف كل ولد والديه يغلق كافة أبواب الفجور و الاتصالات الجنسية الفوضى، في حين يفتح أبواب الزواج و ملك اليمين على حدودهما الشرعية.

6 و 7- الأمانة و العهد: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ‏:

أماناتهم الإلهية كالعقل و التكليف لكافة العقلاء، و علوم الشريعة لحملة الرسالات و الأمانات البشرية كالأموال المؤتمنة و الأعراض المعروضة كأمانات.

و عهدهم: الذي عاهد إليهم اللّه: أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ‏ «و الذين يعاهدون اللّه، و ما يعاهدون عليه الناس و إن كانوا كافرين، إلا إذا أخلفوا فلهم أيضا أن يخلفوا وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى‏ سَواءٍ (8: 58)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر محمد بن علي بن الحسين عنه (ص) و رواه في الخصال عن محمد بن الحسن عن سعد عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود عن غير واحد من أصحابنا عن أبي عبد الله (ع) قال: قال النبي (ص).

(2) المصدر ب 8 ج 1 محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن أبيه و عن محمد بن يحيى عن احمد بن محمد جميعا عن ابن محبوب عن أبي أيوب عن بريد العجلي قال: سئل ابو جعفر (ع) ... أقول: و الاغتصاب يوحي بان المرأة كانت ذات بعل، فالمغتصب يقتل محصنا ام غير محصن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 136

فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ (9: 7) فالمبدأ الأصيل في العهد أن يوفى به إلا أن يخلف المعهود له فيخلف عليه جزاء وفاقا.

إن رعاية الأمانات و العهود تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها اللّه على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا، فهنا و في آيات عدة يأمر اللّه الإنسان الهلوع أن لا يحمل الأمانة خائنا فيها، بل يؤديها و يراعيها.

8- القيام بالشهادات: وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ‏: قياما بالشهادات الإلهية لحملة الرسالات، التي هي شهادات إلهية، و قياما بالشهادات البشرية تلقيا و إلقاء لها، أن يتلقوا الشهادات لكي يلقوها إذا ما دعوا، و لا يقعدوا و يسكتوا عنها وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا (2: 282).

فحدود اللّه تقام بالشهادات، و التخلفات عن شريعة اللّه تعرف بالشهادات، و الحفاظ على حقوق الناس و أعراضهم و عقائدهم تعرف بالشهادات، فلا بد من قيام الشهادة للّه و القيام بها وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ‏ حتى تقام و تنفذ شريعة اللّه.

فهذه أبواب ثمان إلى جنة الرضوان، إلى حياة سليمة مسلمة يوم الدنيا و يوم الدين، بها يكافح هلع الإنسان السي‏ء، فيبدل إلى هلع صالح في تحصيل المحامد، و تبنّي الحياة الجديدة المجيدة، و لقد كرّرت فيها الصلاة دواما و حفاظا عليها، قبل السبعة و بعدها، كأنها المحافظة على هذه السبعة، و لكي لا تتبدل أبوابا جهنمية، و هذا هو الحق يقال:

الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها و إن ردت رد ما سواها

، فغير المحافظ و غير المداوم على صلاته لا تأتي منه هذه الخيرات السبع، و إن أتت فهي صور مجردة عن معانيها المعنيّة، و طالما فرّعت هذه السبعة على الصلاة، نعرف أنها من نتائج الصلاة القائمة و الدائمة المحافظ عليها: إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ دائِمُونَ‏ ... وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ‏:

أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ‏: جنات مزدوجة: نفسية و جسدانية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 137

بعضها مع بعض دون فراق، فالكرامة في الجنات جنة روحية، إضافة إلى سائر الحظوظ الروحانية، و نفس الجنات حظ جسداني.

[سورة المعارج (70): الآيات 36 الى 44]

فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (37) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (40)

عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى‏ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (44)

فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ‏ ما لهم على كفرهم باللّه و يوم الحساب و برسالتك، قبلك: عندك حافّين بك، مهطعين: شاخصين بأبصارهم إليك:

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ‏ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ‏: شخوصا بأعينهم إليك بغضا و عدوانا و كفرا و طغيانا.

عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ‏: جماعات في تفرقة إذا كانت من عزة، و على حدّ المروي عن الرسول الأقدس (ص) «1» أو: متبصرين إن كان من عزاء، أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 266 عن عبادة بن انس قال‏ دخل رسول الله (ص) المسجد فقال مالي أراكم عزين: حلقا حلق الجاهلية، قعد رجل خلف أخيه،

و

عن جابر بن سمرة قال: دخل علينا رسول الله (ص) المسجد و نحن حلق متفرقون فقال: مالي أراكم عزين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 138

بالأحرى: جماعات متصبرين عليك في شخوصهم إليك بأبصارهم، متفرقين في تصاميمهم السامة ضدك و لأن مبادئهم الضالة متضادة على ضلالها! و متفرقين في تجمعاتهم حسب عادة الجاهلية.

و قد يطمع كل امرئ منهم- على كفره- أن يدخل جنة نعيم، أرجاء أن لو كانت واقعا، أو استهزاء بالرسول و الذين آمنوا معه، و الهزء هنا يلمح من التنديد بنكرانهم حياة الحساب: كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ‏! أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ‏: تلمح الآية أنهم طمعوا، و لكونهم كافرين نلمح انه طمع استهزاء، و قد ورد انهم كانوا يقولون: إن كان الأمر على ما قال محمد فان لنا في الآخرة عند الله أفضل مما للمؤمنين كما أعطانا في الدنيا أفضل مما أعطاهم فلقد كان طمعا منهم هازئا، لا رجاء بإيمان و تصديق.

كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ‏: كلا: لا يدخل امرؤ منهم جنة نعيم، كلا:

و ليس كما يزعمون أن لا حياة بعد الموت و لا حساب، إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ‏:

من نطفة قذرة لم تكن شيئا مذكورا، فخلقناهم منها في أحسن تقويم، و ليس بعثهم أصعب من خلقهم أول مرة، بل هو أهون: أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (50: 15).

و

لقد قرأ النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم الآيات ثم تفل على كفه و وضع عليها إصبعه و قال: يقول اللّه: ابن آدم! أنى تعجزني؟ و قد خلقتك من مثل هذا حتى إذا سويتك و عدلتك مشيت بين بردين، و للأرض مثل وئيد، فجمعت و منعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق و أنى أوان الصدقة!» «1».

فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ‏: لا حاجة إلى القسم، و حتى برب المشارق و المغارب،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 267- اخرج البيهقي في شعب الايمان عن بشير قال: قرء رسول الله (ص) هذه الآية ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 139

فبدون أي قسم بأي برهان- لأن أقسام القرآن براهين- إن القدرة الإلهية ظاهرة باهرة على ان له تبديلكم خيرا منكم، أ فلم يبدل النطفة إنسانا في أحسن تقويم؟ فله تبديل الخير أيا كان، في الدنيا أن يذهبكم و يأتي بخلق جديد:

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (35: 16) أو خيرا منهم في حياة الحساب، بتبديل أجسادهم هذه إلى ما هي خير منها و أخلص و أثبت و أبقى كما هو الحق في حشر الأجساد: وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (56: 61).

فله التبديل إلى خير أيا كان، إلى خير في نفسياتهم كأن يبدلهم بمؤمنين، أو خير في أجسادهم كأن يبد لهم بأمثالهم، بأجساد لهم كاجسادهم، مماثلة من جهة، و خيرا منها من جهة ثانية لكون الأجساد المعادة أخلص و أنقى فهي أبقى.

بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ‏: هنا لك مشارق و مغارب كما هنا و في الأعراف:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها (7: 137) و لكنما الاولى تعم مشارق الأرض و مغاربها، و الثانية تخص الأرض، و في الصافات المشارق فقط: رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ‏.

و هناك المشرقان و المغربان: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (55: 17) أو المشرقان فقط: حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (43: 38).

و هنالك المشرق و المغرب: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (73: 9).

فكيف التوفيق بين هذه الثلاث في مشرق الشمس و مغربها؟.

أقول: المشرق و المغرب هما الجهتان المتقابلتان بما فيهما الأخريان: الشمال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 140

و الجنوب، فبما أن شروق الشمس يكون دائما من جهة مهما تجولت فيها، و كذلك غروبها، لذلك وحد كل منهما في آيات.

و اما المشرقان و المغربان فلأسباب عدة: منها ضم الجهتين الفرعيتين الأخريين إليهما، الشمال في إحداهما و الجنوب في الأخرى، تغلبيا للأصيلتين في التعبير، و منها أن لكل نصف من كرتنا الأرضية مشرق و مغرب خاص هما المشرقان و المغربان، و منها أن لكل من الصيف و الشتاء، للشمس فيه غاية ارتفاع و غاية انخفاض هما المعنيان، و فيما إذا ذكر أحدهما كما في الزخرف: بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ‏ فالمقصود المشرق و المغرب تغليبا للمشرق، تفضيلا للشروق على الغروب.

ثم المشارق و المغارب، ففي المطلق منهما يعني- فيما يعني- المشارق لكل الشموس و النجوم الشارقة، و كذا المغارب، و فيما اختصا بالأرض فمشرق كل يوم و مغربه يدور على عدد أيام السنة، و على حدّ

المروي عن علي عليه السلام‏ لهما ثلاثمائة و ستون مشرقا و ثلاثمائة و ستون مغربا، فيومها الذي تشرق فيه لا تعود فيه من قابل» «1»،

و أكثر من ذلك، لكلّ أفق للشمس على أرضنا شروق و غروب، و بموجبه كان التكليف في أوقات الصلاة حسب أوقات الشروق و الغروب للآفاق كما

في الحديث: أنت مكلف لمشرقك و مغربك.

و مما توحيه هذه الآيات هو كروية أرضنا، و إلا لم يكن لها إلا مشرق و مغرب واحد.

فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ‏: ليس الأمر بحاجة إلى قسم، و إنما التلويح بذكرهما يوحي بعظمة الخالق وسعة قدرته، إذ يشرق الأرض و يغربها حسب تدبير زمني محسوب بالآنات أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، فهو أيضا المشرق للأبدان بأنوار الأرواح، و المغرب لها بإزهاقها- سواء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 420 في كتاب معاني الاخبار رفعه اليه (ع):

و رواه في الاحتجاج عنه (ع) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 141

إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ‏: و كما بدلنا نطفهم خيرا منها إذ جعلناها في أحسن تقويم، كذلك سوف نبدل أجسادهم البالية خيرا منها، ما يناسب الخلود، بتخليصها من بواعث الأمراض و الأعراض المؤدية إلى الموت، لحد لا يقضى على أهل النار فيموتوا، لا يُقْضى‏ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا و من خيرها أنها البدن الأصيل متحللا عن الزوائد من أبدان آخرين أو غيرها، إذ إن في إحيائها مع غير أبدانها إبطالا لإحياء الآخرين و جزائهم الجسداني، و احياء الزوائد من غير الأبدان لغو لا يفيد، لأن الهدف من إحياء الأجساد إيصال الجزاء إلى أرواحها العاملة بها، و يكفيه البدن الذي عاشه طوال حياة التكليف أو حياته كلها.

و من خيرها انها رقيقة كأنها الهواء أو أخف و الطف، و علها الطينة التي خلقت منها، و على حد

المروي عن الامام الصادق عليه السلام‏ حين «سئل عن الميت يبلى جسده؟! قال: نعم، حتى لا يبقى لحم و لا عظم إلا طينته التي خلق منها فانها تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة» «1».

و عل الآيات في خلق الأمثال يوم المعاد، ترمي إلى هذه الأبدان الروحانية الصافية البراقة، تذوق نعم اللّه في جنته، أم نقمه في ناره: وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (56: 61) نحن السابقون على القدرات لا مسبوقون على أن نبد لكم أمثالكم و هو الخلق الجديد: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ و هو مثل الخلق القديم في الصورة، لا عينها، لاستحالة اعادة المعدوم، و هو مثله في الجسم لا عينه في كله، و انما كحالة تجردية كالبدن البرزخي، و كالنور، و مصدره البدن الذي عاشه حياته أو حياة التكليف.

و كذلك الآيات في مثل الخلق الجديد انه كالبدء: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نبدل تطلب مفعولين ثانيهما مذكور و هو أمثالكم فالأول هو «كم» و هو الخلق الجديد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 142

(7: 29) كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (21: 104) و لقد بدأنا بالنطفة فليعدنا بنفس النطفة التي خلقنا منها أول مرة، ثم لا حاجة إلى الزوائد يوم المعاد، فانها بين ما لا تنفع، و ما تضر، و سوف نفصل البحث عن كيفية الحشر معمقا في مناسبتها الأخرى.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ‏: فإذ لا تنفع هؤلاء المناكيد الأوغاد، أيّة حجة و ذكرى، فذرهم على ما هم فيه خائضون من نكران الحق و الهزؤ به، و ذرهم يلعبوا بمغريات الحياة الدنيا، حتى يلاقوا اليوم الموعود، البادئ بما بعد الموت يوم البرزخ، ثم إلى يوم الحشر، و يعتبران يوما واحدا اعتبارا بانقضاء التكليف و ابتداء الجزاء بالموت‏ «1».

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى‏ نُصُبٍ يُوفِضُونَ‏: هنا يختص يوم القيامة بالذكر من يومي الجزاء، لأنه الأصل و البرزخ كتهيئة.

في هذا اليوم يخرجون بأجسادهم من أجداثهم: قبورهم، مسرعين، كأنهم يسرعون إلى نصب منصوبة أعلاما لمن لا يعرف الطريق.

خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ‏: خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (54: 7) خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ (42: 45) و من الرهبة إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ (79: 9) فأبصار العيون و القلوب تخشع واجفة، تَرْهَقُهُمْ‏: تشملهم بقهر ذِلَّةٌ و تغشاهم، ذلِكَ‏ اليوم العصيب الرهيب‏ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا طوال الرسالات و طول حياتهم‏ يُوعَدُونَ‏ عنه و هم ناكرون، و قد كانوا يرتابون فيه و يكذبون به و يستعجلون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لا يعنى هنا خصوص الحشر إذ لا يعقل استمرارية الخوض و اللعب اليه، حيث الدنيا بما فيها تنقطع بالموت و به تقوم القيامة الصغرى، و «حتى» تفيد استمرارية الخوض و اللعب- تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 143

سورة نوح- مكية- و آياته ثمان و عشرون‏

[سورة نوح (71): الآيات 1 الى 28]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (1) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَ نَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً (6) وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (9)

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (11) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (12) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (13) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (14)

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (15) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (16) وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (18) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (19)

لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً (20) قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً (21) وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً (23) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (24)

مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (25) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً (28)

\*\*\*

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 145

اولى الرسالات الفذة الإلهية يحملها أول الخمسة من اولي العزم من الرسل، نوح عليه السلام، و قد ذكر بدعواته و ما لاقاه بسببها من قومه 43 مرة في القرآن، منها مدى دعوته: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (29: 14). و هو اللبث الرسالي لذكره هنا بعد الرسالة، و قومه هم بنو الجن و الإنسان كافة «1» كما في اولي العزم كافة، و لذلك حق له ان يدعو على من على الأرض من الكافرين: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً فلو لم تشملهم دعوته لم يحق له هكذا دعاء شامل، و من لطيف الأمر في دعوته الاليفة الرحيمة طوال قرونه العشرة ان القرآن يعتبره أخاهم: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (26: 106) فانها اخوة لهم فيما سوى الايمان: ان نشأ في البيئة التي نشأوا فيها فلم يتأثر بضلالها، و عاشرهم و دعاهم إلى اللّه كأخ رحيم، إلى ان تأكد بالوحي ان لا خير فيهم و في أنسالهم، فانما هم شر خالص:

إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً فقد صبر على اذاهم المتواصل طول الدعوة علّهم يؤمنون، فهل يصبر إذا انقطع الأمل و تفاقم العناد منهم في ضلالهم ضد الدعوة و المؤمنين بها، إنه صبر على الظلم و الضيم و على انتقاض شريعة اللّه و انتقاص دعوته، و لا يرضاه العقل و العدل!

الشريعة الأولى‏

هل إن شريعة نوح عليه السلام هي الاولى فلم تكن قبله شريعة من الدين مع أي من النبيين؟ ام كان الوحي إليهم يحمل تقوية الأحكام العقلية دون أن يحمل احكاما شرعية؟ ام لم يكن قبل نوح أنبياء؟ لا سبيل إلى الأخير و الأولان هما الأوليان.

فإن القرآن لا يذكر من شرائع الدين إلا خمسا محتصرة: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 421 عن الباقر (ع) فاما نوح فانه أرسل الى من في الأرض بنبوة عامة و رسالة عامة.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 10)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 146

(42: 13) إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى‏ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ... (4: 162).

و اصحاب الشرائع الخمس هم اولوا العزم من الرسل: عزم لهم في استقلال شرائعهم و ثباتها إلى شريعة أخرى تنسخها تكميلا لها:

بعثوا إلى شرق الأرض و غربها و جنها و أنسها «1»

و عزم لهم‏

في سبقهم الأنبياء إلى الإقرار بالله‏ «2»

و ثباتهم على عهد اللّه المعهود إليهم: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (20: 115) و عزم لهم في الصبر على و وعثاء السفر و اتعاب السفارة الإلهية: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (46: 35) فقد

عزموا على الصبر مع التكذيب لهم و الذي‏ «3»

فهم «الذين دارت عليهم الرحى» «4» رحى الوحي بشرائع الدين.

فهم عظماء ثابتون في عزمهم في أنفسهم و عهودهم و شرائعهم و كتبهم، و ليس منهم آدم و إدريس قطعا، فلم يحملا إذا شريعة من الدين، و انما احكاما عقلية مؤيدة بوحي النبوة، فشرائع الدين بحملتها الأصول، و دعاتها الفروع: النبيين الأتباع، إنها ابتدأت بنوح بعد ما كان الناس أمة واحدة في الضلالة، و لانقطاع دعوة النبيين عنهم، عائشين في الفترة بين إدريس و نوح، كما بين آدم و إدريس:

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (2: 213) وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ‏ (10: 19).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ج 11 بحار الأنوار ص 33 ح 25 و ح 61 عن الصادق (ع).

(2، 3) ج 11 بحار الأنوار ح 30 عن الباقر (ع).

(4) كما في أحاديث عدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 147

كانت الوحدة سائدة بين الناس قبل الرسالات، فهل يا ترى انها وحدة في الهدى دون رسالة إلهية، و لم تتحقق الوحدة الدينية مع الرسالات؟ كلا، انهم كانوا ضلّالا أجمع، لعدم شرايع الدين وقتذاك، و تحللهم عن شريعة العقل المؤيد بوحي السماء.

و مهما كانت الضلالة سائدة على البشرية قبل شرائع الدين، فانها ضلالة عن تقصير و قصور، قصور زال بشرائع الدين، و تقصير في التحلل عن شريعة العقل الوحيد، أو عقل الوحي التي حملتها غير اولى العزم من غير أصحاب الشرائع، كآدم و إدريس، يوحي بذلك ما يحمله نوح في مستهل رسالته:

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏:

فإذا لم تكن قبل نوح أية شريعة قاطعة للعذر، داعية إلى الحق، فما هو العذاب الأليم الذي يهددهم به نوح عليه السلام: أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ‏ فلولا الإنذار من نوح- ايضا- لكان يأتيهم عذاب اليم، و لكن اللّه يكمل حجته و إنذاره بأول شريعة من الدين، بعد ما ثبتت الحجة بشريعة من العقل، فشرائع العقل بالوحي و سواه، و شرائع الدين، هما متناصرتان في اثبات الحجة و مزيدها على الناكرين، و القرآن يشير إلى رسل قبل نوح: وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً (25: 37) و لو لم يكن رسل قبل نوح لما صدق تكذيبهم لجمع الرسل، و اقله اثنان أو ثلاثة، و في المروي عن الباقر عليه السلام انهم كانوا عشرة «1».

فلا تخلوا- إذا- الفترات الرسالية، من حجج بالغة، الفترة قبل شرايع الدين (بين آدم و إدريس و بينه و بين نوح) و بين شرائع الدين (كما بين المسيح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 421 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (ع): كان بين آدم و نوح عشرة آباء كلهم أنبياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 148

و محمد صلى اللّه عليه و آله و سلم) مهما كانت الحجج ابلغ و أقوى في غير الفترات الرسالية، فإنما يداقّ اللّه الناس في الحساب على قدر ما أوتوه، كما يقتضيه عدله و حكمته البالغة.

و نوح عليه السلام يحمل في مستهل الدعوة و فجر الرسالة، الدعوة إلى أصول ثلاثة هي خلاصة الأساس في الرسالات الإلهية كلها، مهما افترقت في التخطيط و التفريع و العمق و البساطة و الشكليات المناسبة لكل جيل:

قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ‏.

إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ عن عذاب اللّه في الدارين، ان تركتم هذه الأصول‏ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏: مبين لجذور الإنذار و أسبابه، مبين عملا واقعا جزاء ترك الشريعة، و مبين كذلك من هنا نتائج تطبيقها.

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ‏: فعبادة اللّه وحدها، و كأوّل الفرائض، هي منهج كامل للحياة، تشمل التعرف إلى ألوهيته و العمل لعبوديته، و انها الصلة الوحيدة العريقة بين العبد و المعبود، و ينبثق نظام الحياة عنها، و هي تشمل توحيده في سائر شئون الالوهية، و تطبيق الواجبات الشرعية تجاهه تعالى.

وَ اتَّقُوهُ‏: تقوى اللّه في عبادته فلا يعبد معه سواه، و في طاعته فلا يطع معه سواه، و في حرماته فلا تهتك، انها هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الإنسان على الثبات في عبادته، و عدم التلفت و التفلّت عنه أو الالتواء في تطبيقه.

وَ أَطِيعُونِ‏: و طاعة الرسول أولا و أخيرا هي الوسيلة الوحيدة للتعرف إلى عبادة اللّه و تقواه المقصودة الصالحة، إذ لا تعرف إلا بالوحي و لا سيما الذي يحمله اولوا العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحى.

و هكذا نجد البرامج الرسالية طوال عهودها، تحمل هذه البنود البناءة كأصول الدعوة بالإنذار و التبشير، ثم الفروع تتبناها مهما اختلفت باختلاف المصالح و البيئات، و ليبلوهم اللّه تعالى فيما آتاهم: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (5: 48).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 149

و الشرائع هي شرائع الدين و هو واحد برغم اختلافها في شكلياتها، فالدين هو الطاعة للّه الواحد القهار، مهما اختلفت صورها و سيرها: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (42: 13) أقيموا الدين الواحد في شرائعه، فالدين واحد و الامة واحدة: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ‏ (21: 92).

فهل توجد شريعة من شرائع الدين لا تتبنى- كأصول- هذه الثلاثة؟ و الشاذة عنها أو عن واحدة منها ليست شريعة إلهية أو هي محرفة.

و نتيجة هامة عامة تنجم عن اعتناق هذه الثلاثة اضافة إلى سائر نتائجها الدنيوية و الاخروية أمران:

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏.

غفر الذنوب- بعضها لا كلها- فان «من» يوحي بالتبعيض، و هذا البعض ليس إلا مما سلف في زمن الكفر: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (8: 38).

و البعض المغفور هو الحقوق الإلهية المضيعة زمن الكفر، و ذلك بشرف الإيمان، و اما البشرية الضائعة فلا تغفر بالإيمان، انما بالإصلاح و إرضاء أصحابها، مناسبة الحكم و الموضوع، فان الإيمان باللّه ليس ليضيع حقوق الناس.

و ليس من العدل و الحكمة في التشريع غفران الذنوب الآتية بسند الإيمان السابق و لو دام، فان الإيمان لزامه الدفع للصالحات، لا أن يغفر صاحبه إذا تخلف عنها إلى الطالحات، و لزام الغفران هكذا الغاء التكاليف الإلهية بسبب حصول مبدء التكليف و دافعه: الإيمان.

اجل: يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (14: 10) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 150

داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (46: 31) و فيما يوحي بالغفر العام فهو بين مخصّص بهذه الآيات، و خاص بالذنوب و هي الصغائر المكفرة بالإيمان و بترك الكبائر، و مذكور فيه بواعث الغفران فيحدد بحدودها كما توحيه:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَ أُخْرى‏ تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ‏ (61: 13).

وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى‏: و هو المحتوم الثابت الذي لا يؤخر، و قبله الأجل المعلق على بواعث و حوادث للموت، سواء من صاحب الأجل. مخيرا أم مسيرا، ام من غيره، ام من اللّه، و كل من اللّه دون منافاة لخيرة الخلق.

و التأخير عن الأجل المعلق ببواعثها إلى الأجل المسمى المحتوم قد يكون نعمة ليكسب صاحبه فيها مزيدا من الإيمان و العمل الصالح، كما هنا، جزاء الحسنى بالحسنى، و كما في آيات تترى: ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى‏ (11: 3) يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى (14: 10).

و قد يكون نقمة لا تكسب إلا إثما و عذابا مهينا: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (3: 178).

كما ان من التعجيل عن الأجل المسمى نعمة كمن يقتل في سبيل اللّه، و من يعجل في موته كيلا يفوت عنه ما حصل من صالح، و لا يكسب في المستقبل ما يخسره من طالح.

إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏: و هذا التعليل يحمل بشارة و إنذارا، بشارة لمن آمن فيؤخر إلى الأجل المسمى ليكمل، و ليس بمؤخره لولا إرادة اللّه، فان اجل اللّه لا يؤخر، لا محتومه إطلاقا، و لا معلقه إذا جاء، فلا مؤخر له إلا اللّه، و ليس هو بمؤخره رحمة إلا لمن تاب و آمن. و يحمل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 151

إنذارا لمن بقي على الكفر، فان أجله المعلق إذا جاء لا يؤخر إلى المسمى.

فهنا الأجل كلا الأجلين، و كون المعلق اجل اللّه اعتبارا بان الموت لا يتحقق إلا بإرادته مهما توفرت بواعثه، و ان الحياة لا تبقى إلا بإرادته مهما توفرت عواملها، فله التأجيل إلى الأجل المسمى فإذا جاء لا يؤخر قط، و له التعجيل عن المسمى، فإذا جاء لا يؤخر إلا باذنه، إذا فلا منافاة بين عدم تأخير اجل اللّه، و أنه يؤخره إلى المسمى.

فلا يحسبن احد ان اجله بيده، او ان له تأجيل أجله أو تعجيله، انما له تقديم دوافع الموت قبل أجله المحتوم، ثم إذا شاء اللّه أماته، و له تقديم دوافع التأجيل إلى المسمى كالايمان، و قد يشاء اللّه تأجيله ان كان لصالحه.

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً.

عرض نموذجي لما بلغه نوح من رسالات اللّه، و ما لاقاه و عاناه من قومه طوال الدعوة مع ما كان منه من صبر على ألوان الأذى طوال الف سنة إلا خمسين عاما:

وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى‏ (53: 52).

هذه الدعوة كانت متواصلة ليل نهار دون ملل و لا كلل و لا خلل، دون أن يمله عدم الاجابة، أو تكلّه مواصلة الأذى، يعرضها نوح في نهاية الأمد الطويل من دعوته و مستهل دعائه عليهم بعد الإياس من خيرهم و التأكد من شرهم و من في أصلابهم.

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً: هل لأن دعوته كانت قاسية يفر منها؟ ام لأنها كانت ناقصة لا تحمل حججا تقبلها الفطر و العقول؟ ام لأنهم هم كانوا اظلم و اطغى، و دعوة الحق لا تزيد دعاة الباطل العنيدين إلا ضلالا بما يصرون في عتوهم و نفورهم و نكيرهم للحق الصراح: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً (17: 82) إذ يخسرون فيها الدعوة و الداعي و يبدلون الرحمة عذابا و خسارا: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 152

وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (2: 10) و انما زيادته بظهوره عند ظهور الحق و وفوره عند نكيره.

إنه لا بد للدعوة الحق من زيادة، إما في الهدى، أو في الضلال، و أما ألا تؤثر لا إثباتا و لا نفيا؟ فلا! و لا بد من مواصلة الدعوة ليل نهار و اثباتا للحجة تنويرا للمهجة لكي تصبح نورا للمهتدين و نارا على المعتدين جزاء وفاقا.

إنهم كانوا يفرون عن دعائه و عن اجابة الحق، و لكن نوحا لم يكن ليذرهم يفرون إلا و يلاحقهم أينما كانوا، فما استطاعوا بالفرار بعدا عن دعائه، لذلك احتالوا حيلا أخرى ليفروا عن سماع الحق في فرارهم على قرارهم، بملاحقته إياهم:

وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً:

إصرار تلو إصرار و استكبار، إصرار الداعية على دعوة الحق في محاولة دائبة، و تحيّن الفرص لتبليغهم إياه، و إصرارهم تجاهه في ادبار و استكبار كأنهم يدعون إلى الموت! و هو يدعوهم إلى الحياة، ليغفر اللّه لهم ذنوبهم و يحييهم حياتا طيبة!.

ظلوا في محاولة عنيدة بغيضة كيلا يسمعوا نوحا و لا يروه بطريقة صبيانية حمقاء، بسد الآذان عن سماع الحق، و ستر العيون عن رؤية داعية الحق، برد الثياب، و هذا منتهى الضلال.

لقد جرّب نوح كافة الأساليب في دعوتهم علهم يهتدون، و هم قابلوه بكافة أساليب التمرد و العصيان و ظلوا معاندين.

فمن حيث الزمن: الف سنة إلا خمسين عاما، و في مواصلة دعاءهم ليل نهار، و في ملاحقتهم حالة الفرار لم يخل مجالا، و في كيفيتها: إسرارا ثم إعلانا، ثم إعلانا و إسرارا:

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً: فقد يوحي بسابق الإسرار، و هو بطبيعة الحال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 153

مستهل الدعوة: فلو ابتدأت جهارا واجهت حملة جماهيرية قاضية، فلا بد من الإسرار أولا كي تجد جوا صالحا و ركيزة تتركز عليها الدعوة في المارقين.

ثم إذا واجهت قبولا و لو قليلا، ام لم تواجه، فالإعلان، علّها تثير عطف الجماهير و تحرك فكرهم و تنير فطرهم عل فيهم من يقبل و يقبل.

ثم أخيرا لا بد من الجمع بين الإعلان و الإسرار، كلّ في مجاله المناسب و جوّه اللائق:

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً: إسرارا ليدخل شغاف القلوب و عل القابل يقبل فيلحق دون خجل من الجماهير العنيدة، و إعلانا لتعزيز كلمة الحق، و لتظهر القابليات على رؤوس الأشهاد، و لقد حملت الدعوة- فيما حملت- ترغيبهم بالحق فوعدتهم بمتطلبات الحياة الدنيا، رغم انها ليست دار جزاء، و تحريكا لعقولهم و عواطفهم و ضمائرهم، و تنديدا بهؤلاء الذين قلوبهم قلوب الشياطين فلا يعرفون أو يفهمون كلمة الحق!:

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً: لا يذهب استغفاركم هباء، لأن اللّه تعالى غفار في سنته الإلهية منذ بدء الخلق، فاستغفروه لأنه ربكم: المالك المدبر لكم، و لأنه معدن الغفران: إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً.

و من آثار غفرانه في الدنيا انه يفتح لكم بركات من السماء و الأرض:

يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (7: 96).

هذه البركات الموعودة هي مما تنتج عن الإيمان و التقوى و ليزيدوا من الصالحات و يعيشوا بركات، و لكنها ليست دائما ناتجة عن الصالحات كالتي توفر على الكفار إملاء و امهالا ليزدادوا إثما و لهم عذاب مهين، فهي إذا دركات لهم و ليست ببركات، و كما نشهدها اليوم في دولتين كبيرتين موسع عليهما في الرزق، ممكّن لهما في الأرض: أمريكا الرأسمالية المستعمرة، روسيا الشيوعية المستحمرة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 154

و الدرك الأسفل في الأولى هبوط المستوى الأخلاقي إلى اشر دركات الحيوانية، و الحياة كل الحياة قائمة فيها على اغراءات المال، و في الثانية تهدر قيمة الإنسان الروحية إلى أسفل دركات، و يسود التجسس و يعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية، و ليست هذه أو تلك حياتا انسانية، و لا تعد بركاتهم إلا دركات!: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6: 6).

و آية المدرار و الإمداد بالأمطار الغزيرة و الأموال و البنين توحي انهم كانوا في نقصان منها كلها، فمما يزيدها عليهم مجانا و دون عمل دنيوي، هو الاستغفار من الذنوب و مواصلة الطاعات، إلا أنه ليس حتما في كل الظروف و المجالات، فقد تكون هناك عوائق نجهلها، أو نحن نعملها، و إنما الاستغفار لو خلي و طبعه يستتبع بركات من السماء و الأرض كضابطة عامة تقبل الاستثناءات و لا سيما بالنسبة للأفراد، فالحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد، فما من امة قام فيها شريعة اللّه و اتجهت اتجاها حقيقيا للّه بالعمل الصالح و الاستغفار المنبئ عن خشية اللّه إلا فاضت فيها الخيرات و نزلت عليها البركات من الأرض و السماوات، و كما الآيات تحمل هكذا وعد للأمم لا للأفراد: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (5: 66) إذا فالقاعدة اممية لا فردية و إن كانت تعم الأفراد أحيانا.

و التقوى الجماهيرية بطبيعة الحال تقي جماهيرها عن التورط في دركات الحياة، و تخلق جوا سليما سالما متحللا عن التطاولات المسببة للفوضويات، و تبني صرحا عاليا لرغد الأمن و العيش لمن يتقي الحرمات و اللاأخلاقيات، مما يؤهل لنزول مزيد البركات كنموذج فعلي للجزاء، و تمام الجزاء ليوم الجزاء: وَ يا قَوْمِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 155

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى‏ قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (11: 52).

و إرسال السماء مدرارا لا يخص ماءه المدرارا المكثار، إنما بركات السماء ككل، من نور شمسها و حرارتها و رياحها و أشباهها.

و الإمداد بالأموال و البنين ليس دائما إلى خير، فمن الأموال ما لا تمدّ و إنما تمد في خسار و بوار، و من البنين من لا يمدون إلا في غي و طغيان، و منهما ما يضر دينا و دنيا، فالإمداد الموعود فيهما هو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى صالح النشأتين، و يدفع عنه تبابهما.

«فرحم اللّه امرءا استقبل توبته و استقال خطيئته و بادر منيته» «1».

و أكمل الاستغفار- على حد

تعريف أمير المؤمنين عليه السلام‏ إنه «درجة العليين و هو اسم واقع على ستة معان: أو لها الندم على ما مضى و الثاني العزم على عدم الرجوع اليه أبدا و الثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى اللّه عز و جل أملس ليس عليك تبعة و الرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها و الخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد و السادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: استغفر اللّه».

ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً. وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً: و أصل الوقار ثبوت ما يكون به الشي‏ء عظيما، من الحلم و العلم اللذين يؤمن معهما الخرق و الجهل، و من القدرة التي تؤمن عن العجز، و أشباهها التي تثقل الكائن و تخرجه عن الخفة، و بصيغة أخرى العظمة المطلقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 423 عن نهج البلاغة بعد قوله (ع) و قد جعل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق و رحمة الخلق (مستشهدا بالآية) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 156

و الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه من المسرة، و كذلك هو خوف عما يؤهل المخافة، فأنتم أنتم الأوغاد المناكيد ما لكم: تقطعون عن ربكم و حتى أمل الخير، أمل الوقار و العظمة، كمن يتأكد من ربه اللاوقار فيفر منه و ممن يدعو اليه، و إذا أنتم تعتقدون وقاره فلما ذا لا تخافونه، رغم أن وقاره و عظمته، تصميمه و حكمته، عطفه و رحمته، علمه و قدرته، و كل مظاهر ألوهيته و ربوبيته، إنها ظاهرة في خلقه لكم و للكون كله لو أنتم تشعرون، فهو الذي يجب رجاء و قاره و توقيره:

أن تخافوه لأنه الوقار كله، و الوقور يخاف لعدله و قدرته، و أن تأملوا من وقاره خيرا، فانه يؤمل فضله لرحمته، و أن تأملوا من أنفسكم له وقارا فتعبدوه و توقروه و تعزروه. فقد يعتقد الإنسان ربوبية اللّه و لا يوقره جهالة و عصيانا، و قد لا يوقره ارتيابا في ربوبيته مع احتمالها، و قد لا يرجو- أيضا- وقاره، كأنه متأكد انه ليس إلها، و هذا أحط دركات الكفر باللّه، رغم ظهور آياته في الآفاق و الأنفس!.

وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً فلكلّ من اشخاصكم أطوار، و لكم أجمع أطوار، مما تنتفي عنه الصدفة العمياء، و الخلق الفوضى:

فمنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل و إلى إنشاء الخلق الآخر «الروح» فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

و من الأطوار الجنينية نفسها أن الجنين يشبه لأول مرة حيوان الخليّة الواحدة، ثم بعد فترة يمثل شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم شكل حيوان مائي، ثم حيوان ثديي، ثم المخلوق الإنساني، و إدراك هذه الأطوار الثانية، مهما كان بعيدا عن قوم نوح، فانه قريب إلينا كما كشف عنه العلم حديثا، و القرآن كتاب كل الأزمان.

و من الأطوار الأخرى بعد الخلق هي أطوار الحياة الدنيا، من كونكم طفلا و إلى الشيخوخة ثم إلى الأجداث و قد تجمع هذه الثلاثة آية الخلق و البعث:

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 157

مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى‏ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً .. (22: 5) و منها أطوار الحالات الجسمية و النفسية و الألوان و أشباهها.

ثم الأطوار الرابعة هي الجماعية، فالقطاعات البشرية ترى مختلفة في الألسن و العادات و الأشكال و الأحوال، و ليتعارفوا: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى‏ وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ (49: 13).

فهذه الأطوار المقصودة في الخلق، الدائبة فيه، مما يجعل العقلاء الأحرار يأملون و يخافون و يرجون للّه وقارا، لأنه الخالق، و هو المدبر لا سواه، و هو الرحمان الرحيم و المنتقم، فما لكم لا ترجون للّه وقارا و قد خلقكم أطوارا؟!، و الخلق المتطور يدل على الخالق المطوّر، و التطور المتناسق اللامتفاوت دليل على وحدة المطور، فكما لا خالق سواه، كذلك لا مدبر و لا مطور إلا إياه، فليرج وقاره على اية حال.

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً. وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً.

هل الرؤية المسؤل عنها هنا هي الحسية؟ أم العلمية التجريبية؟ أم بالوحي؟

و كيفية السبع الطباق مجهولة حتى الآن! بديهي انها ليست رؤية حسية حين الخلق إذ لم يكونوا موجودين عنده:

ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ (18: 51) و لا بعد الخلق، كيف و العيون المسلحة حتى الآن لم تصل إلى عمق السماء الأولى، سماء الأنجم، فضلا عن واقع أو كيفية السبع الطباق، و فضلا عن الإنسان زمن نوح عليه السلام! و كذلك الرؤية العلمية على ضوء العلوم التجريبية لم تتحقق حتى الآن.

و أما رؤية المعرفة الدينية من طرق الوحي فهي و ان كانت حاصلة لقطاعات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 158

من البشر المعتنقة وحي السماء، و لكنها علم الواقع عن السبع الطباق بالوحي، لا كيفية خلقها، إذا فما ذا تعني الآية، لا سيما و المخاطبون- و هم الكفرة من قوم نوح- لم يكونوا ممن يعتنق وحي السماء ليعرفوا ذلك بالوحي!.

و الحل أن معرفة كيفية خلقة السبع الطباق ليست بمستطاع الإنسان أيا كان، إلا من يوحى اليه فيريه اللّه ملكوت الكون كما أراه ابراهيم‏ وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (6: 75).

فلتكن الرؤية المسؤل عنها معرفة واقع السبع لا حقيقتها و ملكوتها، و لا سبيل إليها أيضا إلا عن طريق الوحي، حيث العلم التجريبي قاصر حتى الآن عنها و حتى عن المعرفة الشاملة بالسماء الأولى، فالآية توحي انه كان هناك وحي قبل نوح، بالإمكان أن يتعرف به إلى أمثال هذه البدائع الكونية، طالما كان قوم نوح مكذبي الوحي، حين كان عليهم تصديقه، لمزيد المعرفة باللّه عبر التعرف إلى عظمة الخلقة.

أو أن الخطاب لا يخصهم، و إنما المخاطبون هم الذين يخاطبون بوحي القرآن منذ نزوله و حتى القيامة، فهؤلاء يمكنهم معرفة السبع الطباق، بتصديق الوحي أم بالمحاولات العلمية التوسعية، و ان لم يصلوا بها حتى الآن.

أو أن رؤية السماء- أية رؤية كانت- هي في الواقع رؤية السبع الطباق سواء عرفوا السبع بما تعرف، أم لم يعرفوا، فلا أقل من رؤية هذه الأجواء الواسعة ذات القناديل البراقة الكوكبية و النجومية، فليعتبروا بها، بالسبع أم الجو الممتد مدّ البصر.

فمهما كانت الرؤية قاصرة عن السبع، و لكنها ليست لتجعل واقع السبع غير واقعها، فلينبّه الناظرون- و لو بأمثال هذه الآيات- ان ما يرونه فوقهم هو السبع الطباق، و القرآن كما يخبرهم بها، يحركهم نحو معرفتها و الاستدلال بها على قدرة بادئها.

و لقصور الرؤية المتحللة عن الوحي: هنا يجعل القمر فيهن نورا و الشمس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 159

سراجا وهاجا وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (78: 13) كل ذلك رغم آلاف الأقمار و الشموس في سماء الأنجم، و علها في سواها أيضا.

فبما أن المخاطبين هنا- فعلا- هم سكنة الأرض، و ان كان معهم غيرهم، و لا نور قمريا و لا سراج شمسيا لهم في هذه السماوات، إلا هذا القمر و هذه الشمس لذلك يقول: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً، وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً أي جعلها لكم، كما جعلها لغيركم من سكنة الكرات طالما لهم أقمار النور و الشموس السراج، مما يبرهن أن الشمس الضياء و القمر النور هما في السماء الأولى: سماء الأنجم، لا فوقها: تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (25: 61).

و الشمس السراج توحي أن نور القمر مكتسب منها، و دليلا واقعيا حسيّا على أنه ليس له نور من ذاته، وصول البشر إلى سطح القمر، بينما تأكدت الاستحالة على أي المخلوقات الوصول إلى كوكب الشمس، فلولا الشمس لكنا في ليل داج دائب، فالقمر ليس سراجا، و إنما نور كما يستعمل لغرفة النوم ليلا و هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً (10: 5).

فالقمر إذا ليس سراجا و لا ضياء بذاته، إنما هو الشمس سراجنا و ضياؤن‏ا الوحيد في كل الأفلاك، مهما كان في سماء الأنجم و سواها شموس و أقمار لمن سوانا من سكنة الكرات.

وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً:

هل الإنسان من نبات الأرض؟ أجل و لأنه نبت منها كسائر النباتات مهما اختلفت كيفية الإنبات، فلنبات الإنسان من الأرض وسائل طائلة تخرجه من صدق نبات الأرض عليه فيما يطلق، فلا يصح السجود عليه لعدم صدق الأرض عليه و لا نباتها، مهما كان نابتا منها. فصدق الاستعمال و التعبير إيحاء بحقيقة كونية لا يصدق شمول اللفظة المطلقة على المستعمل فيه، و حقيقة الإنبات الظاهرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 160

من لفظه، إنما هي فيما تطلعه الأرض من نباتها، و تخرجه عند ازدراعها، و لما كان اللّه سبحانه يخرج البرية من مضائق الأحشاء إلى مسافح الهواء، و يدرجهم من الصغر إلى الكبر و ينقلهم من الهيئات و الصور، كل ذلك على وجه الأرض و من الأرض، لذلك صح التعبير عنه بكونه نباتا و ان لم يشمله على الإطلاق.

أنت تبيع أحيانا ما عندك من البقل، فأنت حقا بايع البقل، فهل أنت إذا بقال! .. انما البقال من شغله بيع البقل، و كذلك النبات- حين إطلاقه- لا يشمل كل نابت من الأرض، و إنما لقرينة خاصة كما هنا.

فهذه الآية و نظائرها توحي بالوحدة بين أصول الحياة الارضية مهما اختلفت نشئاتها و ألوانها و أشكالها و أسماؤها، و كلها من نبات الأرض.

فالإنسان الأول نابت من تراب الأرض، ثم نسله كذلك منها، من ترابها و مائها و ثمارها التي هي نتيجة التزاوج بين ما يخرج من بين الصلب و الترائب، ثم في الرحم ينمو بادواره و أطواره مما يصله من الأرض و نباتها، ثم يعيش- بعد ما يولد- على هذه الأرض بما تنبت.

و انباته نباتا دون إنباتا، خلاف ما يقتضيه بناء فعله، علّه للإشارة إلى أزواجية خلق الإنسان: من فعله تعالى: «الإنبات» و هو الأصل في خلقه، و من فعل الأرض الذي هو أيضا راجع إلى فعله: «النبات» فهو أنبتكم منها، فنبتم منها نباتا بفعلها و تفاعلها، و بما تزرعون و تأكلون فتولدون: فعل اللّه و فعل الخلق.

فالأرض الأم هي التي تلده بما تلده أمه، ثم تعيده في رحمها بعد انقضاء أجله، ثم تلده ثانية لحياة الحساب و الجزاء.

و من لطيف التناسب هنا أن السجود في الصلاة يفسر لنا عمليا هذه المراحل الثلاث، فالسجدة الأولى للّه أن أنبتنا من الأرض نباتا، نسجد شكرا له و لنشر برفع رؤسنا عن السجدة الاولى، إلى سبب الشكر: أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً ثم نسجد ثانية، إشارة إلى الإعادة ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها فالموت نعمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 161

تتطلب الشكر كما الحياة نعمه، ثم نرفع رؤسنا ثانيا اشارة إلى الحياة و الولادة الثانية و الأخيرة التي نحاسب فيها فنجازى.

وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً.

بما أن البسط هو النشر بعد القبض، و ان الجعل المتعدي لمفعولين هو جعل الشي‏ء شيئا آخر في كيفيته و صورته، فجعل الأرض بساطا يوحي انها كانت منقبضة غير منبسطة، ثم جعلها اللّه منشورة للعايشين عليها، و لا سيما إنسانها:

جَعَلَ لَكُمُ‏ فلم تكن بساطا قبلئذ، و لا صلبا، إذ كانت محترقة مذابة، و لا لها جو إذ كانت حارة محرقة، دون أن يعيش فيها مواد الحياة من الماء و اكسجين الهواء، شربا و تنفسا و إنباتا.

إنها لم تكن لتسلك فيها سبل فجاج: الطرق الواسعة، التي يهتدى بها إلى متطلبات الحياة: وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (21: 31) فالسبل الفجاج في الصحارى و بين الجبال، إنما هي من حصائل بسط الأرض و نشرها، فقد ذلت الأرض بعد شماسها لنمشي في مناكبها و نأكل من رزقه: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (67: 15) ذلولا بعد شماس، في ركوبها و سكنها و ابتغاء الرزق فيها، و بصيغة عامة: الحياة المريحة عليها، في فجاجها السبل التي ما كانت مسبلة حين شماسها.

ثم البساط- و هو النمط الذي يمد على الاستواء فيجلس عليه- إنه يوحي برياحة التنقل في الأرض كما يتنقل الإنسان على بساطه.

فيا نبات الأرض، المفضل على كل نباتها! المدلل إلى كل خيراتها و بركاتها، المستنير بقمر السماء و شمسها و مطرها، أنت كيف تسمح لنفسك أن تكفر بربك رب العالمين و لا تستطيع التحلل عن نعمه ابدا؟.

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً رب انهم- على طول الدعوة و بعد هذا العناء الطويل و التنوير الوفير، (تفسير الفرقان- ج 29- م 11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 162

و الإنذار و التبشير، بعد هذا كله- إنهم عصوني في عبادتك و تقواك و طاعتي، و اتبعوا الخاسرين المخسرين، الذين لم تزدهم نعمة المال و الأولاد إلا خسارا لسوء تصرفهم فيها، و غرورهم بها: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (14: 29).

وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً. وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا.

.. مكرا كبارا: متناهيا في الكبر، مستعملين فيه كافة أساليب التدجيل فقالوا ما قالوا .. وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ‏ أضافوا الالهة إليهم إثارة للنخوة الكاذبة و الحمية الحمقاء، كأنهم يدعون إلى إله غريب عنهم، دخيل في آلهتهم، فلينكروه حفاظا على الكرامة، و ليتمسكوا بآلهتهم إبقاء للقديم على قدمه و استدامة لعادة الآباء و الجدود، ففي تخليهم عنها و الإيمان بإله نوح، رفض لكيانهم و خروج عن كونهم حملة التراث، و أنهم أبناء آبائهم.

فإثارة الحميات و القوميات و الطائفيات و العنصريات، لها دور كبير في المتمسكين بها، المتقيدين بأسرها، المفتخرين بها، بين المتحللين عن المثل العليا الأخلاقية، المفاخرين بما لغيرهم من اللاأخلاقيات، الماشين ممشاهم على العمياء.

و النص يلمح لدرجات ثلاث بين آلهتهم، أهمها ود و سواع إذ خصصا بالعطف بعد التعميم، ثم يغوث و يعوق و نسر، المذكورة في عطف و ردف واحد، ثم بقية الآلهة الداخلة في عموم اللفظة.

طبقات في الآلهة هي معبودة طبقات‏ «1»، فالنظام الطبقي العارم بين الوثنيين كان سائدا بين آلهتهم أيضا، ظلمات بعضها فوق بعض!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير علي بن ابراهيم: كان «ود» صنما لكلب و «سواع» صنما لهذيل و كان «يغوث» صنما لمراد و كان يعوق صنما لهمدان، و كان نسر لحصين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 163

كما وحدة الإله بين الإلهيين أزالت النظام الطبقي بينهم مهما كانوا درجات:

حسب المساعي و الخلقة، فشريعة التوحيد تأمرهم بحياة تضامنية أليفة تحكمها روح التوحيد و الحنان و المحبة، كأنهم شخص واحد رغم اختلاف الأعضاء.

هذه الأصنام الخمسة- و معها غيرها- كانت تعبد زمن نوح و حتى الرسالة الإسلامية التي قضت عليها فاجتثت من جذورها، إلا التي أفلتت منها أو نبش قبرها بعد الرسالة أو بعدها، في القطاعات التي تحكمها الطواغيت.

و لقد تناصرت نعرات الجاهلية الأولى و القرن العشرين، في الحفاظ على الوثنيات و عبادة الطواغيت لكي يبقى الشيطان على كرسي الضلالة مهيمنا.

وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً حول الأصنام: أخشابا و أحجارا و اشخاصا و أفكارا، للصد عن شرعة التوحيد، بهذا المكر الكبار.

وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا ضلالا كجزاء لضلالهم، جزاء وفاقا، ضلالا في قلوبهم بما ضلوا و زاغوا: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏ و ضلالا في سعيهم:

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً و ضلالا في في الآخرة إذ يضلون سبيل الجنة إلى النار و بئس القرار، و كل هذه ردة عادلة لما ضلوا و أضلوا وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ؟.

مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً.

من خطيئاتهم تلك اغرقوا في الخسران و منه غرقهم في الطوفان و من ثم في النيران يوم البرزخ: الفترة بين الموت و القيامة.

أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً ففاء التفريع تفرع دخولهم نارا على غرقهم بخطيئاتهم و مضي الفعل «أدخلوا» يصرح بسابق دخولهم النار، فلا يعني مستقبله يوم الحشر، و انما بعد الموت دون فصل، فهذه الآية من آيات الحياة البرزخية بعذابها و ثوابها، مع العشرات الأخرى من آياتها.

و فيما إذا سئلنا كيف تجتمع النار و الماء، فهم غرقوا في الماء و أدخلوا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 164

النار؟ فهل الماء يحمل النار، لا سيما تلك النار التي لا تبقي و لا تذر فكيف لم يغل الماء؟! فالجواب: ان المعذب في البرزخ ليس الروح ببدنها الدنيوي الظاهر انما ببدنها البرزخي الذي يساور الروح، فناره أيضا برزخية غير ظاهرة، كثوابه، و لكلّ من العالم الظاهر و الباطن حكمه، و الثواب و العذاب البرزخيان، هما من الباطن بالأسباب الباطنة غير المحسوسة، و لكنها مدروسة حسب الوحي.

و شاهد علمي على ذلك أن المادة أيا كانت، إنها تحمل الطاقات الحرارية، و حسيا: الشجر الأخضر الذي تطلح منه نار فإذا أنتم منه توقدون: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (36: 80).

فهذا الشجر يحمل خشب الوقود، و ماء الإطفاء، و نار الإيقاد! رغم انحصار مفعوله في الدنيا، أ فليس الذي يقدر على ذلك بقادر على إحراق الأجساد البرزخية بالنار البرزخية الكامنة في الماء و في كل شي‏ء مع اختلاف العالمين؟.

و انما يحمل السائل المتعنت المستنكر على هكذا سئوال، جهله بالبدن المثاب و المعذب في البرزخ، و بماذا يثاب و بماذا يعذب؟ ثم تجاهله و إنكاره لهذه الشواهد الحسية و العلمية.

فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً: فمن ينصرهم من بأس اللّه بعد إذ غرقوا و احرقوا، و إذ لم يكن أنصارهم بمنجيهم عن غرق الدنيا، فكيف ينجونهم من غرق البرزخ و لا تنال منه قدراتهم؟ فأين من أضلوهم و آلهتهم؟ و لينصروهم إذ هلكوا في سبيل الصمود على طاعتهم، و معصية اللّه رب العالمين!.

ثم في آخر المطاف من دعوة نوح الطويلة- و بعد انقطاع الأمل عن إيمانهم و خيرهم، و حتى عما يخلفون من أمثالهم، و بعد التأكد انهم مضلون كما هم ضالون- هناك يدعو:

وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 165

فان صالح الإنسان في صلاحه أو صلاح نسله، فإذا فقد الجانبين إلى الإضلال فيهما، لم يبق لبقائه إلا فساد على فساد و سبحان اللّه عن هكذا إبقاء! فقد لمح الوحي إلى نوح بمستقبلهم و ذريتهم سندا لما عرف عنهم في ماضيهم:

أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (11: 36) ف «لن» تنفي ايمانهم ابدا، و لزامه أن لا يلدوا إلا فاجرا كفارا، و كما عن باقر العلوم عليه السلام‏ «1».

فقد كانت الأرض بحاجة إلى الإحياء بعد موتها، و إلى التطهير بعد قذارتها من الشر العارم الذي انتهى اليه القوم في زمنه، و لم يبق علاج في تطهيرها إلا تدميرهم، إذ إن في بقاءهم إضلال القلة القليلة ممن آمن معه، طوال ألف سنة إلا خمسين عاما.

و فيما إذا سئلنا: كيف لا يلدون إلا فاجرا كفارا، و الإنسان أيا كان لا يولد كافرا مهما كان أبواه كافرين، و إنما الكفر و الإيمان منذ التكليف لا الولادة؟

فالجواب: ان خبث النطفة اضافة إلى خبث الجو و البيئة، لا يلدان إلا فاجرا كفارا، فان الجو الفاسد الذي أوجدوه، و البيئة الضالة التي خلقوها، انهما يوحيان بالكفر من الناشئة الصغار، فلا توجد فرصة لترى الناشئة نورا، و قليل هؤلاء الذين يولدون من الظلمات و يعيشونها، ثم يخالفونها إلى النور، و قد ولد هذا القليل في هذه المدة الطائلة و لم يبق منهم أحد و في أنسالهم أيضا، فلا يعنى من ولادة الفاجر الكفار أنها منذ الولادة، إنما من حين التكليف، و إن كانت الولادة الخبيثة و الجو الخبيث لهما دورهما الفعال في الكفر و الفجور، فالولادة عن هكذا كفار، ثم ولادة ثانية تولدهم البيئة الكافرة لحد التكليف، ثم عفويا الولادة الثالثة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي بسنده عن صالح بن ميثم قال قلت لابي جعفر الباقر (ع) ما كان علم نوح حين دعا على قومه: انهم لا يلدوا الا فاجرا كفارا؟ فقال:

اما سمعت قول الله لنوح: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 166

منذ التكليف، الناتجة عن الولادتين، هذه و تلك ليست إلا ولادة الفاجر الكفار:

لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً.

حينذاك كانت مناداة نوح ربه حقا و في محله و مرضيا عند ربه: وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (37: 75) دون أن تكون مرضية للشيطان كما في مختلقات الروايات.

ثم يدعو للمؤمنين و المؤمنات مع نفسه و والديه:

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً.

دعاء على الظالمين مرتين يوسط بينهم دعاءه لنفسه و لوالديه، و لمن دخل بيته مؤمنا، لما حان حين الغرق، فهم المؤمنون الجدد حينه و عند البأس، ثم للمؤمنين و المؤمنات طول الزمن، و هذا شعور عام بآصرة القربى على مدار الزمن و اختلاف السكن دون أن يبعدهم بعد الزمان و المكان، كما الدعاء على الظالمين عام على طول الزمن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 167

سورة الجن- مكية- و آياتها ثمان و عشرون‏

[سورة الجن (72): الآيات 1 الى 28]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2) وَ أَنَّهُ تَعالى‏ جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً (3) وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4)

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (5) وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (6) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (7) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (8) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (9)

وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (10) وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (11) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (12) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى‏ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً (13) وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (14)

وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (15) وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً (17) وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (18) وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (19)

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (20) قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (22) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (23) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (24)

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً (28)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 169

هذه السورة تقرر حقيقة الجن و كيانهم و شعورهم نحو الشريعة و مشابهتهم الإنس في الأحكام إلا ما يفرقهم عنه افتراق الجنس، ثم هي تقف موقف الوسط بين الإغراق في الوهم ممن يزعمهم مسيطرين على الإنس، و بين الإغراق في الإنكار ممن ينفي حتى وجودهم، فتقرر ان لهم حقيقة موجودة، نتعرف إليها في طيات الآيات هنا و في سائر القرآن، فمن ميزاتهم خلقهم قبل الإنس: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (15: 27) و انهم محجوبون عن الإنسان مبدئيا، يرونه و لا يراهم: إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ (7: 27).

و من ميزات الإنس استقلال الرسالة الإلهية فيهم دائما دون تبعية للجن، و لكنما الجن تتبع الإنس فيها و كما ندرسه في هذه السورة.

ثم هما مشتركان في التكليف، و البعث و العقاب: قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ ... (7: 38) و أنّ فيهم الجنسين يتكاثرون بالتناسل كالإنسان: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (72: 6) أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ (17: 50) و في غير ذلك.

و هل فيهم أنبياء منهم، أم هم دوما أتباع لأنبياء الإنس؟ نتبين ذلك و كثيرا مثله في هذه السورة:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً.

فمن هؤلاء النفر؟ هل هم رسل الرسول محمد صلى اللّه عليه و آله و سلم إلى سائر الجن دون أن يوحى إليهم بشي‏ء؟ أم هم رسل اللّه اليه ليستمعوا منه وحي القرآن، دون أن يستقلوا بوحي الرسالة الاسلامية و لو تبعا للرسول، و انما اوحي إليهم ليستمعوا منه القرآن فيولوا إلى قومهم منذرين؟ قد يلمح القرآن إلى وحيهم هذا: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى‏ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏ مُصَدِّقاً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 170

لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى‏ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (46: 32).

فلا يعني صرف اللّه تعالى نفرا من الجن إلا وحيه إليهم أن ينصرفوا إلى الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلم، و لو لم يكن الوحي و الرسالة مختومين بالرسول محمد، لجاز استقلال رسل الجن بالوحي، كما قبل الإسلام تلميحا من الآية: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى‏ أَنْفُسِنا .. (6: 130) و تصريحا من آيات تكليفهم و قد خلقوا قبل الإنسان، فهل يا ترى كانوا قبلئذ مكلفين دون وحي؟ أم بالوحي إلى أشخاصهم أجمع؟ أم إلى بعضهم و هو الصحيح، و آية المعشر تعمم الرسالة الإلهية لقبيلي الجن و الإنس منذ كانوا، فليكن منهم رسل قبل الانس و مع الانس، ف «منكم» الدالة على الجنس توحي بكون الرسل في كل منهما من نفسه لا سواه، فلو كان رسل الجن هم من الانس لم يقولوا: «شهدنا» كما العكس أيضا كذلك.

ثم بلوغ الحجة الإلهية لا يتم إلا أن يبعث لكلّ رسول منهم، مهما كانت رسالته أصيلة، أم تبعا لرسالة الإنس، أم رسالة إلى سول الإنس ليأخذوا عنه كما في الرسالة المحمدية.

لذلك نجد القرآن يحتج- فيما يحتج- على منكري رسالة البشر، انها من دعائم الحجة عليهم، فلو أرسل إليهم ملائكة لاعتذروا باختلاف الجنس:

وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (6: 9) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا (17: 95) لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى‏ وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا (6: 111).

إذا فمن المؤكد ان من الجن رسلا و لا سيما قبل خلق الإنس، ثم بعده و قبل وحي القرآن عل رسالة الجن كانت تبعية لرسل الإنس كما تلمح اليه آيات الاصطفاء:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 171

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ (22: 75) و اما مع الرسالة المحمدية و حتى القيامة فوحي الرسالة منقطع و حتى عن أهل عن أهل بيت الرسالة فضلا عن الجن، اللهم إلا وحيا يحمل الانبعاث إلى الرسول محمد ليحمل عنه رسل الجن ما حملوه من وحي القرآن، فهم خلفاء الرسول في هذه الرسالة، كما

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام‏ قول جني انساب إلى منبر علي عليه السلام فتطاول و سلم عليه عليه السلام و قال: أنا عمرو بن عثمان خليفتك على الجن، قيل له عليه السلام: فيأتيك عمرو و ذاك الواجب عليه؟ قال: نعم» «1».

و اما النفر من الجن المبعوثون من اللّه إلى الرسول، فلم يكونوا أكثر من تسعة أنفار كما توحيه لغة النفر، و ان نفرهم هو انزعاجهم من الجو الطائش إلى أمان الوحي بأمر اللّه لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون كما فعلوا، و قد سماهم علي عليه السلام، و انهم كانوا من أشرافهم‏ «2» و لقد ناب على عليه السلام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 433 ح 11 عن جابر عنه (ع) و فيه عن أبي حمزة الثمالي عنه (ع): هؤلاء وفد شيعتنا من الجن جاءوا يسألوننا عن معالم دينهم (ح 12).

و

فيه عنه (ع) أولئك إخوانكم من الجن أتوا يستفتوننا في حلالهم و حرامهم كما تأتوننا و تستفتوننا في حلالكم و حرامكم (ح 15)

و كذلك (ح 16).

(2)

نور الثقلين 5: 435 ح 18 عن احتجاج الطبرسي روى موسى ابن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (ع) أن عليا (ع) قال لبعض اليهود: ان الشياطين سخرت لسليمان و هي مقيمة على كفرها، و قد سخرت لنبوة محمد الشياطين بالايمان فاقبل اليه من الجن التسعة من اشرافهم واحد من جن نصيبين و الثمان من بني عمرو بن عامر من الأحجة، منهم شضاة و مضاة و الهملكان و المرزبان و المازمان و نضاة و هاصب و هاضب و عمرو، و هم الذين يقول الله تبارك و تعالى اسمه فيهم: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ‏ و هم التسعة يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 172

الرسول في تعليمهم‏ «1».

فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً و العجب ما لا يعرف سببه، و كل ما يقرأ على الإنسان و يسمعه يعرف سببه اللفظي و المعنوي، و إذ لا يعرف سبب هذا القرآن فهو إذا خارق للعادة، و سببه غيب عن المعرفة و الاكتناه، فانه اللّه الذي لا يعرف بالذات مهما عرف بالآيات.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً:

انه: قرآن، عجب، يهدي إلى الرشد، أمور ثلاثة فيه تدفعنا إلى الإيمان به، فما كل عجيب يهدي إلى الرشد فان الشعوذة و السحر أيضا عجب مهما عرف سببه لأهله، و ما كل ما يهدي إلى الرشد عجب، ثم ليس كل هاد عجيب مما يقرأ، فهذا القرآن يجمع بين إناقة الظاهر و علاقته قرآنا يلفظ و يسمع، و بين العجب في كيانه قلبا و قالبا غير مألوف، يثير الدهشة في القلوب، ذو سلطان على المشاعر الحية، و ذو جاذبية غلابة، و بين هدايته للرشد عقليا و فطريا و أخلاقيا و علميا و ثقافيا و في كلما تتطلبه الحياة الانسانية الخالدة.

هذه الميزات للقرآن يتفرع عليها الإيمان: فَآمَنَّا بِهِ‏ إيمان بمن أنزله، و كفر بمن سواه، اللهم إلا من يدعو اليه كذريعة للايمان.

فالإيمان بالقرآن، فبمن أنزله و من انزل عليه، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن وعيا في النفس، دون حاجة إلى حجة سواه، بل هو حجة الحجج، تدل كالشمس في رايعة النهار، دلالة رائعة فائقة العادة على من أنزله و من أرسل به.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ح 17 القمي في حديث: فجاؤا الى رسول الله (ص) فأسلموا و آمنوا و علمهم رسول الله شرايع الإسلام، فأنزل على نبيه‏ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ .. السورة كلها، فحكى الله قولهم و ولى عليهم رسول الله منهم، و كانوا يعودون الى رسول الله (ص) في كل وقت، فأمر رسول الله (ص) امير المؤمنين (ع) ان يعلمهم و يفقههم، فمنهم مؤمنون و كافرون و ناصبون و يهود و نصارى و مجوس و هم ولد الجان».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 173

و اما انهم كيف اجتمعوا بالرسول لاستماع القرآن، هل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ذهب إليهم؟ أم هم انصرفوا اليه؟ آية صرفهم و حضورهم توحي بالأخير: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ‏ ... فَلَمَّا حَضَرُوهُ‏ ... فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى‏ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ‏.

و هي تلمح أيضا أن النفر هم وحدهم حضروه دون سواهم، و تقول الروايات ان الملتقى كان بحراء و لم يكن معه من الإنس أيضا أحد، ملتقى خاليا عن الأغيار «1».

وَ أَنَّهُ تَعالى‏ جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً وَ أَنَّهُ‏ ضمير الغائب هذا للشأن، و كما في الآيات التالية أيضا: وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ‏ وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ‏: استعراضات رسل الجن لقومهم بشأن الرسالة القرآنية، و ما كان منهم قبلها، و كذلك قيام عبد اللّه (أي النبي) بهذه الرسالة السامية.

جَدُّ رَبِّنا فاعل ل «تعالى»: جملة وصفية تعني: تعالى عظمة ربنا عن اتخاذ الشركاء، لا: انه «اللّه» تعالى، جد لربنا، رجوعا لضمير الغالب إلى الرب، ليعني ان اللّه تعالى هو جد لرب الجن، فربهم حفيده، و لزامه اتخاذ الصاحبة للتوليد، و اتخاذ الولد ليولد الرب الحفيد، و هم يصفونه بنفي الصاحبة و الولد! تَعالى‏ جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 430: 4 عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله ابن مسعود من كان منكم مع النبي (ص) ليلة الجن؟ فقال: ما كان منا معه احد، فقدناه ذات ليلة و نحن بمكة فقلنا اغتيل رسول الله (ص) أو استطير فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلا من نحو حراء فقلنا يا رسول الله! اين كنت؟ لقد أشفقنا عليك و قلنا بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك، فقال: انه اتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن، فذهب بنا فأرانا آثارهم و آثار نيرانهم، فأما ان يكون صحبه منا أحد فلم يصحبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 174

فهل ان رسل الجن، المبعوثين من اللّه لحمل الرسالة الاسلامية إلى قومهم، هل كانوا منحطين عقليا لهذه الدرجة، لكي يعتقدوا بأن اللّه جد لربهم، في حين ينفون عنه الصاحبة و الولد، فالجد له صاحبة و ولد و حفيد، فكيف الجمع بين هذين المتناقضين؟ و هم يحيلون الإشراك بربهم قبل هذا التقرير: وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً و اللّه يقرهم على هذه التقارير، و هم أنفسهم يسفهون جماعة منهم قالوا على للّه شططا، و من أردئه أن للّه صاحبة و ولدا: وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً فما

روي عن الصادقين عليهما الصلاة و السلام: أنه شي‏ء قاله الجن بجهالة «1»

إنه هو جهالة مفتعلة على الإمامين عليهما السلام، ممن يجهلون معاني كلام اللّه، و هنا نعرف مدى وجوب عرض الأحاديث على كتاب اللّه ليعلم الغث من السمين و الخائن من الأمين.

ثم الجدّ لغويا هو العظمة كما

في الحديث‏ كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد فينا

و هو القطع، و سمي الفيض الالهي جدا، و هو الحظ و الغنى كما

في الحديث‏ قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، و إذا أصحاب الجد محبوسون‏

و هو الجلال كما

في الحديث‏ تبارك اسمك و تعالى جدك‏

: إشعاءات عدة من هذه اللفظة الواحدة و كلها تناسب المقام.

فاللّه سبحانه متعالي العظمة عما يصغره بصاحبة و ولد، و متعالي القطع، منقطع عن مجانسة المخلوقين و قريب منهم بعلمه و قيوميته، و متعالي الغنى عما يفقره إلى الشركاء و الأنداد و الصواحب و الأولاد، و متعالي الجلال عما يذلّله بصغار، لا تبديل لجده إلى غير جد كالمخلوقين أيا كان جدهم و مهما كان فإنهم صغار و إلى صغار.

فاتخاذ الصاحبة و الولد و الشركاء ينافي علو جده، فما أحسن شعور رسل الجن باستعلاء اللّه تعالى عن اتخاذ الأنداد و الاضداد، و ما أقبح اللاشعور من مختلقي الأحاديث على الصادقين عليهما السلام أن هذه من جهالات الجن!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 435 عن القمي و الخصال عنهما (ع) ح 19، 20، 21.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 175

هنا الجن تكذب خرافة اسطورية جارفة هي أن الملائكة بنات اللّه جاءته من صهر مع الجن‏ وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً (37: 158)، و كانوا هم أحرى أن يفخروا بهذا الصهر لو كان، و لكنهم في هذه الآيات قذفوا هذه الخرافة المصدقة لتصورات المشركين ممن زعموا أن للّه صاحبة و ولدا، و كما أن سفهاء الجن كانوا يتقولون على اللّه من هذه الترهات و الشطحات.

وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً. وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً:

و القول الشطط هو المفرط في البعد عن الحق، كشط النهر حيث يبعد عن الماء بحافته، و ما أبعد شطط هذه القطاعة السفيهة من الجن عن هؤلاء الرسل منهم في استبعادهم و احالتهم الكذب على اللّه من قبيلي الانس و الجن، و هي عصمة في التفكير و العقيدة، و طهارة بالغة في القلب، و لكنها يجب أن تعدل بالوحي لكي لا يضلوا بحسن الظن، فكان لا بد لهم من وحي القرآن ليدلهم على ضلالات الانس و الجن ليجتنبوها، كما يدلهم إلى صراط الحق ليسلكوه.

و قد يقال: إنهم قبل سماع القرآن كانوا يتبعون سفهاءهم في شططهم على اللّه، لحسن ظنهم بالانس و الجن كافة، ثم اتضح لهم كفرهم فآمنوا، و لكنه يتنافى و ابتعاثهم الإلهي رسلا للجن، و ان الجن كانوا طرائق قددا وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ‏.

فهل يا ترى أن اللّه تعالى انتجب لرسالة الجن غير الصالحين المسلمين مع من فيهم من الصلحاء؟ كلا! و انهم كانوا أصلح الصلحاء منهم، على ظنهم ان لن تقول الإنس و الجن على اللّه شططا، و علهم ما كانوا ليختلطوا معهم، ثم بعد المخالطة عرفوا انهم على شطط و في مقالة الكذب، و زادهم الوحي عرفانا بالحق و الباطل.

وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً:

بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ‏ دليل أن فيهم نساء فلهم ذرية، و كانَ رِجالٌ‏ يوحي بعلمهم بسابق الرهق و التضليل في سفهاء الجن، قبل أن يسمعوا القرآن، فظنهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 176

ان لن تقول الانس و الجن على اللّه كذبا، انه يسبق هذه المعرفة، فرسل الجن هؤلاء على طهارة قلوبهم و صفاء ضمائرهم في حياتهم، لقد مضت عليهم حالات ثلاث:

1- أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

2- أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ... وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً.

3- أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى‏ آمَنَّا بِهِ‏ سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً.

فهم إذا- طول حياتهم- كانوا بريئين من الشرك و الشطط و الكذب على اللّه.

ثم إن العوذ بغير اللّه هو اشراك باللّه، و انما يستعاذ باللّه ممن سواه، و لقد كان العوذة بالجن بين الجاهلين سنة، زعم أن للجن قدرة مستقلة على النفع و الضر، فهم محكّمون في مناطق من العالم، فكان رجال من الإنس يستعيذون برجال من بأس أشرارهم و شرهم، رغم أن هذه العوذة الجاهلة الملعونة ما زادتهم إلا رهقا و اضطرابا و ضلالا و حيرة و قلقا تنوش قلوبهم المقلوبة الراكنة إلى الأعداء الضالين:

فَزادُوهُمْ رَهَقاً و هذا هو الضلال البعيد أن يستعاذ بالشرير من شره و من أشرار حزبه، و لا يستعاذ باللّه الذي خلقهم و بيده ناصية كل شي‏ء!.

فالقلب حين يلجأ إلى غير اللّه طمعا في نفع أو دفعا لضر، لا يناله إلا زيادة الضر و الرهق‏ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ‏.

هذه العوذة العارمة ترهق المستعيذ و المستعاذ به‏ فَزادُوهُمْ‏: رجال الإنس رجال الجن و بالعكس، و ضميرا الغالب يتحملان كلا الاحتمالين، فالمستعاذ به يغتر بهذه العوذة فيزداد ضلالا و إضلالا، كما المستعيذ يزداد رهقا و عذابا.

وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً:

وَ أَنَّهُمْ‏ هؤلاء الرجال الضالون من الانس‏ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ‏ أنتم الرجال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 177

من الجن، ضلال كضلال و ظنّ كظن: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً (6: 112).

أو أَنَّهُمْ‏ رجال الإنس و الجن الضالون السابقون‏ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ‏ أنتم الموجودين من القبيلين، خطابا لهما من رسل الجن، عرفه الجن بما خوطبوا و الإنس بما نزل به القرآن:

أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً: لا بعث النبوة في حياة التكليف، و لا بعث الحياة الأخرى في حياة الجزاء!! ترى كيف يجتمع الظن و «لن» و هي تحيل البعث و الظن يرجّح عدمه؟ الجواب ان «ظنوا» يحكي عن واقع ما في أنفسهم، إذ لا سبيل لليقين بعدم البعث: وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ‏ (45: 24) و «لن» تحكي عما يدعون من العلم بعدم البعث، و عما يشهد له واقع اعمالهم و تصرفاتهم كأنهم على علم مما يظنون! و إن هم لا يظنون.

هذا ظنهم دون سناد إلى شي‏ء، فكما العلم بحاجة الى سبب كذلك الظن، و هناك العقل و النقل و الفطرة تدلنا على ضرورة البعثين كما نراها في طيات آياتها.

وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً. وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً. وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً.

هنا رسل الجن يستعرضون لمسهم السماء للاستماع الى الملإ الأعلى، أنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع دون حرج و لا حظر و لا خطر، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا، فهل إن الحرس الشديد و الشهاب الرصد شي‏ء جديد؟ آيات الشهب تقول إنها كانت منذ خلقت سماء الأنجم و الشياطين الذين كانوا يسمّعون الى الملإ الأعلى! أم أنما حصل جديدا هو مل‏ء السماء حرسا شديدا أو شهبا، مهما كانوا (تفسير الفرقان- ج 29- م 12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 178

موجودين قبل ذاك دون شدة و كثرة؟ آيات الشهب لا تنفي الكثرة السابقة، بل و قد تلوح إليها!: وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ‏! إذا فهل الجديد منع الجن عن السماء بعد ما كانوا يلمسونها؟ آيات الشهب تصرح ان السماء بالملإ الأعلى كانت ممنوعة قبل ذاك أيضا! فما هو التوفيق؟

الجواب في كل الأطراف المعنية واضح وضح النهار، من الآيات أنفسها:

فآيات الشهب الثاقبة، انما تختصها بدحر الشياطين المتسمعين للملإ الأعلى، المسترقين السمع و ليس لهم، و أما الجن المؤمنون و لا سيما رسلهم الكرام فلا تمنعهم: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ. وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (37: 10) وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ. وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (15: 18) وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (67: 5).

فلا الجن المؤمنون المتسمعون للملإ الأعلى، و لا الإنس الذين لا يقدرون التسمع، لم يكونوا ممنوعين و مدحورين، و قد كان لرسل الجن هؤلاء مقاعد خاصة في السماء عند الملإ الأعلى فيها يسمعون، و كان حقا لهم بما هم رسل يستمعون الوحي ثم يولّون الى قومهم منذرين، فلما ابتعث خاتم المرسلين محمد صلى اللّه عليه و آله و سلم ملئت السماء كل السماء حرسا شديدا و من الشهب الرصد، السماء كل السماء، و في مقاعد الجن المؤمنين ايضا، و لأن الوحي ختم بعد النبي، و في وحي القرآن كفاية عما كانوا يستمعون، و زيادة عما كانوا يأملون، فكان و لا بد من ان تملأ السماء حرسا شديدا و شهبا تدحر الجن كافرين و مؤمنين.

فالذي حصل جديدا زمن النبي الجديد أن السماء ملئت حرسا شديدا، و في مقاعد الجن المؤمنين ايضا، بعد ما كانت خالية عنهم آمنة من دحرهم، و شهابا رصدا لهم يمنعهم عن التسمّع الى الملإ الأعلى منعا، دون مسّ من كرامتهم، أو عذاب لهم واصب، أو شهاب ثاقب يثقبهم كما كانت لمردة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 179

الجن الشياطين، إنما حرس شديد و شهاب رصد لصدّهم عن التسمّع الى أسرار الملإ الأعلى إذ عوّضوا عنها بوحي أعلى يصدرونه عن الرسول الخاتم محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

هنا الجن يقرّون أن الرسالة المحمدية منذ بزوغها هي التي ملأت السماء حرسا شديدا و شهبا، لا منذ ولادته صلّى اللّه عليه و آله و سلم إذ قالوا: وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ‏: قبل الآن‏ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً و الآن هو آن استماعهم للقرآن لا آن ولادة نبي القرآن.

هذا- و من الجائز كون تجنيد الحرس الشديد و الشهاب الرصد، منذ ولادة الرسول، كذلك و مل‏ء السماء و في مقاعد الجن المؤمنين دون تعرّض لهم، ثم منذ الرسالة و نزول القرآن أخذوا في تنفيذ الأوامر الباتة لدحر المتسمعين من الجن كافرين و مؤمنين سواء.

فالنيازك النارية الراصدة بحرسها الشديد، تحرق مردة الجن المسترقين للسمع دائما، و تنبه المؤمنين منهم، و لا ريب أنهم تركوا لمس السماء بعد إذ عرفوا أنهم ممنوعون، تركوه بدافع الايمان و لا سيما أنهم مرسلون، ثم سائر المؤمنين منهم مهما اخطؤوا في لمس السماء لاستماع اخبارها، فعلّهم لا يثقبون بالنيازك الشهب كما تثقب مردة الشياطين، و إنما يدحرون دحرا أو ينبهون مرة تلو الأخرى، و لكي يختص الوحي و أخبار السماء بالرسول الختم، ثم لا خبر و لا وحي بعد ارتحاله صلّى اللّه عليه و آله و سلم و الى القيامة الكبرى.

فحريّ بهؤلاء الرسل الكرام أن يحتاروا في أمرهم: وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ‏ إذ انقطع عنهم خبر السماء و وحيه، و كانوا- كرسل- يصدرونه الى أهل الأرض من الجن، أشر أريد بهم؟ فظلوا في فتور الوحي أو فترته: أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً: بما علّه يعوّضهم عنه بما فيه رشدهم و أكثر مما كان، فليس انقطاع خبر السماء رشدا لأهل الأرض إلا إذا عوّض عنها بما هو أرشد و أحرى، و كما قالوا: إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ..

فلم تكن أخبار السماء عجبا كما القرآن عجب، فقد أراد ربهم بهم فيه رشدا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 180

فما روته الرواة خلاف النص أو الظاهر من هذه الآيات نضرب بها عرض الحائط، كما

يروى‏ انه حيل بين الشياطين و بين خبر السماء «1»

، و كما اختلق على علي عليه السلام أن الشياطين ما كانوا محجوبين عن السماء و إنما حجبوا عنها لما ولد الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم‏ «2»: غلطا على غلط حيث المنع كان منذ الرسالة لا الولادة، و الممنوعون هم مؤمنوا الجن بعد ما كان لهم مقاعد للسمع، و أما كفارهم فقد منعوا منذ كانوا و كان الملأ الأعلى!، و عجيب من أصحاب الحديث كيف يسجلون هذه الأحاديث المخالفة للآيات كأنها وحي نزل، و كأن القرآن فرع بها يؤوّل، و نحن لا نذكرها إلا ردا لها على كتاب اللّه و ليذّكر أولوا الألباب!.

نكات على ضوء هذه الآيات:

1- هناك في السماء ملأ أعلى هم أعلى محتدا و منزلة، من سواهم من الخليقة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

رواه الواحدي باسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول اللّه (ص) على الجن و ما رآهم، انطلق رسول اللّه في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ و قد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا و بين خبر السماء و أرسلت علينا الشهب، قالوا: و ما ذاك الا من شي‏ء حدث فاضربوا مشارق الأرض و مغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي و هو بنخل عامدين الى سوق عكاظ و هو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن استمعوا و قالوا: هذا الذي حال بيننا و بين خبر السماء فرجعوا الى قومهم و قالوا: انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به و لن نشرك بربنا أحدا، فأوحى اللّه الى نبيه (ص) قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ‏ و رواه البخاري و مسلم ايضا في الصحيح.

أقول مهما رويت هذه الرواية في الصحيح و سواه فهي غلط إذ تنافي نصوص القرآن- تأمل.

(2)

نور الثقلين 5: 436 ح 24 عن احتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع): «و لقد رأيت الملائكة ليلة ولد تصعد و تنزل و تسبح و تقدس و تضطرب النجوم و تتساقط علامة لميلاده، و لقد هم إبليس بالظعن في السماء لما راى من الأعاجيب في تلك الليلة، و كان له مقعد في السماء الثالثة و الشياطين يسترقون السمع، فلما رأوا العجائب أرادوا ان يسترقوا السمع فإذا هم قد حجبوا عن السماوات كلها و قد رموا بالشهب جلالة لنبوة محمد (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 181

ملئوا من أسرار السماء و يتحدثون دوما عنها، كان الجن المؤمنون، أو رسلهم بوجه خاص، يستمعون إليهم فيرجعون الى قومهم منذرين، دون الجن الشياطين الذين لا يرجعون بما يسرقون إلا بكل تدجيل و تضليل.

2- إن في الجن رسلا كما في الانس، و لكنما الرسالة الأصيلة هي لرسل الإنس، كما يوحي به انقطاع و حيهم منذ الرسالة الإسلامية، فلو كانوا مستقلين فيها لكان منهم خاتم يحمل الوحي الخالد كما منا خاتم.

3- في حرمان رسل الجن عن الوحي مع الأبد، منذ بزوغ وحي القرآن، دلالة ناصعة أنه خاتمة الوحي، لا كتاب بعده و لا نبوة بعد نبوته، و ختم الوحي و الرسالة هو الرشد الذي أراده اللّه بمنع التسمع الى الملأ الأعلى عن رسل الجن: أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً.

4- السماء الملموسة لرسل الجن هي سماء الأنجم و هي الاولى من السبع، حيث ترى الشهب الثاقبة و النيازك النارية، و لا ريب انها في الاولى، إذ ليس غيرها مرئية لنا حتى الآن و لا بالعيون المسلحة، و من لمسهم السماء و دحرهم عنها نعرف أن سكنى الجن هي الأرض بجوّها، بخلاف الملائكة.

5- يوحي التنديد بالعائذين بالجن، كما تفرضه حكمة اللّه و عدله: أن لا سلطان للجن على الانس و لا من شياطينهم إلا كيدا: و إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً فمن الظلم أن يفسح المجال للجن ان يؤذوا الإنس و هم لا يرونهم، و لا حيلة لهم في الدفع عن أنفسهم و أعراضهم، و ليست فكرة تدخّل الجن في البعض من أمور الناس و حالاتهم و تخبّلهم بهم إلا خرافة أسطورية قضى القرآن على أمثالها.

6- الحرس الشديد الجديد عند بعث النبي الجديد، يوحي بأن الحراسة ما كانت قبلئذ بتلك الشدة، إذ كان الجن المؤمنون يستمعون الى الملأ الأعلى في مقاعد لهم خاصة، و كانت مردة الشياطين منهم يسترقون شيئا مّا مهما لاقوا من دحر و عذاب، لكنما الرسالة المحمدية الختمية أوجبت حصر الوحي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 182

به و دحر من سواه، سواء أ كان استماعا حرّا كما كان للمؤمنين، أم استراقا كما للشياطين، فالكل محرومون عن كل أسرار السماء إلا من طريق الرسالة المحمدية، حيث الجن الرسل يصدون عنه.

فالأجهزة الدفاعية السماوية من الشهب النيازك النارية و الحرس الشديد، تنفّذ أمر اللّه تعالى و الى يوم القيامة الكبرى، فمن ادعى بعد الوحي المحمدي وحيا و بعد رسالته رسالة و بعد كتابه كتابا فهو دجال كذاب.

7- لا ندعي أن أهداف الشهب تختص بدحر الجن، و إنما هو من اهدافها التي كنا نجهلها كما جهلنا الجن، و كما يجهل العلماء حتى الآن اهداف هذه الشهب، فهل من العقل انكار المجهول من أسرار الكون و أكثره مجهول؟! ان المتفلسفين الذين يحاولون تفسير هذا الكون و ارتباطاته في كافة زواياه و مجالاته، انهم ظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلا شاهقا لا غاية لقمته، محاولة حل لغز الوجود، و هم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء من كتاب التكوين الغامض الفائق العقول.

لقد ظلوا مرتكسين في تصورات لهم مضحكة حين نقرنها الى التصورات الواضحة البديعة الجميلة التي ينشئها القرآن، فتلك منهم مضحكة بعثراتها و مفارقاتها و تخلخلها و قزامتها الى عظمة الوجود، و هذه عريقة عميقة الى غير الحدود، فانها من خالق الكائنات، سبحان الخلاق العظيم! وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً:

علّ الصالحين هنا هم الصالحون تماما دون فساد و هم رسلهم، و دُونَ ذلِكَ‏ يشمل دون الصلاح الشامل، من الصلاح الخليط بالفساد كمن دون الرسل من مؤمنيهم، و الفساد التام دون صلاح كشياطين الجن، و في كل من هؤلاء الثلاثة أيضا صنوف، يوحي بهذا التقسيم‏ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً فلم يقل طريقين ليكون تقسيم الصالحين و دون ذلك ثنائيا كما يزعم، إنما طَرائِقَ قِدَداً.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 183

و بما ان الطرائق جمع طريقة، و القدد جمع قدة و هي المستمرة بالقدّ في جهة واحدة، المشقوق طولا، نستوحي أنهم كانوا و لا يزالون في مبادئ متباينة، كل يباين الآخر، كما المقدود يباين بعضه البعض، و بما أن أقل الجمع ثلاثة فطرائقهم المباينة إذا: رسلهم و مردة الشياطين و بينهما المؤمنون على شتات درجاتهم، فلا رسل الجن يكفرون أو يفسقون، و لا شياطينهم يرسلون او يؤمنون، و لا المتوسطون يشيطنون، و ان كان المرسلون يصطفون من بينهم و لا بدّ، و نرى القرآن هكذا يقتسم الجن الى هؤلاء الثلاث و منهم الشياطين و هم ذرية الشيطان الأكبر و ذريتهم أيضا، هم قدة مستمرة في الكفر لا يؤمنون كأنهم من صنف آخر: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ (18: 50) و هذه ميزة أخرى بين الجن و الإنس، إذ لا نجد من الإنس من هم قدة مستمرة في الكفر بذرياتهم، فقد يولد مؤمن من كافر أو كافر من مؤمن.

هنا نكرر براءة رسل الجن عما ينسب إليهم أنهم كانوا ذيولا لسفهائهم قبل سماع القرآن، سنادا الى تفسير ردي‏ء لقولهم‏ وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً رغم انه يطهرهم للغاية كما اسبقناه، ثم هذه الآية تجعلهم من الصالحين تماما منذ كانوا، مما يذود عنهم وصمة الغواية عن جهالة.

فهؤلاء الرسل الكرام، القدة الصالحة، مرسلون الى من هم دون ذلك، الى شياطينهم و سفهائهم لإلزام الحجة، و الى من بين القدتين لإيضاح المهجة، و لئلا تكون لهم حجة على اللّه بعد الرسل و للّه الحجة البالغة.

و ما أجمل هذا التقرير عن مصير الجن في بيئتهم: ازدواجية الطبيعة و الاستعداد لكلا النجدين: الخير و الشر، إلا من تمحّض منهم للشر و هو إبليس و قبيله بذريتهم، و من تمحض للخير كرسل الجن، تمحضا بالطبع و السعي معا، رغم التصور الغالط عندنا و حتى بعض الدارسين: ان الجن يمثلون الشر أيا كانوا! و أن الإنسان وحده بين الخليقة هو ذو طبيعة مزدوجة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 184

كلا! إنهم كأمثالنا طالما اختلفوا عنا فيما استوحيناه مسبقا، مما لا يجعلهم سابقين علينا و مسيطرين فينا، و لا شريرين تماما، فهم مكلفون كما نحن، و هم طرائق قدد كما نحن إلا في شياطينهم الثابتين على قدتهم، فقد شبّه سبحانه اختلافهم في الأحوال، و افتراقهم في الآراء كالسيور المقدودة التي تتفرق عن أصلها و تتشعب بعد ائتلافها، حيث ائتلفوا منذ الخلقة إذ خلقوا من نار، ثم اختلفوا قدد النور و النار و بينهما متوسطات.

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً وَ أَنَّا ظَنَنَّا: ظن القلب الذي يساور اليقين، لا ظن العقل الذي لا يغني، و لا يقبل من المؤمنين، و: «لن» المكررة هنا مرتين، الدالة على استحالة مدخولها، إنها أثبت قرينة أنه ظن القلب، فظن العقل، بل و يقينه- أحيانا- يتحمل فكرة تعجيز اللّه بأيّ معنى كان، كما نلمسه ممن يدّعون الايمان، و ظنّ رسل الجن مما يحيل هذه الفكرة، فليكن يقينا عقليا راجحا.

و إنما يقتصر هنا بالظن، و جماعة من رسل الجن هم من أهل اليقين في قلوبهم؟ لأنهم درجات، يجمعهم ظن القلب، مهما اختص البعض منهم بيقينه! .. أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ‏: يوحي انهم من سكنة الأرض، و ان كان باستطاعتهم صعود السماء، و هنا يعترفون- رغم أوهام المشركين الظانين ان الجن شركاء اللّه و انسباؤه- يعترفون انهم يعرفون قدرة اللّه عليهم في الأرض، فلن يعجزوه فيها، بل و لا هربا: هربا من الحياة الدنيا، فإنهم ينتقلون بعد الى برزخ الحياة و هم في قبضة الحي القيوم، أم هربا من حياة الأرض الى السماء فالى أين يهربون إلا الى ملكه و سلطانه: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (55: 33) فلنفرض ان هناك منفذا من أقطار السماوات و الأرض، فالى أين بعد؟ فهل إلا الى سلطان اللّه و ملكه؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 185

فهؤلاء- و هم رسل الجن- أقواهم بينهم- يعترفون بعجزهم عن الهروب من سلطان اللّه و الإفلات من قبضته، و الفكاك من قدرته، شاعرين بسلطان اللّه عليهم أينما كانوا، و على الخلق أجمع، فكيف بشياطينهم! و على أثر هذا الاعتراف الصادق النابغ، النابع من قلوبهم الصافية الضافية، أصبحت حياتهم تحسسا و تجسسا عن الحق الصراح، النازل بوحي السماء:

وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى‏ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً.

إنهم سمعوا القرآن‏ قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ‏ و سمّوه هدى و هو هدى مزدوج، يهدي المتحسسين عن وحي السماء، الى أنه وحي السماء، ثم يهديهم الى رشد الحياة، فالإيمان به إذا ايمان مزدوج، و ليس تقليديا، و إنما عن برهان، ايمان بوحيه و هداه.

فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ‏ و الايمان بالقرآن ايمان بمن أنزله، فانه تعالى تجلى بعلمه و هداه في قرآنه، فالناكرون القرآن إنما ينكرون اللّه او يكذبونه لو كانوا يعقلون.

ثم هكذا ايمان متين مسنود الى برهان مبين يزيل عن صاحبه كل خوف، فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً: بخسا: نقصا على سبيل الظلم أو كل نقص، و لا رهقا: شمول الاضطراب.

لا يخاف في حياة الايمان و سبيله واقع البخس و لا توقّعه، في مال أو جاه أو نفس، فهي كلها فداء في سبيل اللّه، تجارة مربحة لا بخس فيها و لا نقص، و لأن الايمان يؤمن الإنسان عن المخاوف و يطمئنه عن الإرهاق، و على حد المروي‏

عن الامام الرضا عليه السلام: من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء و من لم يخف الله أخافه الله من كل شي‏ء.

و لا يخاف- كذلك- رهقا: اضطرابا يشمله و لماذا يضطرب؟ أ لفقد مغريات الحياة الدنيا و زخرفاتها؟ فما هي إلا متاعا لتجارة لن تبور! يستبدل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 186

بها المؤمن مرضاة اللّه و رحماته في الدارين، فذكر اللّه تعالى يطمئن القلوب‏ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ‏ فضلا عن الايمان المازج القلوب، التي أصبحت ذكرا للّه إذ عاشت ذكره، داحرة ناحرة من سواه.

إنهم مهما شملهم بخس أو رهق في الحياة الدنيا في سبيل اللّه، فلا يخافون، لأنهم الرابحون يوم الدين، فلن يبخس المؤمن حقه الثابت و لن يرهق، و من ذا الذي يملك بخسه و إرهاقه و هو في حماية اللّه و رعايته، و حرمانه عن ملذات الحياة الدنيا و مغرياتها ليس بخسا و لا رهقا بجنب ما يكسبه من رضوان اللّه و الحياة الآخرة، فهو في راحة في ضميره و نفسه دنيا مهما ضحى بنفسه و نفيسه، و في راحة شاملة في الآخرة: لا يخاف بخس الدنيا و رهقها، الواقع- لا محالة- للسالكين في هذه السبيل، يوم الدنيا، و لا يخافهما يوم الدين إذ هما لغير المؤمنين.

وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً. وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.

يلمح من تقسيمهم الى المسلمين و القاسطين أن الجمع هنا: «أنّا» يشمل الجن أجمع، لا خصوص المؤمنين أو الرسل منهم، ف «انّا» هنا تختلف عن «أنّا» هناك، بين خاصة برسلهم ك إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً و عامة للمؤمنين منهم و علّه: وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ .. و عامة للجن اجمع‏ وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً ف «أنا» هنا و هناك و هنالك طرائق قدد في الشمول و الخصوص كما الجن طرائق قدد!.

و لئن سئلنا ما هو الفرق بين «الصالحون» و «دون ذلك» و بين ما هنا «المسلمون و القاسطون»؟

فالجواب ان «الصالحون» كما مضى هم رسل الجن، و دون ذلك يشمل كلا القاسطين، و المتوسطين بينهما من المؤمنين بدرجاتهم، و لكنما «المسلمون» يعم رسلهم و المؤمنين، و «القاسطون» يخص شياطينهم‏ وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 187

فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً فالمؤمن مهما كان فاسقا ليس لجهنم حطبا، و إن أحرق بوقوده قليلا أم كثيرا، و لكنه خارج عنها الى رحمة اللّه، لإيمانه، فلا يضيع اللّه ايمانهم و لا يسوي بينهم و الشياطين.

و بما أن التحري هو التعمل في قصد حرى الشي‏ء و جانبه، نعرف ان مسلمي الجن إنما أسلموا فاحصين قاصدين الايمان المفصل بالوحي بعد أن كانوا مؤمنين الايمان المجمل بعقولهم الصافية و قلوبهم الضافية، فقد تحروا رشدا حتى جاءهم الرشد بوحي القرآن فآمنوا به غير مسيّرين و لا ناكرين و لا راغبين بالايمان مالا و لا منالا، و إنما رشدا، كانوا يتحرونه حياتهم، و كلّ نال رشده و هداه قدر سعيه و لباقته و لياقته، بين من أوحي اليه و حمل رسالة السماء على هامش رسل الانس، و بين المؤمنين بدرجاتهم، بما أرسل إليهم رسلهم إذ وَلَّوْا إِلى‏ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ‏.

فالإسلام- أيا كان- بحاجة الى التحري و التفكير الصحيح للوصول اليه، دون الضلالة فانها تتحرى الإنسان و هي قائمة على كافة الدروب، دون حاجة الى ان يتحراها الإنسان، فالضلالة و القسط تخبّط عشوائي، و لا إنسانية بغير إدراك، و الإسلام و الإقساط اهتداء الى الرشد في إنسانية التحري و التفكير و دحر الجهالات و التعصبات.

و القسط- خلاف الإقساط-: أخذ نصيب الغير ظلما، خلاف إعطائه عدلا- كالضرب و الإضراب- فالإسلام يتضمن الإقساط، إعطاء كل ذي حق حقه، حق الخالق و المخلوق، و حق المسلم نفسه، مستسلما في هذه الحقوق لحكم اللّه، و القسط تجاوز الى حقوق الغير و أخذها ظلما و عتوا، و يرجع الى هدر الحقوق جماعية و فردية، خلقية و خالقية، و لصاحب القسط قسط عظيم من قسطه، يكدّر حياته و هو يحسب أنه يحسن صنعا! وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً: «كانوا» لا سوف يكونون فهم حياتهم حطب جهنم، يؤجّجون نيران الخلافات و الحرمانات و الظلامات،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 188

في الحياة الدنيا، و بذلك سوف يكونون حطبا لجحيم الآخرة، تستدام النار بدوامهم، فكل نار لا بد لها من حشاش يحشها و وقود يقودها.

فالقاسط نار عبر حياته هنا و هناك، و المقسط جنة عبرها هنا و هناك‏ وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏، وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏.

و الجن مهما كانوا مخلوقين من نار، فالقاسطون منهم يحرقون و يحرقون في جحيم النار بما يوحيه النص القرآني الذي نستمد منه تصوراتنا الايمانية، فالتصورات الشاردة الماردة التي تحيل أو تستبعد عذاب الجن بالنار، ليست صادرة إلا عن أفكار مادية ضيقة تعارض النصوص القرآنية و الواقع الملموس ايضا، أن كثيرا مما أصله النار يحرق بالنار، و النار الأقوى كذلك تحرق الأضعف او تزداده حرقا، إضافة الى ان الجن لم يظلوا نارا و إنما خلقوا من نار، كما الإنسان المخلوق من التراب يقتله الحجر المخلوق من التراب، فهل من المستحيل- إذا- أن مادة أقوى تصطدم مادة من جوهرها هي أضعف منها، مهما بقيت على حالتها، أو- بأحرى- تغيرت، كما الجن خلقوا من مارج من نار و ليسوا الآن نارا، و لو بقوا نارا فنار الجحيم هي أقوى، و على أقل تقدير تزيد في ناريتهم فتحرقهم مهما لا تحرقهم نارهم الاصيلة، و كما في الإنسان ايضا نار هي من شروط حياته، فلو زادت أصبحت النار نفسها من بواعث مماته كالحمى البالغة ذروتها، المجمدة للدم.

ثم من بعد ذلك فعدل اللّه و فضله و كلمته البالغة تفرض التسوية بين الجن و الانس، مؤمنين و كافرين، الى الجنة على سواء و الى النار على سواء، و كما تدلنا عشرات الآيات مصرحات، و مئات شاملات، فالحظائر المعدة بين الجنة و النار لمؤمني الجن و فساق الشيعة، المروية عن باقر العلوم (ع) هي مكذوبة مزورة عليه عليه السلام، مكتوبة بأيدي الجهل في البعض من كتب الحديث‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 437 القمي‏ و سئل العالم عن مؤمني الجن أ يدخلون الجنة؟ فقال: لا- و لكن للّه حظائر بين الجنة و النار يكون فيها مؤمنوا الجن و فساق الشيعة!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 189

فآيات الجنة في سورة الرحمان تشمل الانس و الجان صريحة: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55: 46).

و لقد أوحى التعبير في هذه الآيات انها تحمل مقالات و اعترافات رسل الجن، مزيجة من وحي العقل و الايمان و وحي السماء، ثم اللّه يؤيدهم في أن الاستقامة على طريقة الإسلام تسقيهم ماء غدقا يحييهم في عوالم الحياة كلها، فليس الإسلام المنقطع الفاشل بالذي ينجيهم، و إنما الإسلام المستقام:

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً.

و نرى هكذا تتمة السورة انها من كلمات اللّه تأييدا لرسالة الجن و تكميلا لها في وحيها الأصيل الى رسلهم و رسول الانس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم.

و ان في ترادف آياته تعالى بما ينقله عن رسل الجن دلالة لطيفة على مدى تصديقه لهم في مقالاتهم النابعة عن وحي الايمان و وحي السماء، و انها مصدّقة كوحي القرآن لأنها نابعة عنه.

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا المسلمون من الجن و سواهم‏ عَلَى الطَّرِيقَةِ المثلى التي تحروها، دون تزعزع و فوضى، و إنما الاستقامة: طلب القوام و القيام فيها من أنفسهم و سواهم‏ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً غزيرا: يمطر عليهم من سماء الرحمة روحانية و جسدانية: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ‏ (7: 96) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (5: 66).

إن الماء الغدق هناك، و البركات هنا، لا يخصان ماء السماء و بركاتها المادية فحسب، فانها تعم المستقيمين و سواهم، و ان كانت لهم رحمة و لمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 190

سواهم ابتلاء و نقمة، فهي تعم ماء الحياة الروحانية و بركاتها التي تخص المتقين المستقيمين دون سواهم، فلا تختص عوائد الايمان و فوائدها الحياة الاخرى، بل إنها تعمها و الحياة الدنيا، و الآخرة خير و أبقى، فالبركات الروحية هي أولى و أحرى أن تسمى ماء غدقا و بركات إذ لا تخالطها دركات: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (41: 30) لذلك نرى الامام جعفر الصادق عليه السلام يفسر الماء الغدق بالعلم الكثير، تفسيرا بما هو أحرى مصاديقه‏ «1».

ثم الماء الغدق المادي و بركاتها، هو جزاء المستقيمين من جهة، و فتنة لهم من أخرى، و كما جعلت غاية للإسقاء: لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ‏ فالمستقيم في الفتنة، الذي لا تغريه بركات الدنيا و مغرياتها و لا تنسيه و تعرضه عن ذكر اللّه، هذا المستقيم تزداده الفتنة رحمة و ايمانا، و قليل ما هم الصامدون على الاستقامة في الترف و الترح، و لذلك لا يعم اللّه سعة الأرزاق للمستقيمين اجمع، فأكثرها لمن يستقيم، ثم بجانبهم المعرضون عن ذكر اللّه الذين يبدلون نعمة اللّه كفرا و يحلّون قومهم دار البوار جهنم يصلونها و بئس القرار، هؤلاء الذين حياتهم هي الغفلة و يعيشون التخلفات، فالماء الغدق و البركات تصبح لهم دركات و تسلكهم عذابا صعدا وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً ينفذه عذابا صعبا.

من المؤمنين غير المستقيمين في الايمان، و المستقيمين ما داموا فقراء فإذا سقوا ماء غدقا بغوا و نسوا اللّه، و من القاسطين المستقيمين في القسط و البغي، هؤلاء شركاء في سلك العذاب الصعد نتيجة الإعراض عن ذكر ربهم، كل على قدره- أعاذنا اللّه منه- فهم في العذاب الصعد فقراء و أغنياء، رؤساء و مرءوسين، و ليس املاؤهم في أعمارهم و إمدادهم بأموال و بنين خيرا لأنفسهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 439 عنه (ع) معناه: لأفدناهم علما كثيرا يتعلمونه من الأئمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 191

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (3: 178) فإملاء المؤمن المستقيم هو لازدياد الايمان، ثم هو لغيره لازدياد الإثم فالعذاب الأليم، فحياته و معيشته ضنك أينما حل:

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ (20: 124) مهما لم يحس أم لم يبرز ضنك المعيشة في الدنيا، و لكنها في الآخرة محسوسة بارزة.

إن الحياة الدنيا كلها بكافة حالاتها و وجهاتها فتنة، فمنها خير و منها شر:

وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (21: 35) ففتنة الخير تقدم الإنسان نحو الأكمل فالأكمل في الخير: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (16: 110) و فتنة الشر تدفعه نحو الأشر: وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى‏ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (20: 131).

فالمؤمن المستقيم يفتن بالماء الغدق و البركات ليزداد ايمانا، و سواه يفتن بها أحيانا و بسواها أخرى ليزداد إثما و له عذاب أليم، و يا لفتنة المؤمن بالبركات صعوبة صعدا، ثم تكون له و لمن معه رحمة.

فالابتلاء بالنعمة بحاجة ملمة ملحة الى يقظة مستمرة تعصم من شر الفتنة، فنعمة المال كثيرا ما تقود الى فتنة البطر و الإعراض عن ذكر اللّه، و نعمة القوة كثيرا ما تقود الى فتنة الطغيان و العصيان على الخلق و الخالق، و التهجم على الحرمات و التجهم على بركاته، و نعمة الجمال كثيرا ما تقود الى فتنة الخيلاء، و نعمة الذكاء كثيرا ما تقود الى فتنة الغرور و الاستخفاف بالآخرين، فلا تكاد تخلو نعمة من الفتنة السوء إلا من استقام فذكره اللّه فعصمه اللّه.

و كل ذلك بخلاف فتنة النعمة و ابتلائها، الممتحن بها كثير من المؤمنين المستقيمين، فهي أخف من ابتلاء النقمة بكثير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 192

و العذاب الصعد الصاعد في الصعوبة لحدّ كأنه نفس الصعوبة و الصعد، انه يخص المعرضين عن ذكر الرب، لا المؤمنين المستقيمين الذين يتلهون أحيانا بالبركات و الماء الغدق، ما لم يصل الالتهاء الى الإعراض عن اللّه، و لا سمح اللّه، و كرامة الايمان- أيا كان- تمنع عن دركات الإعراض و العذاب الصعد، و اللّه من وراء القصد.

يختص الماء الغدق هنا من بين البركات لأنه أصل البركات، فاوّل أسبابها توافر الماء، فما تزال الحياة تجري على خطوات الماء، و ما يزال الرخاء يتبع خطوات الماء حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة، فالماء له اهميته الحيوية و العمرانية عبر الحياة في عصورها.

ثم الارتباط بين حياة الاستقامة و الرخاء حقيقة ملموسة لا تنكر، و إذا كانت هناك أمم غير مستقيمة على طريقة اللّه ثم تنال الوفر فانها معذبة بآفات و عاهات أخرى هي أشد من الفقر، آفات في أمنيتها و أمنيتها، في انسانيتها و قيمها و كرامتها، التي تسلب عن ذلك الغنى و الوفر حقيقة الرخاء، و تحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على كافة معاني الإنسانية و مثلها، كما أسلفناه في سورة نوح.

وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً عطف على الآية السابقة، المعطوفة على‏ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ .. فما هي المساجد هنا، التي لا يدعى بها أو فيها مع اللّه أحد؟

المساجد جمع المسجد و المسجد و المسجد: ان تكون على الترتيب مصدرا ميميا بمعنى السجدة، و اسم آلة هي آلة و ذريعة السجدة و سببها المؤول الى الأدلّاء على اللّه و الهادين الى مرضاة اللّه و عبادته، و اسم مكان و هو ما يسجد فيه: محال العبادة و ما يسجد عليه: محال السجدة من الجبهة و ما يسجد به من مواضع السجدة و اسم زمان: «المسجد و المسجد»: زمان السجدة، فهي كلها للّه، و المساجد هنا في كلام اللّه تتحمل هذه كلها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 193

فكما السجدة- و هي غاية الخضوع- خاصة باللّه، لا تعدوه إلى سواه، كذلك المواضع السبعة التي تسجد بها: من الجبهة و الكفين و الركبتين و إبهامي الرجلين، لا يسجد بها الا للّه، و لا تقطع في أية جريمة إلا ما شذ، و كذلك بيوت اللّه المعدة للصلاة، إنها للّه، فلا يدعى فيها مع اللّه غيره، و لا تتخذ لغير عبادة اللّه، كذلك و الراسخون في العلم المعصومون فلا يدعى معهم غيرهم أحد حيال دعوتهم إلا من يدعو بهم، و كذلك أزمنة السجدة المفروضة، المحددة فرضا و ندبا، إنها للّه‏ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً.

و قد تتأيد هذه الاختصاصات بآيات بينات، كالتي تحصر السجود في اللّه، فالسجدة بما أنها غاية الخضوع لا تحق إلا للخالق الذي في غاية الرفعة، لا يشاركه فيها أحد حتى يشاركه في السجدة: لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (41: 37) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ (13: 15) و آيات السجود لآدم لا تعني انه المسجود، و إنما سجدة الشكر للّه لأجل آدم معلم الملائكة كما نسجد لما رزقنا اللّه و أنعم علينا و ليس الرزق هو المسجود له، انما هو اللّه و الرزق مسجود لأجله، و التفصيل إلى سورة البقرة.

و بما أن الراسخين في العلم يفسرون القرآن تدليلا على معانيه الخفية غير الظاهرة لنا أحيانا، نجد هنا أحاديث متظافرة عنهم عليهم السلام ان المساجد هنا هي مواضع السجدة السبعة «1» و أنها منها، و منها الأئمة استفادة لطيفة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 439 عن تفسير العياشي عن أبي جعفر الباقر (ع) انه سأله المعتصم عن السارق من اي موضع يجب ان يقطع؟ فقال:

ان القطع يجب ان يكون من مفصل اصول الأصابع فيترك الكف، فقال:

و ما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول اللّه (ص): السجود على سبعة (تفسير الفرقان- ج 29- م 12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 194

أنيقة من الآية إذ يتحملها مع سائر المساجد. و لكنها خفية بينها، و الآية إذن تحمل بيان أحكام شرعية إيجابية و سلبية.

1- وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ‏ غاية الخضوع قلبا و قالبا تختص باللّه، بكافة انحائها و أنواعها فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً فلا تسجدوا لأحد من دون اللّه إذ لا أحد يملك ما للّه من عز الألوهية و الكبرياء، فلا أحد مع اللّه يداينه أو يساويه فكيف يسجد له، أ تسوية له باللّه فهي ضلال مبين: تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (26: 98) فالتسوية باللّه في أية مرحلة من مراحلها، إنها ضلال مبين، إذ ليس مع اللّه أحد في ألوهيته ذاتا و صفات و أفعالا حتى يسوى به أية تسوية، و إن كانت سجدة ظاهرة يقصد بها الاحترام، فاحترام رسل اللّه و أوليائه بالسجدة أو الركوع، اخترام لكرامة الربوبية و ضلال من جهتين: ترفيع العبد إلى مرتبة الرب، و تنزيل الرب إلى منزلة العبد و هو ضلال مزدوج يعتذر عنه الضّلال: تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ‏ و قد تضافرت الأحاديث عن الرسول الأقدس و أهل بيته الكرام ان السجود خاص باللّه لا يعدوه إلى سواه‏ «1».

2- بيوت اللّه المعدة لعبادته، إنها خاصة باللّه، فلا تدعوا أحدا إلا إياه، و أنتم معه في بيته، فطالما تذكرون غير اللّه في بيوتكم و سواها، فاتركوه إلى ذكر اللّه في بيته، اللهم إلا ذكرا لأولياء اللّه متذرعين به إلى ذكر اللّه، فانه أيضا من ذكر اللّه، فلا تجعلوا مساجد اللّه نوادي لما ليس للّه فيه نصيب، و لا متاجر و أسواقا، إنما عبادة اللّه و ما يرجع إليها و تقصد منه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اجزاء الوجه و اليدين و الركبتين و الرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع او المرفق لم يدع له يد يسجد عليها، و قال الله: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ‏ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً و ما كان لله فلا يقطع.

(1).

نور الثقلين 5: 439 عن اصول الكافي عن أبي الحسن (ع) في قوله تعالى: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً قال: هم الأوصياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 195

3- مواضع السجود، ما أعدت للسجود للّه، فلا تصرف لمن سواه، و لا تقطع، و إنما يبقى منها ما يسجد بها للّه، فالسارق لا تقطع يده الا أصابعه لا كفه، فانه من المساجد، و لا رجله الا أصابعه فانه من المساجد، و فيما إذا تقطع الأيدي و الأرجل من خلاف، فانما المصلحة الراجحة الجماعية و الحفاظ على كرامة المسلمين تقتضيه، و بالنسبة لمن لا يعرف السجود للّه أم لا يعتقد، جزاء المحاربة للّه و عيث الفساد في الأرض، جزاء وفاقا، تقطع يده و رجله من خلاف لخلافه و تخلفه: إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (5: 32).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

احمد بن حنبل في مسنده 4: 381 ان معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبي (ص) فقال: يا معاذ! ما هذا؟ قال: ان اليهود تسجد لعظمائها و علمائها و رأيت النصارى تسجد لقسسها و بطارقتها قلت ما هذا؟ قالوا: تحية الأنبياء فقال (ص): كذبوا على أنبيائهم،

و

عن الثوري عن سماك بن هاني قال‏ دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد ان يسجد له فقال علي (ع): اسجد لله و لا تسجد لي،

و

الجصاص ج 1 ص 35 عن عائشة و جابر بن عبد الله و انس ان النبي (ص) قال: ما ينبغي لبشر ان يسجد لبشر و لو صلح لبشر ان يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، و رواه ابن ماجد و احمد بن حنبل في 4: 381 و 6: 76 و 5: 228 من مسنده و روى ما في معناه ابو داود في سننه نكاح 40. و في تفسير البرهان ج 1 ص 81 عن الامام الحسن العسكري قال: قال رسول الله (ص): لما عرف الله ملائكته فضل خيار امة محمد و شيعة علي و خلفائه و احتمالهم في جنب محبة ربهم ما لا تحتمله الملائكة أبان بني آدم الخيار المتقين بالفضل عليهم ثم قال فلذلك فاسجدوا لآدم لما كان مشتملا على أنوار هذه الحقائق الأفضلين و لم يكن سجودهم لآدم، انما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عز و جل و كان بذلك معظما مبجلا و لا ينبغي لأحد ان يسجد لأحد من دون الله، يخضع له خضوعه لله، و يعظم به السجود كتعظيمه لله، و لو أمرت أحدا ان يسجد هكذا لغير الله لأمرت ضعفاء شيعتنا و سائر المكلفين من شيعتنا ان يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول الله (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 196

4- حملة الرسالات الالهية للّه، يدعون إلى اللّه و عبادته و سجوده بإذنه و وحيه دون جهل أو خطأ ام سهو أو نسيان فيما حملوه، و اشراك غيرهم بهم و تسويتهم بهم ليس إلا دعوة مع اللّه سواه‏ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً فكما لا يسجد إلا له لا سواه، كذلك لا يعبد إلا بتدليلهم لا سواهم، إلا من يحمل عنهم ما هو منهم.

5- أزمنة السجود للّه، صحيح ان الزمان كله للّه، و لكنه تعالى حررنا في غير ازمنة الصلاة ان نفعل ما نشاء كما يشاء، فاختص زمن الصلاة بنفسه، فلا يجوز ان يحلها غيرها من اشغال.

و حقا ان الآية تتحمل هذه المعاني كلها، و الأحاديث المشار إليها أرشدتنا إليها و كما نفسر القرآن على ضوء هذه الإرشادات و الدلالات اللطيفة الأنيقة العميقة من اهل بيت الرسالة المحمدية صلوات اللّه عليهم أجمعين.

ثم ان بيوت اللّه المعنية فيما تعنيه الآية، انها معدة لعباد اللّه من الجن و الانس و الملائكة و سواهم سواء، فما يروى ان الآية نزلت منعا للجن المؤمنين ان يشهدوا مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم الصلوات الخمس في مسجده‏ «1» لا تأويل لها إلا ضربها عرض الحائط، فإن الآية تختص المساجد باللّه لا بمؤمني الإنس، و تمنع عن أن يدعى مع اللّه احد، لا ان يدعوه الجن مع الإنس في مسجد الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلم! و قد يعنى من كون المساجد «بيوت اللّه» للّه، عدم اختصاص الصلاة ببعضها و إنما المهم ان يسجد فيها للّه دون سواه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 274- اخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال‏ قالت الجن يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك فانزل الله‏ وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً يقول: صلوا لا تخالطوا الناس.

(2)

المصدر اخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال‏ قالت الجن للنبي (ص) كيف لنا أن نأتي المسجد و نحن ناؤون عنك أو كيف نشهد الصلاة و نحن ناؤون عنك فنزلت: و ان المساجد لله الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 197

و هنا نلمس التوحيد الخالص إذ يتوارى كل ظل لكل أحد، و لكل قيمة، و لكل اعتبار، و يتفرد الجو، عبادة و وسيلة لها و مكانا و زمانا و أعضاء للسجود:

يتفرد و يتمحض للّه الواحد القهار.

وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً اللّبد هي لبد الشّعر، و هي طرائقه و قطعه التي يركب بعضها بعضا، جمع لبدة من لبدة الأسد و هي الشعر المتراكب على مناكبه، و ذلك أبلغ ما شبهت به الجموع المتعاضلة، و الأحزاب المتآلفة الذين كادوا يكونون عليه لبدا- إذ قام عبد اللّه في عبادة اللّه- لبد الخير و الشر.

لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ‏: الرسول الأقدس محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم، و ما أحلاه و صفا له بعبد اللّه و هو أول ما نشهد له من مكارمه ثم تتلوه الشهادة بالرسالة: «و أشهد أن محمدا عبده و رسوله» فانه لم يحمل الرسالة الإلهية إلا بعد أن استكمل شرف العبودية للّه، فقد كان قيامه للتعريف بأنه و سواه من الخلق عباد اللّه، و أن عليهم أن يعبدوا اللّه.

لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ‏: قيام الرسالة منذ بزوغها، و القيام بما تتطلبه، و القيام بالصلاة التي هي خير موضوع منها، قيامات هامات و كأنها طامات، و من شدة وطأتها و سموها و صمودها:

كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً و اللبدة الاولى هم المشركون، جموعهم المتلبدة المتكاثرة المتظاهرة التي كانت تجتمع عليه متلبدة متألبة، راكبة مترادفة، متآلفة ضده كأنها لبد الأسد، فمهما كانوا لبدا فعبد اللّه كان أسدا ضرغاما مغوارا لا تهمه لبده، و لا تمنعه مهمته، مهما حاولوا منعه!: فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (70: 37) يتسمعون في دهش و لا يستجيبون، بل و يوقعون به الأذى و يعصمه اللّه منهم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور- اخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن الحسن في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 198

ثم اللبدة الثانية هم المؤمنون الأوّلون الذين كادوا يراكبونه كاللبد تزاحما عليه، و تدانيا اليه، و احتذاء لمثاله، و استماعا لمقاله‏ «1».

ثم الثالثة هم رسل الجن إذ سمعوا القرآن حيث قام بقراءته عليهم، فأخذوا و دهشوا و تجمعوا على عبد اللّه و رسوله، بعضهم لصق بعض، كلبد الأسد «2».

فمهما كانت لبده فهو الأسد، على الكافرين إذ لا ينهزم من حشودهم، و للمؤمنين إذ يقوم لصالحهم، أسد في الخير و الشر، لا يعرف الجبن و الخوف طوال رسالته و هكذا يجب أن يكون المؤمنون به لكي يسودوا الأمم.

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً. قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الآية قال: لما قام رسول الله (ص) يقول لا اله الا الله و يدعو الناس الى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا،

و اخرج عبد الرزاق و غيره عن قتادة في الآية: تلبدت الانس و الجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله الا ان ينصره و يظهره على من ناواه.

(1).

الدر المنثور 6: 275 اخرج عبد بن حميد و الترمذي و الحاكم و ابن حرير و ابن مردويه و الضياء في المختار عن ابن عباس في الآية: لما أتى الجن على رسول الله (ص) و هو يصلي بأصحابه يركعون بركوعه و يسجدون بسجوده فعجبوا من طواعية أصحابه فقالوا لقومهم‏ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً.

(2)

الدر المنثور 6: 274 اخرج ابو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال: خرج علينا رسول الله (ص) قبل الهجرة الى نواحي مكة فخط لي خطا و قال: لا تحدثن شيئا حتى آتيك ثم لا يهولنك شي‏ء تراه، فتقدم شيئا ثم جلس فإذا رجال سود كأنهم رجال الزط و كانوا كما قال الله تعالى‏ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً.

و عن ابن عباس قال: لما سمعوا النبي (ص) يتلوا القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن و دنوا منه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 199

قُلْ‏ لمن كادوا يكونون عليك لبدا: إيمانا و كفرا: إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي‏:

قيامي في الدعوة طوالها، إنما هو لربي و إلى ربي‏ وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً:

إشراكا في دعوته أو ربوبيته، أو في عبادته أن أرائي فيها، و انما أدعو ربي بقلبي و مقالي و حالي و أفعالي‏ وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً حتى نفسي، فلست وكيلا عنه و لا كفيلا لكم، فهو الذي بيده ناصية كلّ شي‏ء و يملك الضر و الرشد قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً، لا ضرا في أرواحكم و لا في أجسادكم لا في دنياكم و لا في اخراكم، و لا في دينكم و لا في أيّ من أحوالكم، كذلك‏ وَ لا رَشَداً: لا لنفسي و لا لكم، اللهم‏ إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ‏:

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً. إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً. حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً.

لا فحسب‏ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً بل و لا لنفسي أيضا، لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ لو أراد بي ضرا وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً و إن كان لي مجير و ملتحد فهو ليس إلا هو، و ما أنا إلا رسول لا أملك و حتى رسالتي، فلا أملك فيما يملك إلا بلاغا من اللّه و رسالاته، ملكا منه و بإذنه، فلو شاء لذهب برسالتي و بلاغي و كما يميتني: وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا (17: 86).

هنا و هنالك نجد الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلم يؤمر أن يتجرد- نافضا يديه- من كل ادعاء لشي‏ء هو من خصائص الربوبية، ناقضا جارفا كافة الخصائص المزعومة لأنبياء اللّه و سواهم من قبل، حاصرا كيانه في‏ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ‏ و بذلك يتجرد الجن- و أحرى- عما يتقول لهم من المقدرة على الخير و الشر، و تتفرد الذات المقدسة الإلهية بهذه التصرفات، و يستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الصريح.

ثم يختم (ص) تصريحاته تلك بتصريحة رهيبة مروعة جادة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 200

انه لا يملك حتى البلاغ الإلهي سلبا و إيجابا، فكما لا يملك لكم ضرا و لا رشدا، إلا بلاغا من اللّه، كذلك: لن يجيره من اللّه أحدا و لن يجد من دونه ملتحدا إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ‏ ففيما يملك البلاغ، لا يملك سلبه و لا إيجابه إلا من اللّه، فانها ليست تطوعا يتقدم به صاحب الرسالة، و إنما تكليف صارم جازم لا محيد عنه و لا مفر من أدائه، فاللّه من ورائه.

فالبلاغ البالغ اللائق من اللّه، قلبا و قالبا، عقيدة و عملا، تضحية و فداء:

هذا البلاغ يجيره من اللّه، و هو ملتحده من اللّه، و هو الذي يملكه من اللّه بما ملكه إياه، فلو عصاه في بلاغ الرسالة لعذب في المعذبين:

وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ‏ عصى اللّه في محكم كتابه، و عصى رسوله في سنته الجامعة، فعاش حياة العصيان المزدوج‏ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً.

فمجير الرسول و ملتحده هو بلاغه من اللّه، و ملتحد غيره و مجيرهم طاعة اللّه و رسوله، و قد تلمح الآيات أن جماعة من لبد الكفر و الشر طلبوا منه ترك البلاغ أو تخفيف وطأته فيضمنوا له الإجارة من اللّه و ملتحده، فيبتدر بجوابه الحاسم:

لا. و حقا لا، إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ‏:

بَلاغاً مِنَ اللَّهِ‏: بلاغ التعريف بتوحيده و ربوبيته لمن جهله أو تجاهل عنه أو عانده- و «رسالاته» لإخراج الناس من الظلمات إلى النور و هديهم إلى صراط العزيز الحميد، دون خشية و لا مسايرة الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ حَسِيباً.

حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً:

تنديد شديد و تهديد عتيد لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي، فإذا يركن العاصون إلى عدد و عدد، و يستصغرون قوة صاحب الرسالة بجنب قوتهم، فسيعلمون غدا من أضعف ناصرا و أقل عددا، و أي الفريقين أحق بالأمن، و لكن متى؟ إذا رأوا ما يوعدون، و ذاقوا و بال أمرهم و لهم عذاب مهين؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 201

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً.

تلمح الآية أنهم سألوا الرسول متعنتين مستهزئين، عن زمن العذاب، كأنه يعلم من غيب اللّه شيئا، فيؤمر أن يتجرد نافضا يديه من غيبه ايضا، كما تجرد عن كل اختصاصة من اختصاصات الربوبية،: قل إن أدري أ قريب العذاب على الأبواب، أم يجعل له ربي أمدا في الأولى، أم الأمد العام لكل نفس لدى موته،- فمن مات فقد قامت قيامته- أم أمد القيامة، و لا علم لي لا بقربه و لا أمد من آماده الثلاثة، فانه من الغيب:

عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً. لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً.

عالِمُ الْغَيْبِ‏ من اختصاصات الألوهية علم الغيب، لا الغيب الذي يظهر بالتعلم أو التفكير أو الارتياضات النفسانية، فإن بابه مفتوح لكل من دقه حقّه، و إنما هو ما لا ينال بأية وسيلة غير إلهية، و هذا الغيب منه مكفوف عمن سوى اللّه، و حتى ملائكة الوحي و رجالاته، فهو الغيب المطلق الذي لا يظهر، و لا يظهر اللّه عليه أحدا، و منه مبذول لمن ارتضى من رسول، يبذله لهم بالوحي دون أن يبذّله لغير المرتضين‏ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ‏ «1».

و الإظهار على الغيب هو التغليب عليه، إما تعليما كسائر الوحي في الكتب المنزلة على رجالات الوحي، وحي الأحكام و وحي الوقائع: الغابرة و الحاضرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 442 عن الباقر (ع) ان لله عز و جل علمين علم مبذول و علم مكفوف فاما المبذول فانه ليس من شي‏ء تعلمه الملائكة و الرسل الا نحن نعلمه و اما المكفوف فهو الذي عند الله عز و جل في ام الكتاب إذا خرج نفذ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 202

و المستقبلة، كلّ حسب منزلته الرسالية فان الرسل درجات‏ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ‏ فمراحل الوحي هذه من إظهار الغيب علميا.

و قد يكون تغليبا على الغيب عمليا، علمه الرسول أم لم يعلمه، كسائر المعجزات، فمنها ما يظهر اللّه عليه رسوله علما بما فيه و عمل الواقع كمعجزة القرآن، تجري على لسانه، و يعيها قلبه، و يطبقها بأركانه، و منها ما لا ينال الرسول إلا عمله، فلا يملك علمه و حقيقته، كإحياء الموتى و قلب العصا حية تسعى، فإنهما من الغيب الخاص باللّه، يظهر عليه البعض من رسله عملا للتدليل على رسالتهم الإلهية، فمعجزاتهم هي أفعال اللّه تجري بهم حجة لهم، فمنهم من يعلمها كما يفعلها كإبراهيم‏ .. رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏ .. إذ طلب من ربه أن يريه و يظهره على حقيقة إحياء الموتى، و منهم من لا يعلمها كما نفصله في آيات المعجزات و منها وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (10: 20) تعني أن الآيات المعجزة هي من غيب اللّه، لا تعدوه إلى سواه، و الرسل لا يملكون إلا إظهارها بإذن اللّه، دون علمها إلا من أراه اللّه كإحياء الموتى لإبراهيم و كالقرآن لمحمد (ص).

فعلم الغيب مبدئيا خاص باللّه، و الآيات التي تحصره باللّه تعني العلم الذاتي بالغيب فلا تنافي علم من ارتضى من رسول، فانه أيضا من علمه لا منهم كبشر، و آية الإظهار هذه تغنينا من القيل و القال، و تريحنا عن تفتيش الأقوال و نقدها، فالتي تختص علم الغيب باللّه إطلاقا، هي بين ما تعني العلم الذاتي‏ وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ (6: 59) و قد يعلّم البعض منها من ارتضى من رسول‏ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ (3: 179).

و بين ما تعني مطلق العلم بالغيب ذاتيا و عرضيا و يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ ... يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ. قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 203

نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (7: 188) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (31: 34).

فالغيب الواجب إظهاره للرسل هو المعجزات و الشريعة، و قد يخبرهم بمغيبات أخرى تؤيدهم في رسالاتهم، و أما التي لا تمت بصلة للرسالة الإلهية، و هي من شؤون الإلهية، فلا يجب اظهار الرسل عليها، و هي خاصة باللّه تعالى، و هي المعنية بالآيات التي تختصها باللّه: .. وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ‏ ... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ (6: 50) و الوحي كما نعلم من علم الغيب الواجب إظهاره للرسل، لأنه كيان الرسالة.

من هنا و هناك نستوحى ان ليس الغيب الإلهي مبذولا للرسل دون حدّ، و إنما هو الغيب الكافل لحجة الرسالة و بلاغها، و كما تفيده آية الإظهار: فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ .. فهو يظهر الغيب الداخل في شؤون الرسالة، لا الخاص بشأن الألوهية، و كما كان غير المرسلين محرومين من غيب الوحي كذلك المرسلون محرومون من غيب الربوبية، و كما هم وسط بين الخلق و الخالق في الرسالة، كذلك هم وسط في علم الغيب.

فالرسل الذين يرتضيهم اللّه لتبليغ دعوته، يطلعهم على جانب من غيبه، ما يتعلق بموضوع رسالتهم، دون المتعلق بشأن الربوبية، إنما ما هو حجة بالغة لرسالاتهم، و ما هو المقصود منها من شرائعهم، و آيات الغيب ترمي الى هذا الاختصاص المبدئي باللّه، و التعميم العرضي للرسل في حدود رسالاتهم، ما يعاونهم على تبليغ دعوته، يكشفه لهم منذ الرسالة و طوال الدعوة، و هو مع ذلك يسلك من بين يديه و من خلفه رصدا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 204

فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً فان اللّه يسلك: ينفذ- من بين يديه:

يدي الغيب و المرسل إليه بالغيب، و من خلفه، ينفذ من هنا و هناك: رصدا ليعلم:

هنا النص يوحي كيف يتنزل الغيب بالوحي على الرسل المرضيين، من البداية و حتى النهاية و هي إبلاغ الرسل غيب الوحي للمرسل إليهم:

فبما أن الرسل بشر و أن الشيطان يلقي في امنياتهم، فهم بحاجة الى حفظ و عصمة إلهية في تلقي الوحي و إلقائه و تنفيذه من عدة جهات‏ وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ (32: 52) كما و ان‏ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (13: 11).

فاللّه تعالى ينفذ الوحي الغيب إلى من ارتضى من رسول، و ينفذ من بين يديه- قبل وصوله الى أن يوصل- رصدا: رقباء يحفظونه من خلط و دس الشياطين، و ليبلغ الى الرسل سليما، و ينفذ من خلفه: بعد البلوغ و البلاغ أيضا، رصدا ليسدوا عن الرسول إلقاءات الشيطان، و ليراقبوه في إبلاغ الرسالة و تنفيذها:

ازدواجية العصمة للرسل المرضيين من جهتين: الرسل الرصد من بين يدي الرسول و من خلفه، و روح العصمة التي ترصد الرسل في دواخل ذواتهم، ارصادا من الداخل و الخارج لكي يصل الوحي الغيب الى الهدف الأخير: اقامة المرسل إليهم على الهدى، دون تدخل للشيطان، و دون تخبط و خلط و شبهة في هذه السبيل، و بذلك ليس للشيطان سبيل على الرسل على طول الخط في تلقي الوحي و القائه و تنفيذه، فتمني الرسل ليس الا تنفيذ الرسالة الإلهية، و إلقاء الشيطان في امنية الرسل- كما تقول الآية- ليس إلا في واقع التنفيذ، ان الشيطان يخلط الرسالة على المرسل إليهم، و اللّه ينسخ هذه الإلقاءات و يحكم آياته واقعا كما أحكمها في وحيها الى حملة الرسالات: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ‏ إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ‏ فالمرسلون المرتضون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 205

ليسوا من الغاوين حتى يلقي الشيطان في قلوبهم و أفكارهم و وحيهم، و هو اشرّ السلطان و الغواية الكبرى! و هم من عباد اللّه المخلصين، فيلغى شمول آية الإلقاء عن ساحة المرسلين، الى المرسل إليهم، و اللّه ينسخ عنهم أيضا إلقاءات الشيطان ثم يحكم آياته.

كل ذلك علامة لمن لا يعلم: أن قد أبلغوا رسالات ربهم‏ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً:

ليعلم اللّه، من العلم بمعنى العلامة، لا العلم، فانه يعلم السر و أخفى!:

وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً فهو إذ يحيط بما لدي الرصد و الرسل، و إذ يحصي كل شي‏ء عددا، إذا كيف تكون الغاية من سلك الرصد أن يعلم اللّه سبحانه؟ أعن جهل و هو المحيط المحصي؟ كلا! انه علم و ليس علما، انه تعالى يجعل الرصد على طول الخط في بلاغ و تنفيذ الوحي، و يجعلهم علامة لهم و لملك الوحي، و للتبين‏ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ‏.

و كما ليس‏ لِيَعْلَمَ‏ من العلم، كذلك لا يرجع ضميره الى الرصد فإنهم جمع و هو مفرد، و لا الى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلم إذ لم يسبق له ذكر إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ‏ و هو جمع يعم الرسل أجمع، و لأن وحدة السياق تحكم أن صاحب الضمير في الأحوال الثلاث «يعلم- أحاط- أحصى» واحد، و هو اللّه الذي أحاط بما لدى الرسل و أحصى كل شي‏ء عددا.

فهو الذي يسلك بين يدي الغيب و الرسول و من خلفه، رصدا مراقبين، ليجعل هذه الرقابة الشديدة على غيب الوحي علامة: ان قد أبلغوا رسالات ربهم: حال أنه أحاط بما لديهم و أحصى كل شي‏ء عددا، فليس هو بحاجة إلى علامة البلاغ، و إنما رسله الملائكة و البشر و كذلك المرسل إليهم.

لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ‏: يعلم غاية لسلك الرصد، و أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ‏ يلمح لحدود الغيب الإلهي الذي يظهر عليه رسله، انه ليس إلا للبلاغ، بلاغ الرسالة بغيب المعجزات، و بلاغ الرسالات بغيب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 206

التشريعات، دون أن يصبح علمهم بغيب اللّه أو غلبهم به عمليا، يصبح من الكمالات الذاتية و الحظوظ العقلية و العلمية، فلا تعني الآية ظهور الرسل على كل غيب، و لا الغيوب التي لا تمت بصلة لرسالتهم و رسالاتهم، و إنما التي تهمهم كرسل مبلغين عن اللّه، لا كمرتاضين يخبرون عن الغيوب العادية لحظوظ نفسانية و غايات تجارية و سباقات في ميادين المفاخرات.

فلئن سئلنا- إذا- لو كان الظهور على غيب اللّه خاصا بمن ارتضى من رسول فكيف يعلمه المرتاضون غير المرسلين، مرضيين و غير مرضيين؟ و كيف يعلمه الأئمة المعصومون و هم ليسوا بمرسلين؟

و الجواب كما لمحنا اليه مسبقا، ان المعني من غيب اللّه ما لا يحصل بأي سبب من تعلم و ارتياض إلا بالوحي، و ليس غيب المرتاضين من غيب الوحي، فهو يحصل بصناعة الارتياض للمؤمن و الكافر سواء.

و اما الأئمة المعصومون فليس غيبهم بالوحي و إنما بما أودعهم الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلم من غيب الوحي‏ «1». و هم أبواب علمه و استمرار لكيانه الرسالي.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 442 عن الامام الصادق (ع) قال: ان لله عز و جل علمين: علما عنده لم يطلع عليه أحدا من خلقه، و علما نبذه الى ملائكته و رسله، فما نبذه الى ملائكته و رسله فقد انتهى إلينا.

أقول: و هذا الحديث متواتر معنويا عنهم عليهم السلام. راجع المصدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 207

سورة المزمل- مكية- و آياتها عشرون‏

[سورة المزمل (73): الآيات 1 الى 20]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (4)

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلاً (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً (7) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9)

وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (10) وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَ جَحِيماً (12) وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً (14)

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (15) فَعَصى‏ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (17) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (18) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلاً (19)

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى‏ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى‏ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 208

\*\*\* يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا يؤمر نبي اللّه (ص)- بعد أمره بقراءة الوحي: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ‏ و بعد حمله الرسالة الكبرى- يؤمر هنا بالقيام ليلا و بالسبح الطويل نهارا، و يؤمر في المدثر بقيام الإنذار و تكبير الرب، و علّ القيام الثاني هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 209

السبح الطويل نهارا، و القيام الأول لتهيؤ الثاني: إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا فليعش الرسول الأقدس حياته قياما دون فتور، و سبحا في بحر المجتمع المتلاطم، لينجّي الغرقى فانه سفينة النجاة.

يوحي النص‏ الْمُزَّمِّلُ‏ بأنه كان متزملا حين الأمر، و لماذا؟ و في رمضاء الحجاز! لا بد و أنه من وطأة و فجأة، أوطأة الوحي الثقيل الذي بزغ له قبل قليل؟ كما قيل‏ «1» أم الحملة العنيفة السافرة في وجهه من صناديد قريش؟ «2» كما توحي له آيات من السورة: وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ‏ ... ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ‏ فتزمل من رعشة الوطئة، فأمر بالقيامين في المزمل و المدثر، قياما لتنفيذ الرسالة و مجابهة عراقيلها، دون أن يتزمل و يتدثر.

قُمِ‏ إنه لا يناسبك التزمل و التدثر، فليكن دثارك القيام و زميلك الإقدام ليلك و نهارك، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا قدر الضرورة الذي يساعدك في قيامك، فليكن مبدؤك القيام حتى في أوقات المنام رغم أن الناس نيام.

أنت تتلفف بثوب لتنام دفعا لهمّ الإيذاء، و غم الاستهزاء، و تخفيفا من وقعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أدركته رجفة الوحي حتى جثى و هوى الى الأرض و انطلق الى اهله يرجف يقول «زملوني. دثروني» ففعلوا و ظل يرتجف مما به من الروع و إذا جبرائيل يناديه‏ يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ‏. يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

(2)

الدر المنثور 6: 276- اخرج البزار و الطبراني في الأوسط و ابو نعيم في الدلائل عن جابر قال‏ اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا:

سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه فقالوا: كاهن- قالوا ليس بكاهن، قالوا: مجنون- قالوا: ليس بمجنون- قالوا: ساحر- قالوا:

ليس بساحر- قالوا: يفرق بين الحبيب و حبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي (ص) فتزمل في ثيابه و تدثر فيها فأتاه جبرائيل فقال:

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ‏ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 210

الوحي؟ لا! بل عليك القيام، و الاستعانة بالصبر و الصلاة و مكافحة الكروب العظام، و النوائب الجسام.

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا قم للأمر العظيم و القول الثقيل الذي سيلقى عليك، و العبئ المهيأ لك، قم فقد مضى وقت النوم، قم فأنت لست لتعيش لنفسك، و لقد عرف الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم هذا الأمر مسبقا من ملامح الوحي و قدّره، فقال لخديجة رضي اللّه عنها- و هي تدعوه أن يطمئن و ينام-:

«مضى عهد النوم يا خديجة»!.

أجل- انه مضى و ما عاد منذ اليوم إلا السهر و التعب و الجهاد الشاق و السبح الطويل في بحر المجتمع المتلاطم.

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ‏:

يخيّر نبي اللّه هنا في قيام الليل و نومه بين مقادير أربعة: 1- قيام الليل إلا قليلا: ثلثيه فما فوق، فأكثر القليل منه ثلثه ثم أقل و أقل‏ «1» 2- نصفه، و هو ليس قليلا من الليل، و إنما نصفه عدلا بين قيامه و نومه إذا احتاج اليه، 3- أقل من النصف، أن ينقص من نصف القيام قليلا 4- أكثر من النصف أن يزيد على نصف القيام، فأكثر الواجب في قيامه من ثلثي الليل و ما فوقها، و أقله أقل من النصف قليلا، و بينهما متوسطات و منها نصفه.

نرى التركيز هنا و هناك على قيام الليل- أيا كان- دون تصريح بنومه إلا ايحاء الضمائر: قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ابتداء بقيام ثلثي الليل، ثم «نصفه» أو قم نصفه «أو انقص منه قليلا»: انقص من نصف القيام قليلا «أو زد عليه»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فما يروى ان القليل المستثنى من الليل هو نصفه خطأ او جهل من الرواة لا المروي عنه كما

رواه في المجمع عن الصادق (ع) قال: القليل النصف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 211

زد على نصف القيام، فنصيب النقص ليس إلا قليلا، و نصيب الزيادة لا حد له إلا قدر المستطاع.

فطالما الليل سكن و نوم للناس لاستراحة البدن، و لكنه قيام لرسول اللّه إلى الناس ليشد وطأه و يقيم قيله، تأزيرا لقوة القلب و الروح، و تقويما لنطق اللسان.

فعلى رسول اللّه قيام الليل قدر المستطاع، كله أحيانا و أكثره أخرى و نصفه أحيانا و ينقص منه قليلا أخرى، و لكنما الزيادة على النصف قدر المستطاع هو المرغوب الأصل‏ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ‏.

فأكثر الواجب إذا قيامه ثلثي الليل‏ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا كما و يؤيده‏ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى‏ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ‏ فليكن الواجب مخيرا بين ثلثيه و نصفه و ثلثه فأقله ثلث الليل‏ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا فنقص القليل من النصف ثلث النصف، فيبقى ثلث الليل‏ «1».

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا و لماذا ثلثا الليل، و لماذا الزيادة على النصف و النصف أيضا، أ لصلاة الليل و لا تشغل إلا سويعات؟ كلا- و إنما الزيادة لترتيل القرآن، تخلقا بأخلاق اللّه في تنزيله: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى‏ مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا (17: 106) و في ترتيله: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا (25: 32).

و ترتيل القرآن هو إرساله بسهولة و استقامة، سهل التعبير، مستقيم المعنى و كما

يروى عن النبي (ص) إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا و بينه تبيينا، لا تنثره نثر الدقل و لا تهذه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه و حركوا به القلوب، و لا يكونن هم أحدكم آخر السورة «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نفرض ان الليل 12 ساعة فنصفه 6 ساعات فإذا نقص منها ساعتان يبقى أربع ساعات و هي نصف الليل المفروض.

(2) الدر المنثور 6: 277 أخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا عنه (ص). و أخرجه العسكري في المواعظ عن علي (ع) عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 212

أقول: و هذا من مقربات الفهم و مجذبات الإتباع، فقد فرق اللّه القرآن طوال البعثة دون أن ينزله جملة واحدة، ليثبت به فؤاد الرسول و ليقرأه على الناس على مكث، و رتله عليه بتسهيل التعبير و المعنى ليرتله هو أيضا ترتيلا، و هو يعم اللفظ و المعنى تعبيرا و أداء و سبكا و كيفية «1»، كل ذلك لسهولة الإلقاء و التلقي متحللا عن كافة الصعوبات هنا و هناك، و هذا هو معنى الإعجاز في فصاحة التعبير و بلاغة المعنى، فليس التشابه في بعض الآيات من قصور الدلالة، و إنما من قصور المستدل و نبوغ المعنى، و على حد تعبير

الامام الرضا عليه السلام‏ المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا فما هذا القول الثقيل الذي سيلقى عليه، و لكي يتلقاه عليه أن يقوم لياليه مصليا مرتلا للقرآن؟.

هل هو القرآن و لو بعضا منه؟ و قد نزل عليه بعضه و أمر بترتيله! أم هو البعض الباقي: أكثره؟ فما هو الفرق بين قليله و كثيره، و كله ثقيل بأي معنى قيل! أم هو القرآن المحكم النازل عليه ليلة القدر، بين هذه السورة و بينها أقل من شهرين؟ علّه هو، إضافة إلى باقي القرآن المفصل، ففي القرآن المحكم النازل عليه دفعة واحدة، الملقى عليه ليلة القدر، ان فيه ثقلا ليس في مفصله النازل عليه نجوما طوال البعثة، ثم يتلوه ثقل الباقي من مفصله و هو أكثره، و في وحدة القول هنا «قولا» و انه يلقى «سنلقي» شاهد لفظي على أنه القرآن المحكم، إضافة إلى القرينة المعنوية المسبقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

عن الامام الصادق (ع) ان الترتيل هو ان تتمكث فيه و تحسن به صوتك،

و

في الدر المنثور 6: 277 عن النبي (ص) قال: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ و ارق و رتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها

و

فيه‏ سئل (ص) اي الناس احسن قراءة؟ قال:

الذي إذا سمعته يقرأ رأيت انه يخشى الله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 213

ان القرآن قول ثقيل لعظم قدره، و رجاحة فضله، و خلوده، دون أن يمسه نسخ أو تحريف، و قد يثقل الأمة المتمسكة بحبله، المنفذة لأحكامه، و لذلك سماه الرسول (ص) أكبر الثقلين و أعظمهما و أطولهما و أتمهما فيما تواتر عنه، و سمى عترته الثقل الأصغر.

و لقد كان القرآن ثقيلا لدى اللّه في أم الكتاب‏ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (43: 4) فعلوّه هناك و حكمته: ثقله، ثم نزل ليلة القدر دفعة، ثم طوال البعثة نجوما، نزل ثقيلا على الرسول (ص) حيث‏

يقول: «فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض» «1»

«فانه كان يتغير حاله عند نزوله و يعرق، و إذا كان راكبا تبرك راحلته و لا تستطيع المشي» «2»

و هذا ثقله في القرآن المفصل، ثم القرآن المحكم المجمل النازل ليلة القدر يزداده ثقلين 1- نزوله دفعة دون تفاصيل 2- إلقاءه عليه دون وساطة ملك الوحي، إذ لم يكن بينه و بين اللّه أحد، إذا فالقول الثقيل الذي سيلقى عليه هو القرآن المحكم، إضافة إلى باقي المفصل النازل عليه مفصلا: ثقلا على ثقل.

هذا ثقله في وحيه و قبله، ثم هو ثقيل في ميزان الحق- فان موازينه ثقيلة لا تخف أبدا- ثقيل في تطبيقه، ثقيل على الاخفّاء الناكرين له، فلا بد من ثقله في قلبه المنير لحدّ يفرغ قلبه عما سواه من مقال كما فرغ عمن سوى اللّه، و لقد أثر في قلبه هكذا و لحدّ كان يثقل على قالبه، فصاحب هذا القلب بحاجة في تلقي هذا الفيض الثقيل إلى مراس في تزكية قلبه بقيام لياليه بترتيله و ذكر اللّه.

هذا هو القول الثقيل، فإن القرآن ليس في معناه ثقيلا و لا في تفهمه و تذكره:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فقوله- إذا- ثقيل من حيث المقول، و كيفية إلقائه، و عرقلات تنفيذه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور (6: 278) عن عائشة عنه (ص).

(2) نور الثقلين (5: 447) عن عبد الله بن عمر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 214

إنه لا بد للرسول إلى الناس كافة- و كثير منهم من النسناس- أن يحمل هذا القول الثقيل، لأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى ثقيل، و الاستقامة على هذه الرسالة الشاملة الأخيرة وراء الهواتف و الجواذب و المعوقات و العراقيل، إنها لثقيل ثقيل، فلا بد له في ميادين الكفاح من حمل هذا القول الثقيل، فليتزود من قيام الليل لتلقي هذا الثقيل، و لكي يسبح في نهاره الطويل سبحا طويلا.

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ثقيل المصدر و الصدور، ثقيل المحتد و الدوام، ثقيل المنزل و النزول، ثقيل التنفيذ مستحيل الأفول، على سلاسة تعبيره، و نفاذ أمره و عبيره.

إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا.

فرض عليك- كرسول إلى الناس كافة- قيام الليل لدوافع و منافع عدة:

1- إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا فلا بد له من التهيؤ 2- إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا لا يبقى لك معه مجال القيام بالصلاة و ترتيل القرآن 3- إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا: فناشئة الليل هي العبادة التي تنشأ بعد العشاء، نشوء النور في الظلام، فالعبادة التي هي وليدة الليل و ناشئته، تفضل على عبادة النهار من حيث الوطء و القيل، و لقد كان قيام الرسول (ص) بعد العشاء بسويعات منامه القليل، و هو إذ أمر بقيام الليل كان أمرا بقيامه: عن النوم، و بالعبادة، تهجدا في أثنائه، و ترتيلا للقرآن في آنائه.

هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً: مواطاة: يواطئ فيها السمع القلب، و اللسان العمل، لقلة الشواغل العارضة، و اللوافت الصارفة، و لأن البال فيه أجمع، و القلب أفرغ، فالقراءة فيه أقوم، و الصلاة اسلم.

هي أشد مواطأة هكذا، و لأنها أشد وطأة: أوعث مقاما و أصعب مراما، فان مغالبة هتاف النوم و جاذبية الفراش، بعد كدّ النهار و سبحه الطويل، لها وطأتها و شدتها التي لا يطيقها إلا المخلصون، فناشئة الليل و وطأته أشد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 215

وَ أَقْوَمُ قِيلًا لأن قيله ثقيل إلا على الخاشعين، و أنه يصدر من لباب القلب و خالق القلب أعلم بمداخله و أوتاره، و ما يتسرب اليه و يوقع عليه، و أي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا و استعدادا، فللصلاة فيها خشوعا، و للمناجاة شفافيتها و لترتيل القرآن نورانيتها: إذا فوطأتها أشد، و قيلها أقوم، فإعدادها لسبح النهار- الطويل- أتم.

إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا و لا يناسب السبح إلا في غمرات المياه المضطربة الواسعة الفسيحة، فان لك اضطرابا في غمرات المجتمع، و تقلبا في جهاته، و متصرفا و متسعا، و مذهبا منفسحا، تقضي فيه أوطارك، و تبلغ مآربك، و تنجي الغرقى من ورطات الغمرات العميقة، و تحارب أمواجه الضاربة في الأعماق، المضطربة، فهذا السبح الطويل في نهارك، بحاجة إلى تسبيح طويل في ليلك، تسبيح يعدك للسبح، و لكي تنجو من ورطاته، و تنجي الناس جميعا من غمراته، فانك سفينة النجاة!.

وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا: فقيامه (ص) يشمل ناشئة الليل، بصلاته و ترتيل القرآن، و ذكر اسم الرب، و التبتل اليه تبتيلا، و ليأخذها زادا في سبحه الطويل.

وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ‏: و لأنك تحمل في رسالتك بلاغ الربوبية و التربية الإلهية، فعليك أن تذكر اسم ربك بقلبك، فهو مصدر الذكر و مورده أولا و بقالبك: بلسانك و جوارحك و في كافة تصرفاتك، ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر، و أكمله الصلاة فانها كلها ذكر اللّه و تحميده و تمجيده و تعظيمه بالأقوال و الأفعال و الإشارات.

وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .. هكذا ذكر شامل كامل يبتّلك إلى ربك، فالانقطاع إلى اللّه على قدر الواقع من ذكر اللّه، و التبتل إلى الرب هو الانقطاع الكلي عما سواه و الاتجاه التام اليه، و الانفلات من كل شاغل و خاطر، لكنما المرجو من تبتلك أن يحمل معه التبتيل‏ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا لا «تبتلا» تبتلا لك يحمل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 216

تبتيلا لمن أرسلت إليهم، فكما كان قيامك بالليل تهيؤا لتلقي القول الثقيل، و لتسبح نهارك الطويل، كذلك ليكن تبتلك للتبتيل.

فليس الإتيان بالتبتيل هنا لمجرد رعاية الوزن و التجميل «طويلا. تبتيلا» فالقرآن كتاب معنى قبل أن يحمل الوزن في التعبير، و قد يناسب وزن المعنى وزن التعبير كما هنا وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا تبتلا ينحو في طياته منحى التبتيل لتنقطع إلى اللّه، لك كمحمد، و للمرسل إليهم كرسول، فكما على الرسول أن يتبنى شخصه ليصلح لحمل الرسالة ضمن صناعة نفسه كعبد شكور، فعليه- كرسول- أن يتبنّى المجتمع الذي أرسل إليهم.

ثم هناك نكتة أخرى هي أدق و أرقى: أن المنقطع إلى اللّه مشغول عما سواه و المنقطع إلى ما سوى اللّه مشغول عن اللّه، فالجمع بين التبتل- و هو الاشتغال التام باللّه- و بين التبتيل، و هو الاشتغال بغير اللّه ليقطعهم عما سوى اللّه: ان هذا الجمع لصعب مستصعب، لكنما الرسول يؤمر في تبتله بالتبتيل، ففي حين انه مشتغل باللّه عما سواه، إنه يشتغل بما سواه لتوجيههم إلى اللّه، و هذا هو مقام الجمع في الوحدة و الوحدة في الجمع، يسبح نهاره طويلا في الدعوة إلى اللّه، و يلاقي الصعوبات و الحرمانات في اللّه، و هو متبتل إلى اللّه و مبتّل سواه عما سوى اللّه، فذكره ذكر واحد، و عمله واحد، طالما يختلف في صور الصلاة و ترتيل القرآن و ذكر اللّه، و في الجهاد و الدعوة إلى اللّه، فإنه ينحو في هذا السبح الطويل منحى اللّه، فتبتّله تبتيل، و تبتيله تبتّل!.

و لطيفة ثالثة: هي أن التبتل هو تقبل للبتل، و التبتيل هو فعله، فقد يعنى بالأول قبوله العصمة الإلهية في انقطاعه إلى اللّه، و بالثاني محاولته لانقطاعه و من سواه إلى اللّه، و النتيجة أن انقطاعه الخاص إلى اللّه ليس من فعله هو فحسب، و ليس تسييرا إلهيا فحسب، و إنما هو أمر بين أمرين، جذبة إلهية متممة لمحاولة الانجذاب و الانقطاع إلى اللّه، و كما العصمة في كافة مراحلها ليست إلهية خالصة و لا بشرية خالصة، إنما هي سعي حسب المستطاع من المعصوم في البداية، ثم جذبة الهية، ثم سعي ثان يوافق و يساير تلك العصمة الخاصة الإلهية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 217

فحاصل المعنى من الآية أنه (ص) أمر بتبتل التبتيل: ينقطع إلى اللّه على ضوء توفيق اللّه، و سعيه هو كما يناسب تبتل العصمة، و في نفس الوقت يبتّل غيره الى اللّه، ثم لا يشغله الاشتغال بغير اللّه في رسالته، عن اللّه، معان ثلاثة هامة تعنى من كلمات ثلاث‏ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا.

و ليكن كذلك‏ وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ‏: انه ذكره تعالي في نفسه و أعماله و علاقاته الشخصية مع اللّه‏ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ‏ و ذكره في نفس الوقت لمن أرسل إليهم‏ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً (4: 63) دون تفاوت بين الذكرين، فإنهما ذكر واحد للّه، كما ان تبتله واحد للّه.

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا.

لئن سئلت: لماذا التبتل اليه وحده لا سواه؟ فالجواب أنه «ربك» لا فقط بل و رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ‏: العالم كله بما أنه لا يخلو من شارق و غارب أيا كان، فالكون كله بين مشرق و مغرب، لا يخلو عنها أي كائن، و لأنه رب الكائنات أجمع. ف «لا إله إلا هو» و لربوبيته المطلقة و ألوهيته الوحيدة فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا فالتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في الكون كله، و هو وحده الثمرة المباشرة للاعتراف بوحدانيته، و الرسول المنادى بالقيام و بالسبح الطويل نهار الدعوة، إنه في حاجة ماسة لعبثه الثقيل في طريقه الشاق الطويل، إلى تبتل إلى ربه و توكل عليه، و لكي يكافح كافة العراقيل في سبيله.

بديهي أن الإنسان و كل كائن أيا كان، لا يستطيع أن يحيى حياة سعيدة و يحيي غيره بها، بطاقاته الشخصية، فلا بد له من وكلاء واعون، و بما أن من سوى اللّه كيانهم الفقر إلى اللّه، لا يملكون إلا ما ملّكهم اللّه، فلا غنى في توكيلهم مهما كانوا أقوياء، فهم بين قاصر و مقصر، فكيف يتوكل عليهم، و إنما اللّه وحده هو الذي يحق أن يتخذ وكيلا، و لا يتخذ هو وكيلا، و بينما نحن موكلّون و موكلّون، لم يكن اللّه إلا وكيلا، فيما اتخذناه وكيلا و ما لم نتخذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 218

وكيلا، فالوكالة هي الاعتماد- فيما تقصر عنه القدرة و العلم و الحياة- على من له هذه القدرات أكثر من الموكل، أو ما يقصر عنه الوقت لكثرة الأشغال، و الخلق كلهم قاصرون في هذه و تلك: مهما كان البعض أقوى من البعض، و لذلك يتوكل الضعيف على القوي، و لكنه لا غنى في هذه الوكالة القاصرة، و إنما الوكالة الإلهية هي الكافية الكافلة لما نبغيه، بعد ما كلّت مساعينا عن الوصول إلى المأمول، ما لم يكن خلاف الحق و المصلحة: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً (65: 3).

إن أسس الوكالة الناجحة غير الفاشلة، لا توجد إلا في اللّه لا سواه: من سعة العلم: وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا (7: 89) و العزة و الحكمة:

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (8: 49) و الحكم في التكوين و التشريع: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12: 67) و انه المرجع للأمر كله: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ (11: 123) و لحياته السرمدية: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ (25: 58) و بصورة جامعة لأنه اللّه لا إله إلا هو كما في عشرات الآيات، و هو خالق كل شي‏ء و بذلك هو الوكيل على كل شي‏ء دون توكل، و على ما نبغيه مما له نسعى و إياه نطلب بالتوكل: خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ‏ (6: 102) فلولا وكالته تعالى على كل شي‏ء لخرجت إلى اللاشي‏ء، و لولا التوكل عليه لكلت المساعي دون الوصول إلى ما نبغيه من شي‏ء.

إنه ليست هناك وكالة إلهية لأحد على أحد و لا للرسول: إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ (11: 12) اللهم إلا وكالات فاشلة جزئية لا غنى فيها عن الوكالة الإلهية، و لا تعني وكالة اللّه بطلان المساعي و الأسباب، و إنما نقصانها، و لذلك تتم الأسباب و المساعي بالتوكل على اللّه خالق الأسباب و الساعين‏ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَكِيلًا (4: 81).

فالمسموح فيه هو السعي و توكيل الغير بغية الوصول إلى المأمول، و المحظور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 219

هو التوكل على غير اللّه، على نفسه أم سواها، فاللّه يوكّل و يتوكّل عليه، و من سواه يوكل و لا يتوكل عليه، و علينا وكلاء و موكلين جميعا أن نتوكل على اللّه في إطارات ثلاث: نتوكل عليه فيما نعمل رجاء النجاح، و نتوكل عليه فيما نأمل من وكلائنا، و يتوكل وكلائنا على اللّه فيما توكلوا فيه من موكليهم، فإليه يرجع الأمر كله. و كفى باللّه وكيلا.

وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا. وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا.

إن الصبر على تقولات الكافرين، و هجرهم هجرا جميلا، و على تكذيبهم لهذه الرسالة السامية، كل ذلك دليل أن المزمل نزلت بعد المدثر، نزلت بعد ظهور الدعوة و مجابهتها العراقيل و نعرات الفرية و التكذيب، كما و ان السبح الطويل نهاره، دليل على أن المزمل نازلة بعد تطبيقه القيام السافر العام في المأمور به في المدثر، و بذلك تؤيد الرواية الثانية أنه (ص) تزمل ذعرا ساخطا على تقولات قريش في ندوتهم الكافرة: انه ساحر أو مجنون نتربص به ريب المنون.

فهنا يؤمر الرسول بالصبر و الهجر الجميل و التمهيل القليل، بدل الجزع أو المقابلة بالمثل أو التنكيل، و انه صبر لصالح الدعوة، لا صبر المسايرة و الاستسلام صبر يحمل كل جميل في الدعوة، للداعي و المدعوين.

فالأمر بالصبر هنا يعني عدم الجزع الدافع الى الفرار عنهم: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ (68: 48) .. إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً (21: 87) خروجا عن الدعوة و فرارا عن المرسل إليهم، و كذلك عدم التزمل و الوقوف عن الدعوة، أو النقص فيها و التمهل عنها: وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ (10: 109) و عدم التحزن عليهم: وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (16: 127) و عدم الاستعجال لهم بالدعاء عليهم:

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (42: 35) و أن يكون استقامة في الدعوة و اتكالا فيها على نصر من اللّه: وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 220

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا (52: 48) لا صبر المسايرة و الطاعة لهم و الانفلات عن الدعوة:

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (76: 24).

و أخيرا الصبر عليهم نظرة النقمة الإلهية على الصامدين منهم في الكفر:

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَ نَراهُ قَرِيباً (70: 6).

فالصبر منه جميل، كهذه، و منه قبيح: كالصبر على هدر الأموال و النفوس و انتهاك الدين و الناموس و جاه الظالمين، و الصبر على نقص الدعوة و انتفاضها عن المدعوين و الصبر على الظلم و الضيم، و الصبر على ما للإنسان أن يدافع عنه: و إنما عليه الصبر الجميل و الهجر الجميل و الكلام الجميل و السكوت الجميل و النصيحة الجميلة التي تضم كل جميل في الدعوة، و ليس الهجر الجميل إلا هجرا عن الهجر و التنكيل حتى يحكم اللّه، و الهجر في تقولاتهم اللاذعة، عن المقابلة بالمثل، و لا خروجا عنهم و عن دعوتهم.

إن الرسول الأقدس (ص) لم يكن ليحارب المكذبين بداية الدعوة، لقلة العدد و العدّة، و لما تكمل الدعوة! و لذلك أمر بتأجيل الجهاد إلى زمن الهجرة، حين تكمل العدة و العدة: وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ (10: 109) و قد حكم اللّه بالجهاد منذ الهجرة، و حكم على الكافرين بالنار منذ الموت و ليوم القيامة، و لقد كانت أخلاقه (ص) جميلة مع الناس كافة على طول الخط، لحد يعفو عن الكفار عند فتح مكة المكرمة و هم في قبضته علهم يؤمنون، أو يندمون على ما فعلوا و افتعلوا.

وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ الذين يزدادون تكذيبا لأنهم مترفون:

و النّعمة هي التنعم مرة، و هي هنا الحياة الدنيا، و النّعمة هي الحالة الحسنة الشاملة للحياتين‏ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ. وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ. وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ. كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (44: 38) ذلك لأنهم‏ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ و هذا هو تبديل النّعمة نعمة عليهم و نقمة جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ ذرني و إياهم، فأنا حسبهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 221

وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا بينك و بين الهجرة الحاسمة جذورهم بالجهاد، و بينهم و بين قتلهم أو موتهم إلى عذاب النار و بئس القرار.

فلقد كان صبره جميلا على طول الخط، و امهاله القليل جميلا، و كله بأخلاقه و تصرفاته جميلا أينما كان، فحق له قول اللّه‏ وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ‏.

فحمل الرسالة الإلهية و تنفيذها ببلاغها بحاجة إلى صبر جميل: صمودا و استقامة للوصول إلى المغزى في سبيلها الشاق الطويل، فالصبر للرسول- هكذا- زاد و عتاد، و جنة و سلاح، و ملجأ و ملاذ، بجانب ما عنده من وسائل الدعوة و تدابيرها، صبرا مع النفس و شهواتها و انحرافاتها و ضعفها و شرودها و عجلتها و قنوطها، و صبرا مع أعداء الدعوة و كيدهم، و صبرا مع المؤمنين، على قلتهم، و قلة صبرهم، و كثرة استعجالهم، و صبرا مع عامة النفوس التي لا تخلو من تسرعات في حق أو باطل.

وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا و لو مهلتهم عمر الدنيا فهو قليل، فكيف بأعمارهم التي ليست إلا قليلا في قليل، و كيف بإمهالهم إلى زمن الهجرة و هو أقل من القليل، فلتصبر هنا و هناك صبرا جميلا، و لتمهلهم قليلا:

إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَ جَحِيماً وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً.

فلدينا من أنكال ما ليس لديك مهما كان نكالك عليهم شديدا.

إن أنكال النار و قيودها و أغلالها هي هي التي قدموها لأنفسهم يوم الدنيا إذ كانوا أنكالا في سبيل اللّه، و كانت عليهم أغلال الشهوات فاثّاقلوا إلى الأرض و رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، فأكملت شهواتهم يوم الدنيا، ثم ظهرت أنكالا يوم الدين جزاء وفاقا.

طَعاماً ذا غُصَّةٍ: الذي يمزق الحلوق و يحرق الحناجر، كما كانت حياتهم غصة و كان الحق شجى في حلوقهم، كما كانوا شجى في حلوق المؤمنين و قذى في أعينهم، و بصيغة شاملة كانت حياتهم عذابا أليما على الدعوة و الداعين و المدعوين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 222

فانتقلت إلى عذاب أليم عليهم يوم الدين:

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا.

رجفة الأرض و الجبال- هذه: هي الرجفة الأولى المدمرة لها، ثم تتلوها الرجفة الثانية الرادفة لها، المحيية لأمواتها: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ و مواصلة الرجفتين تجعل الأولى كأنها الثانية، و لأنها بداية القيامة، فتعتبر الأولى- و هي رجفة الإماتة- كأنها يوم النكال، و الطعام ذو غصة و العذاب الأليم، و هي كلها بعد الرجفة الثانية: الإحياء!.

و على أثر هذه الرجفة المدمرة تصبح الجبال كأنها «كانت» منذ كانت‏ كَثِيباً مَهِيلًا: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ و الكثيب المهيل هي الرمل المتراكم المنقلب أسفله أعلاه، فكما تخرج أثقالها في زلزالها، كذلك الجبال تقلب في ترمّلها و تدمّرها، فتظهر قواعدها الأعماق رملا متراكما محترقا.

فإذا تتفتت الأرض و تنهار، و تكثب الجبال و تحتار، فكيف إذا تكون أحوال الناس المهازيل الضعاف في قبضة العزيز القهار؟

إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ رَسُولًا. فَعَصى‏ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا.

رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ‏: تلقيا لما تقولون و تعملون و تفكرون يوم الدنيا و إلقاء لهذه الشهادة يوم الدين، فكما أن لكل أمة شهيد هو رسول لهم: كذلك- و بأحرى- رسولنا شاهد عليكم بأكمل معاني الشهادة، و شاهد كذلك على كافة الشهداء و المشهود عليهم يوم الدين: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ (16: 89) فهو يتحمل شهادتهم يوم الدنيا و يؤديها كما تحمّل، يوم الدين.

كَما أَرْسَلْنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فرسالة محمد (ص) أشبه برسالة موسى ممن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 223

سواه، و كما تحكم بهذه المماثلة السامية آية توراتية تحمل بشارة مهمة للرسول الأقدس محمد (ص) و ها هي باللغة العبرانية:

نابي‏ء آقيم لاهم مقرب احيحم كموشه و ناتتي دباري بفيو و يدبر إلو هيم إت كال أشر أصونو (سفر التثنية 18: 17).

نبي أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى و أضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به‏ «1».

و هذه المماثلة هي في استقلال الشريعة، و ان كتابه من وحي اللّه لفظا و معنى و فيما أصيب محمد من كفار قومه كما أصيب موسى من آل فرعون، فأخذه اللّه أخذا وبيلا: ثقيلا هو وابل العذاب كالمطر الجارف، و هنا الآية تتهدد العصاة الطغاة على الرسالة المحمدية بالأخذ الوبيل، يهزّ قلوبهم هزّا ساحقا، و يخلعها بعد رجفة الأرض و كثب الجبال المهيل، علهم يتذكرون و يحذرون من أخذة الدنيا و الآخرة، فليأخذوا حذرهم بين الأخذتين في هذه الحياة القصيرة، فليتقوا هنا بأس اللّه قبل أن يأتيهم:

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً. السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا.

و لنفرض أنكم اتقيتم عذاب اللّه يوم الدنيا، أم لم يأتكم فيها وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ‏ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ‏ و متم على الكفر يَوْماً يوم الرجفة الطامة التامة، من وقعته و شدته: يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً فانه الهول الذي تنشق منه السماء و تخر الجبال هدّا، فكيف بالولدان الضعاف، فتراهم كأنهم شيب من بياض نواصيهم و انحداب ظهورهم، و انكماش جلودهم، لا لخطيئة اقترفوها فإنهم قاصرون، و إنما هذه طبيعة هذا اليوم التي ترتسم في الطبيعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفصيل الى كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص 33

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 224

الصامتة أيضا، ففي الانسانية الحية اولى! و إذ يصبح الولدان شيبا و هم قاصرون فكيف بالكفار المكذبين و هم مقصرون، فهناك وقعة تتقى هي عذاب اللّه، تتقى بالإيمان باللّه، و وقعة لا تتقى، و ليست هي عذابا، و إنما توحي بشدة بالغة لا تبقي و لا تذر، و هي رجفة الإماتة و التدمير، فالولدان الذين هم أطفال، لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب، أو طارق كرب، لشابوا في هذا اليوم لعظيم أهواله و فظاعة أحواله، و إنها وقعة هي كعذاب: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ‏ تنفطر به السماء و تنشق و تكشط و ترجع رجعا، فكيف لا ينفطر هذا الإنسان الهزيل الذليل؟ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا لا هوادة فيه و لا رجعة منه!:

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا.

و إنها تذكرة بالغة لمن أراد أن يتذكر، فمن شاء الادّكار اتخذ إلى ربه سبيلا قدره، و من شاء أن يسلك سبيلا إلى ربه فزاده أن يتذكر، إن السبل إلى اللّه كثيرة و كذلك إلى الشيطان: وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (6: 153) و أنجح السبل الى اللّه هو صراطه المستقيم، ثم ما دونه من السبل من حق اليقين و عين اليقين و علم اليقين و الظن، و أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 225

تلمح هذه الآية- و هي الأخيرة من السورة- أنها نزلت بالمدينة، و ما قبلها مكية كلها، فان حكم الجهاد و الزكاة نزلا في المدينة، و قد صبر الرسول على ما يقولون طول مقامه بمكة، و هجرهم هجرا جميلا كما أمر، حتى جاء حكم اللّه بالجهاد في المدينة، و بما أن المزمل من أوّليات ما نزلت على الرسول (ص) في مكة، و لا أقل بعد ثلاث سنين من بداية الدعوة، إذ أمر بالمجاهرة فيها، و أن الآية الأخيرة فيها تتضمن الجهاد و الزكاة و هما في المدينة، من هنا و هناك نتأكد أو نرجح أنها نزلت بعد الآيات الأول بعشر سنين كما قيل، و القول بسنة أو ثمانية أشهر- إذن- لا يوافقه الدليل.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 15)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 226

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى‏ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ‏.

لقد خيّر الرسول الأقدس في ظاهر الوحي الأوّل بين هذه الثلاث فرضا واجبا و لمّح فيه إلى ثلثي الليل كأنه الرابعة و المفضلة على الثلاثة، و كأنه من أطراف الواجب و ليس منه: قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ ... فلم يقل و نصفه و إنما «نِصْفَهُ» كأنه الليل إلا قليلا أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا: ثلثه‏ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ‏: على النصف، بينه و بين الثلثين، و لقد استمر الرسول بين الآيتين عشر سنين بقيامه: أَدْنى‏ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ‏ دون ثلثيه إلا قليلا، فلم يترك واجبه التخييري، و إنما لم يستمر في ثلثيه و لم يكن من أطراف الواجب أو كان و لم يكن مؤكدا، بدليل عدم اداة التخيير بينه و بين الثلاثة الأخرى «أو».

و لأنه تعالى كان يعلم واقع اختياره (ص) كما يسعه‏ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى‏ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ‏ لذلك لم يفرض عليه ثلثيه لكي لا يذنب بتركه، أو لا يكون تاركا للأرجح من أطراف الواجب التخييري، و لقد كانت صلاة الليل فريضة عليه دون المؤمنين، أو انها قيام الليل الشامل لصلاته، يدل على ذلك كونه نافلة له: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى‏ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً و ليست النافلة هنا هي الزائدة على فرض الأمة، فقد أمر بالتهجد هنا أمرا خاصا، ثم عدم إحصاء طائفة من الذين معه‏ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ‏ دليل ثان أن قيام الليل هكذا لم يكن واجبا على الأمة، فكيف يفرض عليهم ما لن يحصوا أوقاته؟ فَتابَ عَلَيْكُمْ‏: تاب عليهم في فرضه فلم يفرضه عليهم، فلم تكن التوبة عليهم عن عصيان في ترك الواجب، و إنما عن فرضه عليهم، فقد عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ‏ و هذا قصور ذاتي يمنع عن هكذا تكليف، ثم قصور احياني:

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى‏ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 227

فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ‏ لهذه الأعذار الذاتية و الوقتية أبدل لهم قراءة ما تيسر من القرآن بقيام الليل.

من هنا و هناك نتأكد أن الآية تقتسم إلى خطابين: موجّه إلى الرسول حاملا التخفيف له عن فرض القيام ثلثي الليل، لأنه تعالى كان يعلم واقع المستطاع له (ص) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى‏ .. و إبقاء على التخيير الثلاثي المستطاع:

أَدْنى‏ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ‏ و لأن فعله هكذا و إحصاءه كان في إمكانه و لو لم يكن يحصي الأقسام الثلاث، لم يكن محصيا لليل، و لو لم يلق اليه قول ثقيل، و لم يكلف نهاره بالسبح الطويل، لم يك قيام الليل واجبا عليه هذا الطويل الطويل، و الثقيل الثقيل.

ثم خطاب ثان يوجّه إلى طائفة من الذين معه، عفي لهم عن فرض قيام الليل و أبدل به قراءة ما تيسر من القرآن‏ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ‏ و بما أن «طائفة» مرفوع، لا منصوب حتى يعطف على المنصوب في «انك» نتبين أن قيام الأدنى من ثلثي الليل و نصفه و ثلثه لم يعطف لهم، فلم يكونوا قائمين مثل الرسول، و إنما طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ‏ ... عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ‏ فالجملة الثانية خبر طائفة، تخبر عنهم أنهم لن يحصوا الليل، فلن يقدروا على تحقيق التخيير الثلاثي‏ فَتابَ عَلَيْكُمْ‏ توبة عليهم في فرضه، لا عن عصيانهم بعد فرضه‏ «1»، فكيف يفرض عليهم القيام الثلاثي ليلا و هم لن يحصوه، إضافة إلى قصورهم الاحياني- مع القصور الذاتي العلمي-: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى‏ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ‏ فكان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالتوبة و هي الرجوع قد تكون من العبد الى الله، رجوعا الى طاعته بعد العصيان، و قد تكون من الله على العبد و هي اما قبول للتوبة عن العصيان، او رجوع بالرحمة على العبد بعد ما ضيق عليه او كان بحيث يضيق عليه لولا مزيد رحمته، و هي المعنية بتوبته تعالى هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 228

قيام الليل صعبا عليهم لهذه الأعذار و لو عفي عن التقادير المعينة الثلاثة فيه، فأبدل لهم به قراءة ما تيسّر من القرآن.

و أما الرسول (ص) فبما أنه كان يحصي الليل، و لذلك فرض عليه القيام المسبق، فهو لا يعفى له عن قيامه، و عليه تحمل العب‏ء في قيامه، و في هذه الأعذار التي تعفي سائر المؤمنين عن فرض القيام، و لأنه يحمل القول الثقيل و السبح الطويل، فعليه ما ليس على غيره من التكليف الثقيل، و ليأخذ زاده و أهبته في هذا الطريق الشاق الطويل بعمره القليل القليل.

فقيام الليل- بصلاته و ذكره و دعائه و احيائه- من المندوب اليه للمسلمين كأنه فرض، و فرض على الرسول الأقدس (ص) و إنما عفي له عن ثلثيه و ما زاد، و عفي للذين معه عن فرضه إطلاقا و لكنه يداني الفرض.

و بما أن قراءة ما تيسر من القرآن ليست خارجة عن المستطاع، و لا أن شيئا من الأعذار المسبقة تنافيها، فلنا أن نثبت على ظاهر الأمرين فيها و نستوحي الوجوب، ليلا قدر المستطاع- إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا و نهارا قدر الميسور، فلنعش القرآن قراءة و تلاوة و تفهما و تذكرا و تصديقا و تطبيقا و نشرا و سماعا و إسماعا، و هكذا يجب أن يكون الذين مع هذا الرسول، و ليسبحوا معه نهار الدعوة سبحا طويلا في بحر المجتمع المتلاطم، فينجوا و ينجوا الغرقى الهلكى، فالقرآن بمن يحمله سفينة النجاة.

لقد ذكرت قراءة ما تيسر من القرآن هنا مرتين، مرة بعد ذكرى القصور الذاتي عن القيام الثلاثي الليلي: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ‏ فنيابة القراءة عن القيام ليلا، لا تكون إلا ليلا، و أخرى بعد ذكرى الأعذار المتعبة للقيام: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى‏ ... فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ‏ و علها تخص النهار أو تعمه و الليل، فان هذه الأعذار تمانع قيام الليل بصلاة أو قراءة، على الأكثر: فلا تكرار في الأمر بالقراءة هنا، ثم يتلو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 229

قيام الليل و قراءة القرآن ما ينتج عنهما: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏ و في قرنها بقيام الليل المسموح عنه عن المؤمنين ايحاء انها لا تخفيف فيها و لا تتحمله إلا شكليا كالصلاة، أو كميا كالزكاة فانها تتقدر بقدر المال المزكى، و أما أن تبدل الصلاة و الزكاة بغيرهما فكلا.

وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً.

فالأعمال كلها- من خير و شر- تقدم للعامل لا سواه، فليس للّه فيها مضرة أو منفعة، و لا لمن سواه، و إنما هي للعامل أو عليه، فقدموا لأنفسكم مما يتقدم إليكم من صالح الأعمال، فأنتم سوف تجدونها هي بأنفسها عند اللّه بما سجلتها المسجلات الإلهية، من أعضائكم العاملة و من الأرض بفضائها هُوَ خَيْراً تجدونها خيرا مما كانت، إذ تظهر بحقائقها و ألبابها دون قشور تسترها، و تظهر ليوم لا حاكم فيه إلا اللّه و أحسن أجرا فاللّه يزيد أعمالكم أجرا بفضله و رحمته‏ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏ اطلبوا منه و التمسوا لكي يغفر و يستر ما قدمتموه من طالح الأعمال أو صالحها الناقصة، ما دام المبدأ الأصيل في حياتكم ابتغاء مرضاة اللّه.

فالمؤمنون- إذا- يلمسون التخفيف الندى يمسح على نصبهم طوال سنين عشر من البعثة، و قد انتفخت أقدامهم و تورمت من القيام الطويل، مهما كانوا قاصرين عن قيام الرسول، الثلاثي، و لإحصائه الليل دونهم، و وجوبه الأصيل عليه دونهم و لحمله الثقيل و سبحه الطويل دونهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 230

سورة المدثر- مكية- و آياتها ست و خمسون‏

[سورة المدثر (74): الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ (4)

وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)

\*\*\* إن المدثر من فواتح الوحي، فهي بعد الآيات الخمس الأولى من العلق، و علها بعد الحمد أيضا، و إذ تحتمل السورة- كالكثير من أمثالها- عدم نزولها دفعة واحدة، لذلك فآيات التوعيد و التنديد بالوحيد، الذي كان بآيات اللّه عنيدا، و التي تتحدث عن سائر الكافرين، بعد الآيات السبع الأولى من السورة، إنها لا تتنافى و كون هذه السبع هي النازلة بداية الوحي المفصل، بعد الخمس من علق و السبع المثاني من الحمد أيضا.

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ: لقد تدثر الرسول الأقدس (ص) إثر ما أوحيت اليه الخمس و السبع، تدثر من وقعة الوحي المفاجئ الثقيل، و على حدّ

المروي عنه (ص) قال: جاورت بحراء فلما قضيت جواري فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 231

و نظرت عن شمالي فلم أر شيئا و نظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء و الأرض، فجثثت منه رعبا فرجعت فقلت: دثروني فدثروني فنزلت‏ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ «1».

هذا و كما كان متدثرا عن قيام البلاغ منذ كان حتى زمن الرسالة، فكان عليه- إذا- دثارا فوق دثار، فأمر بالتحلل عنهما إلى الإنذار.

إن الدثار ما يلبس فوق الشعار و أصل المدثر المتدثر تدثرا بثيابه لينام أو ليستدفئ، و ما تدّثره في الرمضاء، إلا لما أخذته من رعشة الوحي و هيبته، كأن زالت حرارته بغزارة الوحي و رعشته، فتدثر و كان حقه أن يتدثر، و بما أن مكوثه هكذا بداية الوحي و لو قليلا، يخيل أنه مسموح له الدثار نوما أو تدفؤا، يؤمر آنذاك بالقيام عنه إلى الإنذار، فلا عليه و لا له و هو رسول أن يكون نائما دثورا مستترا مستدفئا، و إن كان من وقعة الوحي، فليتعود القيام و الإقدام طالما العراقيل تحول بينه و بين القيام، و ليعش القيام حياته: روحيا و جسدانيا و عقليا و علميا، و بكل ما يملكه و ما ملّكه ربّه من طاقات و إمكانيات، فالعمر قصير، و السير عسير، و دافع القعود كثير، فلا يسمح له إذا- الدثار- أي دثار، دثار الجسم و الروح، دثار الإنذار و التبشير، فليتجرد عن الدّثر كلها، إلى الإنذارات كلها.

و قد تتحمل السورة كلها أنها أنزلت بعد ما شاعت دعوة الرسول و واجهته السفاسف و الأقاويل السوء: أنه مجنون أو كاهن أو شاعر، و كل ذلك من طواغيت قريش: أبو جهل و أبو لهب و أبو سفيان و النضر بن الحرث و أمية بن خلف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 280 عن جابر بن عبد الله الانصاري، و فيه ان المدثر أول ما نزل من القرآن- اي: بعد الخمس من العلق و يلمح له‏

قوله (ص) هنا الذي جاءني بحراء

إذا فهذا مجيئه الثاني- و عل الاول كان يحمل سورة الحمد اضافة الى الخمس كما تدل على البسملة بالبيان المسبق في سورة العلق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 232

و العاص بن وائل و الوليد بن مغيرة الذي تسميه الآيات الآتية وحيدا، و انتهى دور التكذيب اليه بما نقلته الآيات، فلما سمع رسول اللّه (ص) ذلك اشتد عليه و رجع إلى بيته محزونا فتدثر بثوبه فأنزل اللّه السورة.

فهذه دثر ثلاثة تتحملها الآيات: دثاره قبل البعثة، و دثاره بداية الوحي من رعشته، و دثاره إثر هذه الهجمات، و الرسول يؤمر في هذه الدثر الثلاثة أن يقوم بالإنذار مهما كان الدثار، قياما يستصغر فيه كل دوافع القعود و عراقيل الإنذار:

«قم» فلقد مضى وقت القعود و الدثار، و حان زمن القيام و الإنذار «قم» للّه قانتا بين الجموع المحتشدة الفالتة عن ذكر اللّه و طاعته‏ وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ‏ (2: 228) و أقم الدين‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (42: 13) و أقم الوزن أيا كان‏ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (55: 9) وَ أَقِمِ الصَّلاةَ (11: 114) فانها عمود الدين، قم و أقم و استقم‏ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ (42: 15).

فَأَنْذِرْ و ليكن الإنذار بداية القيام، فانه ينفع قوما لدّا، فان التبشير هو بعد الإنذار، بعد ما تلين القلوب للايمان و تتقي: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (19: 97) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ (28: 46) فمن تأثر بالإنذار فهو المنذر المبشر إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (35: 18) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (36: 11).

فلئن أثر الإنذار كان بعده و معه التبشير، و إلا فلما ذا التبشير؟ و الإنذار هو اظهر ما في الرسالات الإلهية، تنبيها للخطر القريب الذي يرصد الغافلين الشاردين السادرين في الضلال، علهم يخافون العذاب الأليم، و من ثم البشارة باللطف و العطف العميم.

وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ إن الفاء هنا توحي بشرطية مقدرة: إن كان هو ربك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 233

فكبره فلزام الإيمان بربوبيته تكبيره كما يلائمها، و ليس تكبيره فقط قول: اللّه أكبر فكثير هؤلاء الذين يقولونه و لا يكبرون الرب في عقول مصغريه المشركين به و لا في أعمالهم أنفسهم، فتكبير الرب غير التكبير لفظيا للرب، و إن كان يشمله قول «اللّه أكبر» كما يروى عنه (ص) «1».

وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ ربك وحده، فهو وحده الكبير المتعال الذي يستحق التكبير دون سواه، يوحي بهذا الانحصار تقديم المفعول‏ رَبَّكَ‏ على فعله كبر فكل شي‏ء بجنب اللّه صغير، و اللّه وحده هو الكبير، و كل صغير يكبر عرضيا بالتكبير، و اللّه هو ذاته كبير، و إنما الأمر بالتكبير يعني تعظيمه عند الجاهلين به أو المعاندين و الناكرين له، تكبيرا في عقولهم، بيانا للواقع، لا تكبيرا لواقعه، و ليستعد الرسول خوضه في هذه المعركة تصغيرا لكل كيد و كل حول و قوة و كل معاكسة و كل عقبة و عرقلة، تكريسا لكافة الطاقات العقلية و المنطقية و سواها، و ليعلم الجاهلون باللّه و المتجاهلون، ان اللّه هو الكبير المتعال- لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً (17: 111): تكبيرا يليق بساحته، و يصغر كل من سواه بجنبه، تكبيرا في عقولهم و ضمائرهم و فطرهم و فكرهم و واقع كيانهم في تفكيرهم و تصرفاتهم، و لكي يرى و يلمس أنه الكبير المتعال في خلقه فيعيشوا ذللا بجنبه و في طاعته: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (13: 9) المتعالي عن أن يكبر عن صغر، أو يتكبر عليه أحد ينازعه في ملكه، أو يستقل عنه أحد في كيانه- هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 281- اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قلنا يا رسول الله (ص) كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة، فانزل الله‏ وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ فأمرنا رسول الله (ص) ان نفتتح الصلاة بالتكبير-

أقول هذا هو النزول الثاني للآية، فانها نزلت أولا بداية الوحي قبل الصلاة و قبل أبي هريرة، و ليس هذا الا من تطبيق الآية على ادنى مراحل التكبير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 234

(22: 62) لا عن صغر مسبق- إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً (4: 34):

كينونة أزلية كما في كونه، لا يشاركه فيه أحد، و كما لا يعني تكبير اللّه تعالى هنا أنه أكبر ممن سواه، فلا كبير سواه حتى يكون هو أكبر منه، و كذلك قول «اللّه أكبر» لا يعنيه، فان كونه أكبر من غيره تصغير له، و إشراك لغيره معه في الكبر، و إنما يعني- على حد تعبير

باقر العلوم عليه السلام- أنه أكبر من أن يوصف‏

و إن كان بوصف أنه أكبر ممن سواه! وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ: إن كانت هي ثيابك فطهرها: فالفطرة مجبولة على تطهيرها.

«ثياب- ك» و «ك» لا يختص البدن، و إنما يعمه و الروح، و الروح أحرى هنا، و لا سيما أن الخطاب وجّه إلى الرسول (ص)، و الرسالة الإلهية هي روحانية المصدر و الفعل و المفعول، طالما تشمل الناحية الجسدانية أيضا.

فلكل إنسان ثلاثة أثواب 1- ثوب الجسد المتصل به، شعارا و دثارا، 2- ثوبه المنفصل عنه: زوجته التي اعتبرت لباسا كالعكس‏ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ‏ 3- و ثوب الروح و هو لباس التقوى‏ يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ (7: 26) و هذه الطهارة الثلاثية للإنسان تجعله في قمة الطهارة و النزاهة، فبإمكانه هجران الرجز كل رجز.

فمن طهارة الثياب تنظيفها عن الدنس و النجس، و ترتيبها بحيث لا تتعرض للأدناس، كالثياب الطوال التي تجر الأرض فتتقذر هي، و تقذر أيضا خلق أصحابها إذ تخلق فيهم الخيلاء و الكبرياء، و هذا من تفسير الظاهر للآية و كما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام «فطهر- أي فقصر» و كما أن من تطهيرها أيضا لبسها بحيث لا تكون لباس الشهرة أو الهزء، تطهيرا لأصحابها عن التعرض للبهت و الغيبة، و كذلك تطهيرها عن أن تكون من مصادر محرمة:

سرقة أو خيانة أو بخسا أم أيا كان من وجوه الحرام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 235

و منها تطهير الأزواج فإنهن لباس، أمره اللّه سبحانه أن يستطهر النساء، فيختارهن طاهرات من دنس الكفر و درن العيب، لأنهن مظان الاستيلاد، و مضامّ الأولاد، ثم إذا اختارهن هكذا يلازم تطهيرهن عمّا لا يجوز قدر المستطاع فإن فلتت منهن فالتة- إذا- فهي هي المسؤولة لا هو، إذ أدى واجب الاختيار و التطهير.

و منها تطهير النفس، ان يعيش تطهيرها عما يرجزها و يدنسها، فيزجرها عن اللّه، يقال: فلان طاهر الثياب. أي: طاهر النفس و الأفعال، طاهر الضمير و الأقوال‏ وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ‏.

فكما للجسم ثياب يجب تطهيرها تنزيها للظاهر، كذلك للروح ثياب تلبسها، فتدنسها أحيانا و تطهرها أخرى، فالفطرة السليمة و العقل السليم و القلب الواعي و العلم النافع، التي تجمعها التقوى، إنها لباس التقوى، تقوى بها الروح و تعرج إلى قمة الكمال، و كما أنها تقوى بالروح الصافية الضافية.

فهذه الطهارة هي الحالة المناسبة لتلقي الوحي، و الضرورية لملابسة الإنذار و التبشير، و مزاولة الدعوة في أوساط التيارات الجارفة، و الأهواء و المداخل و الدروب، و لكي ينقد الملوثين دون أن يتلوث.

و من ثم و بعد المراس الشاملة لهذه الطهارة الثلاثية، التي تطمئنه إلى حياة الدعوة الدائبة، يؤمر بالهجر عن كافة الاضطرابات فيها و دوافعها:

وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ إن تعلمه رجزا فاهجره، فالفطرة مجبولة على هجر الرجز.

فأصل «الرجز» هو الاضطراب، و ناقة رجزاء إذا تقارب خطوها و اضطرب لضعف فيها، فهو- إذا- يشمل كل اضطراب و خروج عن اعتدال سببا و مسببا، من العذاب و بواعثه، فالخروج من اعتدال الفطرة و العقل رجز كما أن خلافه طهارة و اعتدال، و كما أن كافة المكارم داخلة في‏ وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ كذلك التخلف عنها داخل في‏ وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ فالرسول الأقدس (ص) أمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 236

في بداية الوحي و بزوغ الرسالة بالإنذار و تكبير الرب بجناحي طهارة الثياب و هجر الرجز: تحلية بالمكارم، و تزكية عن المحارم، و ليطمئن إلى اللّه متخلقا بأخلاق اللّه، و يطمئن الناس إلى اللّه، هاجرا كل رجز و اضطراب في عقيدة، أو عمل، في دعوة أو عبادة، و لذلك تسمى الأوثان رجزا و رجسا، كما يسمى العذاب المهين- المسبب عن عبادتها- رجزا: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ‏ (34: 5).

ذلك! و إن كان الرسول (ص) عاش متطهرا هاجرا الرجز منذ ولادته إذ عافت فطرته السليمة كل انحراف و انجراف، بما كان يسلكه ملك عظيم من ملائكة اللّه سبيل المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره، على حدّ قول الامام علي عليه السلام فكان يهجر المعتقدات الشوهاء و السبل الشائكة، و رجز الأخلاق و العادات، فلم يعرف عنه و لم ينسب اليه أنه شارك في شي‏ء من خوض الجاهلية، و لكنما هذا التوجيه يعني- فيما يعنيه- إعلان المفاصلة و التمييز الذي لا هوادة فيه و لا مسايرة، و يعني المداومة و المزيد من الطهارة و هجر الرجز منذ الدعوة بالعصمة الإلهية، إضافة إلى ما يسعاه قبلها و بعدها، لا انه كان عليه رجز، فأمر بهجرها، فما أكثر الحالات التي هو لابسها و يأمره اللّه بها، إعلانا عالميا في إذاعة قرآنية أنه مؤمّر مطيع فلا يطمع فيه طامع للمهادنة و المسايرة، و ما أكثر المزريات التي عافتها فطرته السليمة- منذ كان حتى قبض- فينهاه اللّه عنها بهذا الدافع و أشباهه، و ليعلم العالمون أنه رسول مؤمر، لا يستقل في حسناته و عبقرياته عن ربه إلى نفسه و إن كانت نفسية قدسية! فالقرآن- بجانب ما يذكره من مكارم الرسول- ينبهنا أنه رسول، لا يملك لنفسه بجنب ربه ضرا و لا نفعا إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ‏.

من ثم و بعد نكران الرجز و هجره، يوجه إلى نكران ذاته، و عدم المن في معطياته، كأن لم يعط شيئا، رغم تقديمه و بذله الكثير الكثير، و جهده و عنائه العسير العسير في هذه السبيل الشاقة الملتوية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 237

وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ صحيح أن اللّه يمن بك على المؤمنين: لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم .. و لكنك- و أنت رسول- ليس لك المن عليهم استكثارا لما تبلغ من رسالات ربك، و استكثارا لرفعة المتحد عند الناس، و إنما لك الاستكثار من فضل اللّه و رحمته، دون ابتغاء أجر منهم أو شكور، و لأن هذا التوفيق العظيم و الفضل العميم يستحق الشكر للّه و طلب المزيد من اللّه، لا من الناس الذين لا يملكون، و لا لأنفسهم شيئا! و كما ليس له المن عليهم ان آمنهم باللّه، كذلك ليس لهم المن عليه أن آمنوا باللّه: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ‏ (49: 17) فالمن للّه أولا و أخيرا دون سواه، وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ (14: 11).

إن تحقيق الرسالة الإلهية نعمة من اللّه فلا يستحق المنّ عليه، و صدقة على المرسل إليهم و هي تبطل بالمن: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى‏ (2: 246).

و لئن سئلنا: إذا كان المن من غير اللّه محظورا، فكيف أصبح سليمان بينه و بين الإمساك مأمورا؟: هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ‏ (38: 39) و الجواب أن المن هنا هو الإكثار من الإنعام كما يوحي به مقابله:

الإمساك، من المن و هو الإكثار العملي، لا المنة و هي الإكثار الاستكثار القولي و منّ الرسول الأقدس (ص) كان أكثر المنن و العطايا بين الرسل، و لكنه منع عن المنة و الاستكثار، اللهم إلا المن و الإكثار.

و إن صور الاحتمال في المنّ كالتالي: بين مرغوب عنه و مطلوب، ممكن و مستحيل:

1- المنّ العملي على اللّه، و هو محال ينافي ألوهيته تعالى، و ينافي أقل الإيمان فضلا عن إيمان الرسول، فلا يشمله النهي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 238

2- المنّ القولي على اللّه، و هو على امكانيته مستحيل من الرسول البالغ في معرفة اللّه أقصاها الممكن، فلا يشمله النهي، اللهم إلا غيره.

3- المن العملي على الناس، و هو الإثقال بالنّعمة عليهم و الإكثار منها، و هو من أوجب الواجبات الرسالية، أن يعيش الرسول حياته عطاء للناس و هدى و رحمة لقوم يهتدون، فلا يشمله النهي أيضا.

4- المنّ القولي للإيذاء، و لم يكن الرسول ممن يؤذي الناس، و إنما كان يتأذى في سبيل رفع الأذي عنهم، فلا يشمله النهي.

5- المن القولي لتذكير النعمة، و ليس إلا من اللّه فإنه ولي النعم، فقد يشمله النهي.

6- المن القولي حال الاستكثار، و كما أن «تستكثر» هنا حال، لمكان الرفع، لا جزاء الشرط المقدر، و قد يكون استكثارا لمنّ اللّه عليه و عليهم فهو ممدوح لا ينهى عنه.

7- و قد يكون استكثارا لجهوده و جهاده في تبليغ رسالاته، فهو المشمول للنهي، فليستقل بلاغاته بجنب اللّه، و ليعرف أنه ما عبده حق عبادته و ما عرفه حق معرفته، و لذلك كان يستغفر ربه كل يوم سبعين مرة، لا لذنوب يقترفها، و إنما إعلاما و اعترافا بالقصور عما يحق عليه للّه، إذا فكيف يستكثر؟ فهل يستكثر امتثاله لهذه الأوامر الإلهية من قيامه بالإنذار، و تكبيره ربه و تطهيره ثيابه و هجره الرجز، و دعوته إلى ربه؟ و هو عبد لا يملك إلا ما ملكه اللّه، فليستقل عمله بجنبه، و ليستكثر نعمه عليه، دون أن يستكثر ما عمل من خير للّه و كما عن الرسول (ص) نفسه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 454 عن الصادق (ع) قال رسول الله (ص) في الآية: «تستكثر ما علمت من خير لله».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 239

8- و قد يكون استكثارا لتعظيم الناس له، و رفعة مقامه عندهم، فمن هم الناس حتى يرجوا إكثارهم، و هم لا يملكون و لا لأنفسهم شيئا، و هو المأمور قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً و لا جَزاءً وَ لا شُكُوراً فكيف يستكثر منهم و إنما عليه العطاء، دون ابتغاء أجر و لا شكور و لا جزاء، لا قليلا و لا كثيرا، إلا من اللّه العلي القدير.

9- و قد يكون استكثارا من اللّه، فما هي الصلة بين المنّ على الناس و الاستكثار من اللّه، إلا في المنّ العملي كما سبق، فعليه أن يثقلهم بنعمة البلاغ و له أن يستكثر ربه الجزاء الوفاق.

10- و قد يمن عليهم عمليا يستكثر اهتداءهم، فبقدر ما يجاهد في سبيل الدعوة له أن يرجو انعطافهم الى الحق، و هذا أمر مرغوب فيه.

فتلك عشرة كاملة في صور المن بين مستحيل و مأمور به، و منهي عنه.

فاللّه تعالى يريد من رسوله الكريم ألا يظل يستعظم ما يقدمه و يستكثره مهما كان بجنب اللّه أو الناس أم في نفسه، فان هذه الدعوة لا تستقيم و تدوم في نفس تحس بما تبذل في سبيلها، فعلى الرسول أن يتناسى ما يقدمه لكي يستجدّ العطاء دوما كأنه أول العطاء، فلا يمل من كثرة العطاء و معاكسة المعطى لهم بالتخلف و الغباء، و لا يمن على المهتدين فيقطع عنهم العطاء، و إنما عليه أن يعيش عناء في عطاء و ابل دون انقطاع.

وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ تقديم الظرف يوحي بأن الصبر يجب أن يختص بدافع رضى الرب فلا يصبر لنفسه لأنها تستحليه، و لا لغيره فيسترضيه، إنما لربه فيرضيه لأنه ربه، ثم الفاء توحي بسبب هذا الاختصاص، أنه ربوبيته تعالى، جزاء لشرط مطوي إن كان هو ربك فله اصبر فالصبر في سبيل اللّه و انحصاره باللّه يتسببان من ربوبيته تعالى، فان معركة الرسالة طويلة ضيقة، و الصبر هو زادها الأصيل، و قد شرحنا مدى الصبر الجميل مسبقا فلا نطيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 240

[سورة المدثر (74): الآيات 8 الى 30]

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10) ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (11) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (12)

وَ بَنِينَ شُهُوداً (13) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلاَّ إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (17)

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (22)

ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (23) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ (27)

لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ آية عديمة النظير من حيث التعبير، فما نرى الناقور إلا هنا، و ليس هو إلا عبارة أخرى عن الصور «1» و يزيد الناقور أنه قرع يفضي إلى النقر و الثقب، قارعة تقرع الكائنات لحد النقر، قرع ينتهي لمداه، فلا يبقي شيئا و لا يذر في قيامة الإماتة، ثم قرعة الإحياء حيث تنقر الميتات و تنقلها إلى الحياة، ذلك لأنه ناقور: فاعول- مبالغة في النقر، فليس إذا بوقا ينفخ فيه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 1 من الجزء 30 ص 35، ففيه إيضاح عن النفخ في الصور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 241

إنما نفخة و صرخة في الكائنات كل الكائنات، فهي ناقور لهذا النقر، و صور لهذا النفخ، نفخ في الصور هو نقر في الناقور، و ليس الصور الناقور إلا الكائنات بذواتها، تدمّر بصيحة واحدة، فإذا هم بالساهرة، صيحة هي زجرة تنقر أعماق الذوات، لحد تبدّل إلى غير ذواتها: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (14: 48).

فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ هل إنها هنا نقرة الإحياء، إذ يدركون عسره بالجزاء الوفاق؟ ففي نقرة الإماتة يموت المؤمن و الكافر سواء، فالعسر يومئذ لهما سواء! أم إنه النقرتان؟

فطالما الموت بالنقرة لهما سواء، و لكنما المؤمن يستحليه بما تعقبه من رحمات اللّه و نعمائه، فهو له- إذا- يوم عسير يسير فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً يجعله يسرا، و لكنما الكافر يستعسره بما تعقبه من نقماته عسرا على عسر، فهو له- إذا- عسير غير يسير.

فمن طبع يوم النقرة الصعقة أنه عسير على المؤمن و الكافر سواء، و لكنه رغم طبعه العسير، على المؤمن يسير، و على الكافر غير يسير، لما يخلفه من نقرة الإحياء، و من ثم الحساب، فما أجدر الكافرين أن يسمعوا للبشير النذير، قبل أن يفاجئهم هذا اليوم العسير العسير.

ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً تقول الأحاديث أن المندّد به في هذه الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي، و كان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، و كان من المستهزئين برسول اللّه (ص) حملته قريش على أن يفكر و يقدر لكي يعارض القرآن بما عارض‏ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ.

و «وحيدا» هنا يتحمل كونه حالا من مفعول «ذرني» و من فاعل «خلقت» و هما اللّه وحده، أم من مفعول «خلقت» المحذوف «ه» أو مفعولا له ثانيا، فالمعني على الترتيب:

(تفسير الفرقان- ج 29- م 16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 242

ذرني أنا وحيدا مع من خلقته، فالخالق وحده كاف لخلقه أجمع، في خيرهم و شرهم، فلا تحاول لمجابهة كيد الوليد الوحيد و غيره، إلا حول اللّه و قوته.

ذرني و من خلقته أنا وحيدا، لم يشاركني في خلقه غيري، فلا يكفي شره غيري.

ذرني و من خلقته حال وحدته، بلا مال و لا بنين، ثم جعلت له مالا ممدودا و بنين شهودا، فأنا المعطي و أنا الآخذ، فأنا الكافي شره و بأسه.

ذرني و من خلقته وحيدا عن مثل الإنسانية كلها، و عن الأب أيضا، فقد ولد من زنا و لم يعرف له أب، و كما

عن الإمام الصادق (ع) «الوحيد ولد الزنا».

و من ألطف ما هنا في «وحيدا» أنه على الأخيرين يلمح إلى اسمه المستعار «وحيد قريش» إذ كان يسمى وحيدهم الفريد، و كما ادعاه هو أيضا «1» فهذا التلميح عما كان يفتخر به هو و قومه، يعكس الأمر إلى التقبيح، أنه الوحيد عن المثل و عن أب يعرف، لا في الفضائل، و إن كان وحيدا في المال الممدود و البنين الشهود، فهو من خلق اللّه لا منه، فبماذا يفتخر و فيم يغتر؟ هل بما جعل اللّه له من مال و بنين إملاء و ابتلاء؟ أم بما تجرد في أصله عن أب يعرف، أو في حاله الجرداء عن كل معروف؟.

و على الأولين يلمح إلى صغره و ضعفه و جاه خالقه العظيم، ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً.

هذه المعاني الأربعة متضامنة، قد لا تصلح واحدة دون أخرى، فخلق الوليد وحيدا عن المال و البنين، خلق يعم كل مخلوق، و فيما إذا انضم إليه وحدته عن الأب، فهو صفة ذم، و بانضمام وحدة الخالق في خلقه، يصبح الوليد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 457 عن زرارة قال: ذكر لابي جعفر (ع) عن أحد بني هشام انه قال في خطبته: انا الوليد الوحيد، فقال: ويله! لو علم ما الوحيد ما فخر بها، فقلنا له و ما هو؟ قال: من لا يعرف له أب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 243

هزيلا ضعيفا على ماله الممدود و بنيه الشهود، و بالنظرة إلى وحدة الخالق في كفايته بأس الوليد، يرتعش الحسّ من بأس اللّه ارتعاشة الفزع المزلزل، إذ يتصور انطلاق القوة التي لا حدّ لها، ففي هذه الوحدات الأربع، ينسحق المخلوق أيّا كانت قدرته و جبروته، فما ذا يصنع إذا الوحيد الضعيف المسكين الهزيل الضئيل!.

ففيما يخيّل إلى الرسول (ص) أن لكيد الوحيد و أضرابه، تأخيرا للدعوة و تأثيرا سيئا على المدعوين، نرى المهيمن الجبار الواحد القهار، كيف يطمئنه (ص) و يريحه: أن الوحيد في خلق الوليد هو الوحيد الكافي عنه بأسه، كيف لا! و قد خلق وحيدا عن كل حول و قوة، مما يدل أنه لا يملك لنفسه شيئا، فما له مع من يملكه و يملك كل شي‏ء!.

و فيما إذا سئلنا عن رابع المعاني المسبقة، هل إن خلق الإنسان من زنا، هو من اللّه؟ أو إن تجرده عن المثل الأخلاقية من اللّه؟.

فالجواب أن اللّه هو الذي يخلق الجنين، من نكاح كان أو من سفاح، فولد الزنا من خلق اللّه كغيره سواء، و ليست عملية الزنا أو النكاح إلا من الإنسان، و «خلقت وحيدا»: عن زنا دون أب يعرف، ليس إلا تنديدا بأصله المتخلف عن شريعة اللّه، و ان لم يكن له هو دخل في هذا الأصل، و لكنه مشى حياته التخلف، و استمر على ولادة الزنا خلقا، دون أن يرجع إلى فطرته، فاستحق الذم بكيانه ككل.

ثم الإنسان- أيّا كان- يولد على فطرة سليمة طاهرة، فإذا انطلق منها انطلاقة الخير فهو السعيد بما سعى و هداه اللّه، و إذا تخلف عنها حجبت فطرته بالشهوات و التخلفات، و تصبح في الترذل إلى أسفل سافلين، يرده اللّه إليه بعد ما خلقه في أحسن تقويم، فكأنما خلق هكذا أجرد، عن المثل العليا بمبادئها، إذ لا يلمس فيه شي‏ء منها و لا ندى، فكأنه- إذا- خلق وحيدا عنها ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً طالما كانت الوحدة عن تلكم المثل و التجرد عنها، كل ذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 244

بما سعى و غوى، و لكن اللّه هو الذي يزيغ القلوب بعد ما زاغت جزاء وفاقا:

فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏.

وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً. وَ بَنِينَ شُهُوداً.

إن المال الممدود و البنين الشهود هما الأساسان الأصيلان في الحياة الدنيا، و ليس الإمداد بهما من اللّه مسارعة في الخيرات، فقد يكون إملاء و ابتلاء:

أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ. نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ‏ (23: 55).

و المال الممدود ما يمدّ الإنسان في الحياة و يجره إلى بغيته فيها كما يهواه، و هذا الممدود يقتضي مدّا زمنيا طول الحياة دون انقطاع، و مدّا من حيث المكان، و لكي يستطيع تجوالا واسعا في ماله و كما يروى: «كان ماله ممدودا ما بين مكة إلى الطائف، من ضرع و زرع و تجارات و بساتين و أشجار و أنهار، و كان له بستان لا ينقطع صيف شتاء ثم يقتضي مدا فيها بالزيادة دون نقصان، و لقد كان له كل ذلك، لكنه لم يمدّه إلا في طغيان يعمه و بغي و ترح‏ وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (3: 178).

و البنون الشهود هم الشاهدون مصالح الأب ماديا و معنويا ليل نهار، فالبنون الغيّب عن الأب، المستقلون في مصالحهم، ليسوا قوة و أزرا للأب، و قد يكونون عليه وزرا، كالشهود في مصالحهم أنفسهم، و الغيّب عن مصالح الأب، فعدمهم خير من وجودهم، و غيابهم خير من شهودهم.

فالوليد الوحيد أعطي بنين شهودا: شهودا لأمواله استزادة لها دون نقصان و شهودا لأحواله في الأتراح و الأفراح، و شهودا له لا عليه، فيما يتطلب الشهادة، و شهودا في تلقيهم عن والدهم، و أداء له، يمثلونه كأنهم هو و كأنه هم، لا يفارقهم و لا يفارقونه، و قد كانوا- كما يروى- ثلاثة عشر، أقوياء جبارين عقلاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 245

وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ تمهيدا وحيدا في الحياة و جاه قومه و أقرانه، و سهلت له سبل الحياة تسهيلا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ: تمهيدا له بالمال الممدود و البنين الشهود، كأنه أعطي ما أعطي استحقاقا أو دونه، و لذلك يطمع أن أزيد!.

كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً.

كَلَّا ليس كما يطمع فلن أزيده شيئا، و ليس كما يزعم، فلم يعط استحقاقا و إنما ابتلاء و استخفافا: إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً آيات النبوة و الوحي من القرآن العظيم، و آيات اللّه من ملائكة الوحي و الرسل، و آياته الكونية الدالة على ألوهيته إذ لم يكن ليعتبر بها، إنه كان عنيدا: كثير العناد و العتاد لهذه و تلك، لذلك انتخبته قريش لكي يفكر و ينظر في أمر هذه الآيات، فانه كان ضليعا في اللغة العربية فاختاروه، محاولة للقضاء على وحي القرآن، و ليخيّل إلى الناس أنه قول البشر و سحر يؤثر، لذلك حق عليه أن يرهق صعودا يضطر إلى عذاب صعد، يغشاه بقهر غليظ العذاب، في دنياه إذ لم يأت بشي‏ء ضد القرآن، إلا حكما ضد العقل‏ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ و من شأن السحر الزوال دون البقاء! و في عقباه صليه سقر، و إنما العذاب الصعود هنا جزاء الكيد الصعود ضد القرآن كما كاد: بما أرهق نفسه بعناء طويل.

فالذي ينحرف عن سبيل الايمان الميسر الودود، و يقطع حياته ضد الحق في شدة و اضطراب و قلق، فحياته النفسية و الفكرية هنا صعود، فكذلك هي في الأخرى صعود جزاء وفاقا.

فإن كانت الأكثرية الساحقة من أصحاب الجحيم إنما يستحقونها بما انجرفوا في تيارات التخلف دون تفكير، فهذا الوليد الوحيد سوف يصلى النار بما اعتمله بتقدير و تفكير، فقد حاول أن يعكس أمر الحقيقة بعد ما تجلت له من وحي القرآن، فحق له إذا عذاب السعير:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 246

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ. فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ.

لقد اجتمعت اليه قريش- بما عرفوا من عناده لرسول اللّه (ص) و أنه أعقلهم و أقدرهم على معارضه القرآن- فقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمد؟ أشعر أم كهانة؟ أم خطب؟ فقال: دعوني اسمع كلامه، فدنا من رسول اللّه (ص) فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعر، و لكنه كلام اللّه الذي ارتضاه لملائكته و أنبيائه و رسله، فقال: اتل عليّ منه شيئا، فقرأ عليه رسول اللّه (ص) حم السجدة فلما بلغ قوله‏ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ اقشعر الوليد و قامت كل شعرة في رأسه و لحيته و مرّ إلى بيته و لم يرجع إلى قريش من ذلك، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد، و اللّه ليصبأن قريش، أما ترى لم يرجع إلينا، فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال: يا عم نكست رؤوسنا و فضحتنا و أشمتّ بنا عدونا و صبوت إلى دين محمد، فقال: ما صبوت إلى دينه و لكني سمعت كلاما صعبا منه تقشعر الجلود، ما هو من كلام الإنس و لا من كلام الجن، إن له لحلاوة و ان عليه لطلاوة و ان أعلاه لمثمر و ان أسفله لمغدق، و انه يعلو و ما يعلى! فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال: لا، إن الخطب كلام متصل و هذا كلام منثور لا يشبه بعضه بعضا، قال: أ فشعر هو؟ قال: لا، أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها، و رملها و رجزها و ما هو بشعر، و هل رأيتموه يتعاطى شعرا قط.

ثم قال: تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يحنق؟ و تقولون انه كاهن فهل رأيتموه يحدث بما يتحدث به الكهنة؟ و تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا، قالوا له فما هو؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 247

ففكر فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل و أهله و ولده و مواليه ...».

إن آخر ما وصل إليه الوليد في تفكيره و تقديره و قياسه القرآن على غيره:

أنه سحر لا كسائر السحر، إنما سحر يؤثر، سحر لأنه يفرق بين الأحبة و يؤثر لأن الفراق الناتج عنه لا يزول كسائر السحر، و إنما يؤثر و يبقى.

إِنَّهُ فَكَّرَ في أمر القرآن ليعتبره من كلام الخلق‏ وَ قَدَّرَ بكافة المقادير التي يمكن أن يقدر و يقاس بها كلام، فلم ير فيه شبها من شعر و لا خطب، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ قدّره و قاسه بسائر السحر فما قدر أن يقول: هو سحر، لأن السحر لا يبقى و لا يؤثر، فأثر السحر- أيّ سحر- دائر يزول بمثله أم بنفسه أم بمعجزة إلهية، و لكن أثر القرآن باق، لا يزداد على طول المكوث إلا ازدهارا، و السحر لا يوافقه العقل و الفطرة و الذوق السليم، و يمكن إبطاله بالبراهين العقلية، و القرآن يأخذ بأزمة العقول و يجعل الإنسان مختارا بين الرد و القبول، لا محتارا لا حول له و لا قوة، فلا يمكن القول أنه سحر كسائر السحر. ثم «نظر» في الأمرين: أنه سحر؟ لا! أنه معجزة إلهية؟

لا يوافقها هواي، فخلط بين الأمرين فقال‏ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ففرّع على دعوى السحر إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ و لم يفرع على قوله‏ يُؤْثَرُ شيئا، لأنه يحمله على مصارحة التناقض إذا قال «معجزة» إذ من شأن البقاء و الأثر في مثل هذا الكلام ألا يكون من كلام البشر، فخلط حقا بباطل، ثم استنتج من باطله باطلا و تغمض عن حقه‏ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ قطب حاجبيه عابسا، يقبض ملامح وجهه باسرا ليستجمع فكره، و عرف بعد ذلك كله أنه وحي، و لكنه‏ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ و عبر عن رأيه بعد هذا المخاض كله، و هذا الحذق كله، و قال:

إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ.

فهناك تفكير و تقدير و نظر و عبس و بسر و إدبار و استكبار، أبواب جهنمية سبع فتحها الوليد ليحرق بنيرانها وحي القرآن، و لكن هذه التقولة الجهنمية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 248

لم تفضح إلا إياه لمن فكر و قدر و نظر حقه دون ادبار و استكبار.

فكر في القرآن الذي سمعه و احتار في أمره و اقشعر، و قدره و قايسه بسائر الكلام من نظم و نثر، ثم نظر فيما قدر فلم يقدر على شي‏ء يبطل به وحي القرآن حالات ثلاث كلها فكرية قلبية، فلما لم يجد حيلة عبس في وجهه و بسر، تدليلا على أنه يواصل في عمق التفكير و التقدير، و إن كان كذلك، و لكنه عبس القلب و بسره بعجزه، ظهر على وجهه و ملامحه، ثم أدبر عما حصل بتفكيره و تقديره و نظره، و استكبر عن إظهار الحق، فلم يجد بدا أن يخلطه بالباطل ليستره على الجاهلين و قد ستر.

إن العبس هو قطوب ما بين العينين، و البسر الاستعجال بالشي‏ء قبل أوانه، فقد عبس حيث احتار بين أمرين 1- نصوع وحى القرآن فكيف يكذبه 2- عناده لنبي القرآن فكيف يصدقه، و لذلك «بسر»: استعجل في حكمه دون أن يتأمل في مغزاه، أنه سوف يفضحه، فآثر عاجل دنياه على آجل عقباه، و استعجل عذابه النفسي هنا بما أبداه من تناقض «سحر يؤثر» قبل أن يأخذه عذابه الشامل يوم الطامة الكبرى.

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ: إنه قتل نفسه بتقديره مرتين: في الدنيا إذ فضح نفسه بما أنتجه من تناقض: «سحر يؤثر» و في الآخرة إذ يصلى سقر، و كل ذلك بما قتل ضميره في حكمه الباطل، رغم معرفته بحق الوحي القرآني‏ وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا.

ف «قتل» هنا و هناك إخبار لا دعاء، و حاش ربنا عن الدعاء، فانه ليس إلا لمن يعجز عن الوصول إلى بغيته، فيدعو غيره ليوصله، فهل لربنا رب يدعوه؟ .. و إنما كيفية تقديره بما فكره قبله و نظره بعده، إنها قتلته و فضحته و عذبته، بما قتل حينذاك ضميره المدرك، تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 249

فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ فما هو السحر؟ و ما الذي يؤثر؟

إن السحر هو اصابة السحر: طرف الحلقوم، ما يؤثر في الإنسان دون اختياره و من حيث يعمى، و هو يبطل بسحر مثله أو أقوى، فأحرى أن يبطل بمعجزة إلهيه، و من ميزاته أنه يرهب و يأخذ العين على غرّة: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (7: 116) و ان اللّه يبطله:

قالَ مُوسى‏ ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (10: 82) و انه لا يتخطى الخيال إلى العقل‏ فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى‏ (20: 66) و جماع القول في السحر انه لا يفلح فاعله حيث أتى فلا يبقى: إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى‏ (20: 69) و من آثار السحر التفريق بين الأحبة فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ‏ و لكنه أيضا غير مفلح إذ يبطل بسحر مثله أو معجزة، فلا يؤثر و يبقى، و آخر ما توصل إليه الوليد في قولته الباردة إنه سحر: ما رأيتموه يفرق بين الرجل و أهله و ولده و مواليه و هنا استفاد من جهل الجهال بمجرد تشابه التعبيرين: إن الساحر يفرق. و ترون هذا أيضا يفرق و يا له من فرق شاسع بين التفريقين، ما يفرق بما يعمى سببه و لا يبقى و لا يعرف لماذا؟ و هو السحر و أشباهه من الباطل، و ما يفرق مبصرا بسناد البينات الفطرية و الفكرية و العقلية، فإن كان كل مفرق سحرا فليكن العلم و العقل و سائر الكمالات المفرقة بين الناس، ليكن كل ذلك سحرا، و لتكن كافة المبادئ و الأديان الحقة المفرقة بين المحقين و المبطلين سحرا.

إن القرآن و رسول القرآن يفرقان بين المتحدين في الحيرة و الضلال، ففريق يؤمن و فريق يكفر، كلّ على بيّنة مبصرة، إيمانا لبيناته، و كفرا لشهواته، دون أن يعمى لهما المصدر و المورد و الدليل، فهل هذا سحر؟ كلا! و كما اضطر الوحيد أن يتبعه ب «يؤثر» يبقى، و لكنما السحر لا يبقى!.

فمن الفوارق بين السحر و الآيات المعجزة أنها مبصرة بينة لا تخفى على العقول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 250

و مفلحة تأخذ بأزمه القلوب دون زوال، فهل القرآن إذا سحر؟.

«يؤثر» قد تكون «يؤثر» من الإيثار، أي- على كونه سحرا- يقدم على غيره، من السحر و من الآيات المعجزة، فلا تتغلب عليها أية محاولة لمعارضته، إنما «يؤثر».

و قد تكون من الأثر بمعنى البقاء: سحر يبقى! فهو بالمعنيين ليس سحرا، إذ هو يبقى و السحر لا يبقى، و يقدم على غيره من سحر و معجزة، و السحر يبطل بسحر مثله و بالمعجزة، إذا فلم ينتج تفكير الوحيد و تدبيره و نظره إلا حكما متناقضا في نفسه.

إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ و هذا صحيح إذا كان سحرا، و لكنه يؤثر، فكيف يكون قول البشر، فهل يوجد من قول البشر ما يؤثر؟!.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ. وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ. لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ. لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ.

فكما أن الوليد الوحيد أصلى نارا ليحرق بها وحي القرآن، ما يزعم أنه يجعله بين الحياة و الموت، موتا بالسحر و حياتا بأنه يؤثر، كذلك هو سيصلى سقر، نارا لا تبقي و لا نذر.

و بما أن السقر من سقرته الشمس: لوّحته و أذابته، فهي أصل النار و أشده في الجحيم، يصلاها: يوقدها- أمثال الوليد من الالداء الأشداء، رؤوس الكفر و الضلالة.

وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ؟ انك دريت ما هي، لكنه بالوحي، فهي من الشدة لحدّ لا مثيل لها يوم الدنيا حتى يقاس بها، فهذا تهويل بتجهيل سقر، ثم يفسرها بمفعولها و بعض ملازماتها:

لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ: فهي تكنس أهلها كنسا و تمحوهم محوا، فلا يقف لها شي‏ء على حاله، فلا تبقيهم أحياء و لا تتركهم يموتون: الَّذِي يَصْلَى النَّار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 251

الْكُبْرى‏ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏ (87: 13) حالة وسطى بينهما هي أشد من الموت، و كما لا تبقي لهم أرواحا و لا أجسادا إلا أحرقتها، نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (104: 7) دون النار الدنيا الخاصة بالأجساد، و كما لا تبقي لهم جلودا و لا تذر: كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ (4: 56) نارا ساحقة ماحقة فيها أشد العذاب و أبقاه، و من آثارها:

لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ البشر جمع البشرة، الظاهر من الجلد، لأي صاحب جلد و اختص الإنسان باسم البشر بين سائر ذوي البشر، لظهور جلده دونها، فانها مستورة بالشعر و الوبر: فهي أيضا بشر في أصل المعنى، و البشر هنا في وجه عام يعم كل ذي بشرة ممن تلوّحه النار من جن و انسان و حيوان، و إن كان يلمح للبشر الإنسان بوجه خاص، فالبشر هنا عام لكل بشرة و بشر.

و اللواحة مبالغة من «لاح»: ظهر- فهي لواحة: كثيرة الظهور و البروز، وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى‏ (79: 36) و لائحة كاللوحة، تلوح فيها أعمالهم الشريرة، فان النار ليست إلا ظهورا للتخلف عن الهدى و النور بقدره.

و تلوّح البشرة أيضا من «لاحه» العطش و لوّحه إذا غيره، فهي تسوّد البشرة و تنضجها تغييرا للونها و هيئتها كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها فهذه النار هي عذاب مثلث لأهلها، تثير الفزع في النفوس بنظرها المخيف رؤية لها، و للأعمال الناتجة هي عنها، و بأثرها الساحق نضجا و تسويدا للبشرة، فهل ان لأهلها من خلاص؟ ولات حين مناص! فانها تحت الحراس، بملائكة غلاظ شداد:

«عليها تسعة عشر» تسعة عشر ملكا، لا طائفة أو جماعة من الملك، فان معدود المؤنث هنا غير مؤنث، فليست امرأة كذلك، ثم و لا رجلا، و لأن النار تحرق الإنس و الجن، فليس أصحاب النار منهم بل‏ وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 252

إِلَّا مَلائِكَةً و الملك ليس مؤنثا، و لا لفظيا، فليكن هو المعدود لهذا العدد المؤنث، دون المؤنثات اللفظية و المعنوية.

و هؤلاء التسعة عشر ملكا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (66: 6) و يرأسهم واحد منهم «مالك» فانه يملك النار و يحرسها ببقية الزبانية: وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (43: 77) و هو و من معه هم الزبانية: فَلْيَدْعُ نادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (96: 18) من الزبن و هو الدفع، فهم شرط النار الدافعون أهل النار إلى النار، و هم خزنتها: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ (39: 71).

[سورة المدثر (74): آية 31]

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَ ما هِيَ إِلاَّ ذِكْرى‏ لِلْبَشَرِ (31)

أصحاب النار هنا من يصحبونها حراسة و حفاظا لها و زبانية لأهلها، فليكونوا ممن لا تحرقهم النار، و لذلك جعلوا ملائكة فإنهم نور و النور لا تحرقها النار.

ثم انهم، ذواتهم، و عدتهم العددية القليلة، و الناقصة عن كمال العدد، هم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 253

فتنة للكافرين و الذين في قلوبهم مرض، و استيقان و ازدياد لإيمان أهل الكتاب و المؤمنين.

إن هذا العدد بالذات، و كسائر العدد في سائر المواضيع، مما يثير رغبة الجدال للجاهل المتعنت في قلوب مقلوبة و نفوس مريضة، لماذا الزبانية تسعة عشر؟.

لماذا هذه القلة القليلة؟ فبإمكاننا نحن الأشداء الأقوياء أن ندفعهم، و على حدّ تعبير قائلهم أبو جهل: «ثكلتكم أمهاتكم اسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة و أنتم الدّهم، أ فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم»؟ «1» فهذا الوغد النكد خيل إليه أن التسعة عشر رجال، و هم ملائكة و على قلة عددهم أقوياء عددا! على حدّ

قول الرسول الأقدس (ص): «كأن أعينهم البرق، و كأن أفواههم الصياصي، يجرون أشفارهم، لهم مثل قوة الثقلين، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم، على رقبته جبل، حتى يرمي بهم في النار، فيرمي بالجبل عليهم» «2».

إنما هنا و هناك العدد الإلهية تعمل كما يريد اللّه، و ليست العدة ذات أهمية، بل و لا أصل الجنود وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْبَشَرِ فالعدد أيا كان إنه فتنة لهؤلاء الأوغاد المناكيد، تسعة عشر أو عشرين، أو زد عليها ما شئت، فان المجادل الجاهل لا يقف لحد في الجدال، فالعاقل إنما يجادل من يجوز عليه الجهل، مع علم مسبق له نفسه، و برهان قاطع يتنافى و الخبر الجديد، و أما الناكرون للجحيم و زبانيتها، و النار و حدودها، فكيف لهم الجدال مع نسّاق الوجود، العالم بالعدد و المعدود و الحد و المحدود؟ كأن لهم العلم بحد العدد و هو الجاهل، أو هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 284- اخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما سمع ابو جهل‏ عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ قال:

(2) المصدر اخرج ابن مردوية عن ابن عباس قال حدثت ان النبي (ص) قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 254

القادرون على هذا العدد، القليل في زعمهم، و هو العاجز عن أن يزيدهم بعدد أو يقويهم بعدد! كلا- إن هذا العدد كسائر الأعداد في سائر المواضيع، يتمكن الجاهل الغبي أن يعترض على أي منها يشاء، دون برهان على خلافه قائلا: لماذا السماوات سبع؟ لماذا حمل الجنين بين ستة أشهر و تسعة، لماذا الصلوات اليومية سبع عشر ركعة و لماذا؟

و الجواب أن خالق الخلق و مدبره يريد و يفعل ما يريد لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ‏ وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏.

فلو جعل عدد الزبانية تسعة عشر ألفا أو مليونا أو ملياردا أو ما زاد، لقالوا لماذا لم يجعل عشرين ألفا أو ما زاد: و لو جعلهم عشرين ألفا أو ما زاد لقالوا لماذا لم يجعلهم أكثر أو أقل.

و لو لم يجعل للجحيم زبانية لقالوا: إله عاجز بلا جنود، فهم؟؟؟ أينما وجهوا، فاللّه تعالى إنما يجعل الزبانية تسعة عشر فتنة للضالين ليزدادوا إثما و لهم عذاب مهين، و إيقانا لأهل الكتاب بما لهم من خبر مسبق عن هذا العدد في كتبهم و ازديادا لإيمان المؤمنين، كما يزدادون بغيرها من آيات اللّه البينات‏ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (8: 22) فكل مقالة من ربهم يزيدهم إيمانا، لتفتّح قلوبهم و انشراح صدورهم، و لأن كتب الوحي المسبقة تصدق هذا العدد، و انه لو لم يكن وحيا من اللّه لما اختاره محمد (ص) و هو أعقل العقلاء، فهل ليثير الهزء و الهراء من الكافرين و الذين في قلوبهم مرض؟ ..

و لأن قلة الزبانية تدل على كثرة القدرة الإلهية، و ما الجنود إلا ذكرى للبشر، دون حاجة من اللّه إليها، و كما تصدقه سائر الجنود من الطير الأبابيل التي رمت أصحاب الفيل، و من القمل و الجراد و الضفادع التي قضت على آل فرعون، و أمثال هذه و تلك مما لا يحسب لها حساب في كيانها، و إنما تتغلب بحساب اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 255

لكي يدركوا جانبا من القدرة الإلهية و من ضعفهم و جاهها.

كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ: يضل الكافر المعاند بما يهدي به المؤمن المحايد، دون فرق في الحجة بين الفريقين إلا بما يسعى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ‏: ضلالا ثانيا ناتجا عن ضلال أول: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (61: 5) كما الهداية الثانية ناتجة عن هداية أولى و إيمان: إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً (18: 13).

فقد كشف اللّه لعباده عن طريقي الهدى و الضلال و نجديهما كالشمس في رايعة النهار وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ‏ فحدد لنا نهوجا نسلكها فنهتدي بها، و أخرى ننحرف إليها فنضل و نشقى، اختيارا دون إجبار: فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً دون تسيير على الشكر أو الكفران، إلا أنه تعالى فطر الناس على طلب الهدى، فمن فسق عن فطرته التي فطره اللّه عليها ضلّ، و من تبناها في الحياة، مستوحيا في استقامتها وحي السماء فقد نجى و زاده اللّه هدى.

إن الذين في قلوبهم مرض لم يكونوا ليعقلوا أن هذا العدد تعبير عن واقع الزبانية، إذ حسبوه مثلا، ثم اعترضوا عليه كمثل‏ كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ من شاء الضلالة و زاغ عن الحق أزاغ اللّه قلبه و ختم عليه، ضلالة ثانية بالاختيار، و من شاء الهداية و تحراها هداه اللّه، هداية ثانية بالاختيار وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ فانها غيب كلها في كيانها، و في عددها و عددها، إلا ما كشف اللّه لنا عنها، سواء أ كانت جنود إنسية أو جنية أو ملكية أم سواها من حيوان و سواه، فلا يعلمها إلا هو، إلا ما كشف لنا عنها كما كشف عن عدد جنود سقر، الزبانية التسعة عشر، عن عددهم دون عددهم، فما عرّفناه عرفناه و آمنّا، و ما جهلناه سكتنا عنه و آمنا، كسائر الجنود

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 256

الربانيين و كما يحدث الرسول (ص) عن بعضهم إذ شاهدهم ليلة المعراج‏ «1».

وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْبَشَرِ فكما اللّه باين عنا في ذاته و أفعاله و صفاته، كذلك في جنوده، فالجنود لمن سوى اللّه ناصرة لأصحابها، بما أن أصحابها قاصرة بدونها، فكلما كثرت الجنود ازدادت أصحابها قوة و شوكة، و كلما قلت ضعفت و انهارت، و تعاكسها جنود اللّه، فإن كيانها بعددها و عددها ليس نصرة للّه، و إنما ذكرى للبشر بما يأنسها البشر، فان البشر لا يتذكر في الأكثر إلا بما يباشره حسّه، فالجنود ذكرى لهم بعذاب ملموس بما تعودوها في حياتهم، فواقع الجنود بذكراها أدخل في النفوس، و أرهب للقلوب من قدرة تجردية إلهية غير ملموسة بنفسها.

إذا فلا التسعة عشر تنبئ عن عجزه تعالى عن تكميلها، و لا أصل الجنود تنبئ عن حاجته إليها، و إنما هي بعددها و عددها لحكم شتى عرّفنا اللّه تعالى طرفا منها و ليذكّر أولوا الألباب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 284- اخرج الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري‏ ان رسول الله (ص) حدثهم عن ليلة الاسراء قال: فصعدت انا و جبريل الى السماء الدنيا فإذا بملك يقال له إسماعيل و هو صاحب سماء الدنيا و بين يديه سبعون الف ملك مع كل ملك منهم جنده مائة الف- و تلا هذه الآية وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 257

[سورة المدثر (74): الآيات 32 الى 56]

كَلاَّ وَ الْقَمَرِ (32) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (34) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (36)

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41)

ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (45) وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46)

حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (47) فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51)

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى‏ صُحُفاً مُنَشَّرَةً (52) كَلاَّ بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (55) وَ ما يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى‏ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

\*\*\* كَلَّا وَ الْقَمَرِ وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ. وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ.

كَلَّا كلمة ردع و تنديد شديد بما تقدم من أوهام خابطة و أقاويل حابطة، (تفسير الفرقان- ج 29- م 17)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 258

إن القرآن سحر يؤثر و هو قول البشر، و إن الزبانية التسعة عشر هراء اسطورية و أن سقر خيال يؤثر عن أساطير الأولين.

كَلَّا ليس كما يزعمه الزاعمون و يتقوله القوالون، وَ الْقَمَرِ ...:-

قسما بالقمر الزاهر في قلب السماء، بمشاهدة و جلواته، و قسما بالليل حين يدبر، إدبارا من ظلامه بالقمر، و عن كيانه بانصرام ساعاته، و قسما بالصبح إذا اسفر عن وجهه بادبار الليل، إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ: إن الآيات القرآنية لإحدى الآيات الكبرى الإلهية و كبراها- ان سقر لإحدى الآيات المنذرة هنا بذكراها، و بعد الموت بواقعها- إن التسعة عشر لإحدى الطوائف من جنود ربك الكبر! فكما القمر حينما يظهر يزهر و يخفف عن وطئة الظلام، ثم يساعده تصرم الليل و انحداره فيدبر الليل تماما إذ يهاجم بعسكر الشمس و القمر، القمر في قلبه و الشمس تمده حين انحداره، فإذا الصبح يسفر.

كذلك الأقمار الزاهرة و الآيات الباهرة القرآنية، إنها حقائق نورانية ثابتة تتقدم، تزيل الظلام عن أجواء القلوب المقلوبة و الأفكار المظلمة، ثم هي في تقدم و انبهار، كما الظلام في تأخر و انصهار، يدبر الليلة الظلماء شيئا فشيئا، إلى أن تصل نور القمر بضياء الشمس في الصبح إذا أسفر، صبح العدالة الإنسانية على ضوء شمس الهداية المهدوية، إذ تزول كافة الغيوم عن وجه الآيات المنيرة القرآنية في دولة القائم المهدي عليه السلام فيملأ الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا.

فكما أن مشاهد القمر و الليل إذا أدبر و الصبح إذا أسفر، أنها ظاهرة للبصر كذلك مشاهد الآيات القرآنية ظاهرة للبصائر، للأفكار الصافية و القلوب الضافية، تغسل القلوب كما لو كانت تستحم بالنور، فهي هي بذواتها تشهد لذوي البصائر أنها إلهية و ليست سحرا يؤثر، و إنما معجزة تؤثر و تبقى حتي تشمل العالم كله في الصبح إذا أسفر: صبح الدولة الاسلامية زمن قيام القائم المهدي (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 259

قسما بهذه الشواهد الكونية، إن الآيات القرآنية لإحدى الكبر، هي الوحيدة بين آيات اللّه الكبرى، فإن الآيات المعجزات لمن سبق من الرسل كانت وقتية بصرية و قد زالت، على كونها كبيرة في وقتها و مغزاها، و لكنما القرآن آية خالدة تجري كجري الشمس، و يشرق على قلوب و أفكار المكلفين ما طلعت الشمس و غربت، فهو شمس لا تغرب، بل و تزداد نورا و بهورا على مرّ الدهور، و انها تفك النفوس عن رهانة الأعمال الأغلال التي تسوقها إلى سقر.

إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ. نَذِيراً لِلْبَشَرِ فالقرآن نذير بشير، و السقر نذير، و التسعة عشر نذير للبشر:

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ فهذه النذارة الإلهية من القرآن و من سقر و تسعة عشر، انها للبشر كل البشر، مخيرا دون مسير: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ‏ اختيارا للتقدم فنعمّا، أو للتأخر فبئسما: أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ. فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ.

لقد هيّأ اللّه دوافع تقدم الإنسان الى المثل العليا بالفطرة التي فطر الناس عليها، و بالعقول المتصلة و اخرى منفصلة هم رجالات الوحي، فمن شاء تقدما في فطرته و عقله على ضوء السنن الإلهية، الكونية و التشريعية، فحسبه القرآن هاديا له و سراجا منيرا، و من تخلف عن ذلك كله و انحاز الى الشهوات و المغريات فهو المتأخر عما هيأ اللّه له فلا يلومن إلّا نفسه: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏.

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ان رهانة النفوس بأعمالها ضابطة عامة تعم المكلفين أجمع، و إن كانوا مؤمنين بعضا، إلا أصحاب اليمين‏ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (52: 21) رهانة معتدلة قابلة للتخفيف لمن آمن مهما أخطا و عصى، و رهانة مؤكدة لغير المؤمن و كما يوحيها «رهينة» فانها ليست هنا للتأنيث، لاستواء المذكر و المؤنث في الفعيل، بل للمبالغة، فمن النفوس رهين و منها رهينة و منها غير رهين كأصحاب اليمين و من فوقهم، فإن لهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 260

نفوسا قدسية، فلا ترهن بأعمالها، و لا يسأل عنها، لأنها ما كسبت في إيمانها و أيمانها الا خيرا فأصبحت خيرا في ذواتها، لا يقدر ثوابها بأعمالها.

و النفس هنا تعني كلا الروح و الجسم، و كذلك ما كسبت، تعم مكاسبها الروحانية و الجسدانية، و إن كان الجسد لا يعمل إلا على ضوء الروح، و لكنما الروح قد تكسب مكاسب مجردة بلا وسائط، كالعقيدة و الإيمان و النيّة و أضرابها، فهي تثاب بها أو تعاقب كما سعت، و قد تكسب بواسطة الجسد كسائر الأعمال الجسدانية، فهي تثاب أو تعاقب بواسطة الجسد، و المدرك في كلا الحالين هو الروح، و الرهن يعم الكسبين، و لا سيما أن الكاسب هو الروح في الحالين.

فالنفوس كلها، إلا أصحاب اليمين و السابقين، انها رهينة بمكاسبها، خيرة و شريرة: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (31: 30) تجد خيرها و شرها سواء، فتجزى بهما على سواء، إلا أصحاب اليمين و أحرى منهم السابقين المقربين:

إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ .. صحيح أن من أصحاب اليمين من لا يخلو عن سيئات، و لكنهم متحللون عن رهانتها برجاحة الحسنات: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ (11: 114) فسيئاتهم مكفرة بكبائر الحسنات و بترك كبائر السيآت: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً (4: 31) بل و منهم من يبدل اللّه سيئاتهم حسنات: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ (25: 70).

فهؤلاء سوف لا يرون و لا يجدون سيئاتهم يوم العرض في الميزان لأنها كفرت أو بدلت حسنات، فلا ترهن نفوسم بالسيئات، و الحسنات لا ترهن و تقيد نفوس أصحابها، و انما تحررّها عن السؤال، و عن حدود مقررة لها، فلهم جزاء بلا حساب و فوق الحساب.

ان التقسيم الثلاثي الذي تحمله آيات عدة، يجعل المؤمنين غير التائبين، و من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 261

لم تكفر سيئاته، يجعلهم في أصحاب الشمال، فليس اصحاب الشمال هنا على سواء، و إنما هم المرهنون بأعمالهم، سواء المخلدون في النار، أو الناجون عنها بعد أمد قريب ام بعيد: فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ. وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (56: 14) فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ. وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ. وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (56: 93) فالفريق الأخير من أضل أصحاب الشمال و لا يشملهم كلهم فان منهم: آخرون‏ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ‏ (9: 102) و إذا رجحت سيئاتهم أم لم تكفر بحسناتهم فسبيلهم الأخيرة هي النجاة من النار.

ثم أصحاب اليمين. و أحرى منهم السابقون المقربون. هم ليسوا رهائن مكاسبهم، فهم- و لا سيما الآخرون- ليسوا من المحضرين للحساب، فإنهم فوق الحساب: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (37: 128) فقد استقروا في مستقر العبودية فبماذا يحاسبون؟ و أصحاب اليمين منهم كفّرت سيئاتهم بحسناتهم أو بدّلت حسنات، فعلى م يحاسبون؟:

إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ.

يَتَساءَلُونَ‏ جميعا عَنِ الْمُجْرِمِينَ‏ تساؤل صاحب الشأن المفوض في الموقف، سؤال تبكيت و تجهيل و تخجيل، و ليسمع الجواب من في الموقف، و يتذكره هنا من يقرء القرآن و يسمعه.

عَنِ الْمُجْرِمِينَ‏ و هم من المرهونين بما كسبوا، فالإجرام قطع الثمرة عن الشجرة، فهم الذين قطعوا ثمرات الحياة و لم ينتفعوا منها، قطعا بعد إيناعها كمن آمن ثم كفر، أو قطعا عن نموها و إيناعها كالذين تخلفوا عن هداية الفطرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 262

و الشريعة، فإذا قطع الإنسان عن نفسه: عن شجرته الانسانية- ثمرات حياتها، فقطع نفسه عن الصلة المعرفية باللّه، فهذا مقطوع عن الخير كله و كان مصيره سقر:

ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ما أنفذكم في سقر فلم تنجوا عنها بتوبة و لا شفاعة، و لم تكفر عنكم سيئاتكم فأنفذتكم في سقر؟

هنا نجد الجواب شرحا لمدى الإجرام السالك صاحبه في سقر:

قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ. وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ‏:

هذه هي جماع الأسباب لسلوك سقر لجماع المجرمين، مهما اختلفوا في جمعها كما في أتعس المجرمين، أو بعضها، واحدة أو أكثر، فان الجواب للجميع و ليسوا على نسق واحد في الإجرام، فالمجرمون دركات، كما أن أصحاب اليمين درجات و السؤال لأصحاب اليمين أجمع عن المجرمين أجمع، فليس العطف هنا بين الأربع يوحي لاشتراط الجمع بينها في سلوك سقر:

قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ‏ فالصلاة- في نظرة عميقة- هي الإيمان كله، فالخارج عن زمرة المصلين خارج عن زمرة المؤمنين، مهما كان مقرا بالشهادتين، و لذلك نجدها مع إيتاء الزكاة من شروط قبول توبة المشركين: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ (9: 5) ... فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ (9: 11) فالخروج عن الشرك و الكفر، و الدخول في الأخوة الدينية هما مربوطان بإقام الصلاة و إيتاء الزكاة.

وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ‏: من زكاة أو صدقات أخرى: ضرائب مستقيمة و سواها، فالزكاة، في العلاقات البشرية اسلاميا، هي أخ الصلاة في العلاقات العبودية، قد لا يعتبر تاركها مسلما: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (41: 7).

صحيح أن إقام الصلاة و إيتاء الزكاة هما من فروع الدين، و لكنهما كالأصول،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 263

لأنهما أول ما يبرز و أبرزه ممن يعتنق الإسلام، فليحكم على تاركها بالكفر واقعيا و إن كان مسلما عقائديا.

إن الزكاة هي عبادة اللّه في خلقه بعد عبادته في ذاته، فتركها مع ترك الصلاة ترك لعبادة اللّه من جهتين، و هو يدفع بالإنسان- لا محالة- إلى نكران أصول الدين، بالخوض مع الخائضين المستهزئين برب العالمين و رسله، و التكذيب بيوم الدين:

وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ‏: الخوض لغويا هو الشروع في الماء و المرور فيه و استعير للغور في الباطل، تصديا له و نكرانا للحق، و هذه هي حالة الاستهتار بأمر العقيدة و أخذها مأخذ الهزل و اللعبة دون مبالاة.

فمن الخائضين من يخوض قصدا و عنادا و عتادا على الحق و هم أصول الضلالة، الذين يعيشونها حياتهم، و يضللون من سواهم: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (4: 14) فالذين يخوضون مع الخائضين هم هوامش الضلالة، و حالهم كالأصول و مصيرهم إلى جهنم جميعا، فالخائض في آيات اللّه هنا يخوضها كفرا و استهزاء و لعبا بها، بدل أن يغورها تعمقا و تأنقا و تدبرا: فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ‏ (52: 12) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ‏ (70: 42)، فمنع الخائضين في آيات اللّه فرض، و القعود معهم سكوتا دون نكير حرام، و مسايرتهم و التأثر بفعلتهم كفر: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (7: 68).

وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ‏ و هو من نتائج الخوض، و هو من أخطر الاستهتار، إذ يحرر أصحابه من عب‏ء التكاليف الإلهية، و هو مبدء الإباحية المطلقة فهو من أشر و أخطر الكفر، مهما اعتنق صاحبه عقيدة الإله فانه أمّ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 264

البلاء، إذ تختل جميع الموازين في يدي صاحبه، و تضطرب كافة القيم و المثل في تقديره لمجاله القصير الصغير إذ لا يدين بيوم الدين، فتفسد مقاى‏يسه ليوم الدنيا و الدين، خسر الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين.

فهم لا يزالون شاكين في الدين و يوم الدين، يعيشون الشك و النكران و الحياة المنكرة و المعيشة الضنك حتى الموت الذي ينقلهم من الشك إلى اليقين:

حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ‏: الموت الذي لا محيد عنه و هو يقين للمؤمن و الكافر سواء، و الذي يقطع كل شك و ريبة فيجعل الكافر الناكر للدين و يوم الدين على يقين، و الذي يقطع الآمال الكاذبة و الشكوك الحائلة دون التصديق بما في يوم الدين، فاليقين هنا يعم علم اليقين و عين اليقين الحاصلين بالموت، و واقع اليقين بالموت قبل الموت، فطوبى لمن مات قبل موته: موتوا قبل أن تموتوا فحصل على اليقين الدافع إلى الصالحات قبل الموت، قبل أن يضطر إلى اليقين بواقعه بعد الموت، فيسمع نداء التنديد التجهيل: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.

فليس اليقين هو الموت، و إنما يحصل بالموت لمن لم يحصله قبل الموت، و الموت نفسه أيضا من مصاديق اليقين إذ لا ينكره نفسه أحدا، و إنما النكران لما بعده من حياة برزخية و حياة خالدة بحساب و جزاء وفاق.

و مما يحصّل اليقين و يزداده، مواصلة العبادة: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (15: 99) و نهاية المطاف لليقين الحاصل و المتكامل بالعبادة، هي الموت، فليس الموت هنا أيضا هو اليقين، و إنما هو نهاية اليقين بالعبادة، و من ثم بداية لليقين دون عبادة إذ يكشف الغطاء فيزداد الموقف يقينا و يدخل العابد في نفس اليقين.

و من كانت تلك النكرانات سيرته العقلية و العقائدية و العملية في الحياة، لا تصله شفاعة الشافعين و لا تجديه، إذ إن الشفاعة مبدئيا تكميل الناقص بشفع الكامل إن اذن اللّه، فهي للمتوسطين في الإيمان عقيدة و عملا، لا المتحللين عنه كهؤلاء المذكورين:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 265

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ‏: فطالما هناك شافعون، و لكنهم‏ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى‏ ه- اللّه: من ساءته سيئته و حسنّته حسنته، من يعيش بين الخوف و الرجاء، فحياته مبدئيا ايمانية، طالما يقصر أو يقصّر أحيانا، دون من يبدءون بمبدإ اللاإيمان، و ينتهون الى الموت مجرمين:

تاركين الصلاة مع التاركين، و تاركين إطعام المسكين، و خائضين في النكران مع الخائضين، مكذبين بيوم الدين.

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ‏:؟! ما لهم؟ ما داءهم و ما دواءهم، في حالتهم البئيسة التعيسة، انهم فقط «1» عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ‏: عما يذكرهم اللّه و نعم اللّه و أيام اللّه، من نبي اللّه و كتاب اللّه و سائر آيات اللّه التي هي ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد، فهم حالهم: عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ‏ و الى سواها: التلهية عن الذكرى- مقبلين، فقلوبهم منكوسة، و ابصارهم مطموسة، و حياتهم مركوسة، أجسادهم أجساد الآدميين و أرواحهم أرواح الحمر المستنفرة الشياطين:

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ فالحمر المستنفرة هي حمر الوحش، التي هي طبعها الوحشة و الاستنفار من كل متحرك او ساكن، فكيف بقسورة: من أسد او صائد، تأخذ في الاستنفار في كل اتجاه حين تسمع زئير الأسد او حين تراه و ان لم يأسد، تنبثّ هنا و هناك كالفراش المبثوث، ما يثير الضحك و يفكه من هذه الحركة الجنونية، و كما تستنفر حين يرصدها الصائد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فتقديم الظرف «عن التذكرة» يوحى بحصر المظروف «معرضين» فيه، فلا يعرضون الا عن التذكرة الإلهية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 266

فمشهد هؤلاء الحمر الإنسية في الاستنفار مشهد الحمر الوحشية و أضل سبيلا، إذ يعرضون عن الصائد التذكرة، الذي يحاول صيدهم عن حياة التباب إلى حياة الصواب، فالنبي صياد يرصد الضالين ليصيدهم بالتذكرة.

و لما ذا يعرضون مستنفرين عن قسورة الوحي، الأسد الضرغام الذي يأسد في صيده، لا ليأكل صيده، و انما لينجيه، فالأنبياء قساورة صيادون، يصيدون البهم الضلال بقوة الذكرى و البرهان، بكل مناعة و أمان.

فإذا الحمر المستنفرة، تفر من قسورة، خوف الصيد الفاتك و الافتراس المهلك، فهي لا تلام في استنفارها، و ان كانت زائدة النفرة عن حدها، فهؤلاء الحمر الإنسية يفرون معرضين عن قسورة التذكرة، الناصحة، التي تذكرهم بربهم و مصيرهم، فأين حمر من حمر، و أين قسورة من قسورة؟؟

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى‏ صُحُفاً مُنَشَّرَةً بَلْ‏: ام- ذلك الشماس و النفار عن تذكرة محمد الرسول و قرآنه- ليس فرارا عن التذكرة كتذكرة، و إنما استكبارا على حامل التذكرة، انه بشر مثلنا، فلما ذا يفضل علينا بوحي التذكرة: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا .. فليوح إلى كلّ منّا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ (6: 124).

فمن استكبارهم‏ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى‏ صُحُفاً من الوحي تختصّه «منشرة» معلنة لهم و لمن سواهم: رسالات مستقلة فردية مستغلة، فيها ما يهوون، طبعا و شرائع متفاوتة متهافتة تفاوت الأهواء و تهافت الآراء.

فلو ان كلا يحوى ما يحويه الكل لوحدة الشرعة في الكل كما القرآن، فلا كثرة هنا كما ليست هناك، فليكتب كل نسخة من القرآن ككتاب اليه، و لكنهم لا يريدون وحدة الرسالة و الشريعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 267

و لو أن كلّا يناحر الآخر في محتواه، فليست هكذا الشرعة الإلهية، و لأمة واحدة، و بل و للأمم أجمع، حيث الدين واحد، و الشرايع الى الدين في جذورها واحدة، مهما اختلفت في بعض الصور و في البعض من الصور.

فالشرعة الإلهية تعني توحيد الحياة بسلوكها إلى مرضاة اللّه و صالح الناس، حيث تزيل خلافات الناس، لا لتزيد خلافات على خلافات، ظلمات بعضها فوق بعض و كما يريدها هؤلاء الناس! و ليكن حاملو الشريعة من أصفى الأصفياء بين الناس، و ليتلقوا، و يلقوا شريعة اللّه إلى الناس، و يطبقوها كما يريده إله الناس، فكيف يتحمل شريعة اللّه كرسل، أناس هم أشر من نسناس، يستكبرون على رسل اللّه، و يتحكمون على رسالات اللّه، و يقتسمون فيما بينهم رسالة اللّه، كأنها مال يغنم.

كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ .. كلا: ليس الأمر كهذه و تلك و إن تفوهوا بها و ادعوها، فلا فرارهم عن التذكرة لخوفهم عنها، و لا ان كل امرئ منهم يريد ان يؤتى صحفا منشرة، حتى يعمّروا على ضوءها الحياة الدنيا و الآخرة: كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ هذا داءهم و بلاءهم مهما تلونوا و جاه الرسالات بألوان الاعتذارات، فالذي لا يخاف الآخرة إذ لا يؤمن باللّه، انه لا يريد خطاب اللّه و شرعة اللّه كيفما كانت و حيثما نزلت.

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ .. كلا: ليس كما تهوون، كردع ثان لما يهوون: أن يؤتى كل امرئ منهم صحفا منشرة، فالقرآن تذكرة و ليست لعبة مقسمة بين اللاعبين، تذكرة جماعية يحملها أول العابدين، و ليست فردية انقسامية يحملها الفوضى ناس و نسناس، ليزيدوا في خلافاتهم و رعوناتهم و فخفخاتهم.

تذكرة تمشي مع المتذكرين باختيار، و لا تمشّيهم بتسيير و اضطرار:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 268

فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ‏: من شاء التذكرة ذكره: القرآن و نبي القرآن. فمن يذكر التذكرة دون ان ينفر عنها كالحمر المستنفرة، فانها له تذكرة و تهديه الى اللّه.

و ترى انهم يذكرون تذكرة اللّه دون مشيئة اللّه، و بمشيئتهم أنفسهم فحسب، كما قد يوحي به‏ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ‏ أم انه فقط بمشيئة اللّه؟:

وَ ما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى‏ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ:

فهنا مشيئتان، من الناس أن يذكروا ذكرى اللّه، و من اللّه أن يؤيدهم في ذكراهم،

لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين‏

دون تدافع أو صدام بين أمرين: مشيئة اللّه و مشيئة الناس، و إنما تلاؤم و وئام، و لكنما المشيئات كلها مشدودة الى مشيئة اللّه، يمضي في اتجاهها و في داخل مجالها، و كما يناسب عدله و فضله، دونما تسيير و إجبار، و إنما في يسر و اختيار، اللهم إلا فيما لا يعاقب عليه أو يثاب، مما هو خارج إطلاقا عن نطاق الاختيار.

كما و لا يشاء اللّه الذكرى إذا لا يشاءون، لا أنهم لا يشاءون و يشاء اللّه فهم يغلبون- إذا- مشيئة اللّه! فمن يعلم اللّه منه انه يشاء ان يذكر ذكر اللّه، فهو يذكره بمشيئة اللّه، فان اللّه يسبقنا في حسناتنا، و من يعلم انه لا يشاء فلا يشاء اللّه ذكراه، و يذره في غيه يمرح، و في طغيانه يعمه، فإننا سابقون اللّه في سيئاتنا، و هو سابق في حسناتنا إذ يشاء حسناتنا فيؤيدنا، و لا يشاء سيئاتنا حتى يدفعنا لها.

فهنالك الأصل مشيئة اللّه تحوّل مشيئة الصالحات الى تأكدها فواقعها، ثم لا تحوّل مشيئة السيئات لشي‏ء منها إلا تركا و إعراضا، طالما السيئة أيضا لا تتحقق أخيرا إلا بمشيئة اللّه، و لكنها مشيئة أخيرة ضرورية للواقع، لولاها لم تحصل أية سيئة، لوحدة الالوهية، و لكنما المشيئة للحسنات تصاحب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 269

أصحابها على طول الخط، و للبحث الفصل عنها مواضيع أخرى نأتي عليها في طيات آياتها.

هُوَ أَهْلُ التَّقْوى‏ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ: فإذا اتقي يغفر كما اتقي‏

، يقول الله: أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي شريك، فإذا اتقيت و لم يجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك‏ «1»

و طبعا لمن يشاء دون فوضى:

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

فليتقى اللّه في ألوهيته فلا تنكر، و في وحدته فلا يؤخذ له شريك، و في طاعته فلا يعصى، ثم و لكل تقوى مغفرة عن كل طغوى قد تخالطها، و توحيد اللّه هو الأم في درجات التقوى، كما الشرك هو الأم في دركات الطغوى، ثم بعدهما درجات و دركات.

فمن يذكر ذكر اللّه، فانه في سبيل تقوى اللّه، و مهما يكن قاصرا أو مقصرا في تحقيق ذكر اللّه و ذكراه، تفهما و تطبيقا، فان اللّه كما هو أهل التقوى، كذلك هو أهل المغفرة، يغفر للمتقين، فيغفر قصورهم و تقصيرهم ما داموا هم على الطريقة، أهلية المغفرة تلو أهلية التقوى، جزاء وفاقا و عطاء حسابا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 270

سورة القيامة- مكية- و آياتها أربعون‏

[سورة القيامة (75): الآيات 1 الى 15]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى‏ قادِرِينَ عَلى‏ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4)

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (9)

يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلاَّ لا وَزَرَ (11) إِلى‏ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)

وَ لَوْ أَلْقى‏ مَعاذِيرَهُ (15)

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ. وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ:

إنه تصريحة باللّاقسم و تلويحة بالقسم كسائر اللّاقسم في القرآن‏ «1» ان يوم القيامة و النفس اللوامة يصلحان أن يقسم بهما للصالحين المؤمنين بالقيامة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 159 من الجزء الثلاثين: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 271

الحاملين النفس اللوامة، فهما يدلان أصحابهما الى إمكانية و ضرورة جمع العظام و تسوية البنان ليوم الحساب.

فلا معنى للقيامة الحقة، حسب الأدلة الواقعية و العقلية و نصوص الوحي، إلا قيام الأجساد من الأجداث و عود الأرواح إليها للحساب و الجزاء الوفاق، و قيام الأشهاد و قيام الناس لرب العالمين، فالقيامة المجردة عن حشر الأجساد قيامة جرداء عن أهم معانيها و مغازيها.

و ناكروا حشر الأجساد و الحساب لا يصدقون بقيامة الحساب حتى يقسم لهم بها تصديقا إلزاميا، و ان كانوا يلهجون بها تعنتا يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ لكنها كلمة جوفاء عن أهم معانيها: جمع العظام و الحياة الحساب، إذا لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ لمن ينكر حقه مهما لهج بلفظه.

و النفس اللوامة- كذلك- كيوم القيامة، تشهد للحياة الحساب، فالنفوس على ضروب شتى: منها قدسية مطمئنة باللّه، راضية عن اللّه، فمرضية عند اللّه، فهي لا تلوّم أصحابها إذ لا تقصّر عامدة معاندة، مهما قصرت عما يحق لساحة الربوبية، فقد تلوم لقصورها دون تلوّم، فهي دائبة في طاعة اللّه، مستزيدة لمرضاة اللّه كالسابقين و الرعيل الأعلى من اصحاب اليمين، و هؤلاء حياتهم الذكر، ليسوا بحاجة الى القسم بيوم القيامة و النفس اللوامة، فانها لهم مطمئنة.

و منها بهيمية مطمئنة الى دركات الهوى، معرضة عن الهدى: وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها (10: 7) و قد تبلغ من الشراسة و الشماس لحدّ تلوّم أنفسها و سواها لو فعلت خيرا أو اهتمت بخير، فهؤلاء لا ينفعهم القسم بالنفس اللوّامة إذ فقدوها إلى خلافها.

و منها لوّامة غير مطمئنة لا الى اللّه و لا الى اللهو، عوان بين ذلك، قد تطيع ربها فتطمئن، و قد تعصي و تشرد فتلوّم نفسها، فهي الى خير ما دامت لوّامة تندم و تندّم أصحابها، تلوّم العقل لو ارتاب في الحساب العدل، و تلوّم نفسها في جوارحها لو عصت أمر ربها، فهي ضابطة لعقيدة الايمان،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 272

رابطة به عمل الايمان، و لذلك يحق ان يقسم بها كبرهان على قيام الأجساد يوم الحساب للجزاء العدل.

فليقسم بيوم القيامة لمن يعتقده ما لم يصل الى علم اليقين و ما فوقه، و ليقسم بالنفس اللوّامة لمن يحملها حتى تذكرة و تحمله الى ذكرى جمع العظام و تسوية البنان.

و أما الناكر ليوم القيامة الحقة، و الفاقد للنفس اللوّامة، الضاربة الى اعماق ذاته النفس الامارة بالسوء، فكيف يقسم له بيوم القيامة و النفس اللوامة؟ و قد ظل مرتكسا في الشهوات و غارقا في اللذات.

و إذا كان اللّاقسم هنا يعنى به القسم خلاف الصحيح و الفصيح، فأين جواب القسم؟ لا نجد جوابا إلا أنه لا قسم يلمح بالقسم، ريا له جمعا ما ألطفه!.

هنا- لإثبات حشر الأجساد و قيامها من الأجداث يكتفى بسؤال لائح الجواب عند فاقدي الدليلين، ما لم يفقدوا التمييز تماما:

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ‏: أ فهذا الإنسان الهزيل الذليل يحيل لنا جمع العظام: أَلَّنْ نَجْمَعَ‏ إحالة التجهيل: أنها ضلت في الأرض فكيف تجمع: وَ قالُوا: أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (32: 10) أم إحالة التعجيز: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (26: 78) أم لا ذا و لا ذاك و انما يفتري علينا الظلم، أننا لا نحشر شيئا رغم الظلامات القاتلة يوم الدنيا، غير المجازى عليها فيها! أم نحشر الأرواح دون الأجساد، رغم انهما كانا شريكي الأعمال خيرة و شريرة، فكيف تحرم الأجساد من ملاذها، أو تعفى عن عذابها؟ كل ذلك خيالات شرسة و ليست محالات.

بَلى‏ قادِرِينَ عَلى‏ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ‏: نرى عشرات الآيات يتمسك فيها بشأن إثبات امكانية حشر الأجساد ببرهان الأولوية: من عدة جهات، كأولوية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 273

الإعادة من الخلق أول مرة، بأنها أهون، و ان كان الكل عند اللّه هينا، و هنا بأولوية جمع العظام من تسوية البنان و هو مسوّيها أولا و أخيرا، فهؤلاء المشركون في عبادة اللّه،؟؟؟ الخلق باللّه، عليهم أن يصدقوا بإمكانية حشر الأجساد و هو خلقها ثانيا، بعد إذ هم مصدقون بخلقها أولا: أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (50: 15)، و عليهم تصديق جمع العظام بعد ما يرون من تسوية البنان و هي أدق الخلق و أرقّه في الإنسان، و هي كناية عن إعادة التكوين الانساني بأدق ما فيه دون عزوب عنه من شي‏ء: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ...: توفيا عند الموت لكلا الجسم و الروح و إيفاء لهما بأمر اللّه عند الحشر.

نُسَوِّيَ بَنانَهُ‏ فالبنان هي الأصابع من البنّ: الإقامة، فان بها صلاح الأحوال التي تمكّن الإنسان أن يبنّ بها و يقيم حياته، «بلى» نجمع عظامه حال أننا قادِرِينَ عَلى‏ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ‏ أيضا، فإن بها معظم أفعال الإنسان، و هي آخر و أدق ما يخلق من عظام الإنسان، و هي من أصغرها و أكثرها نسبيا بين العظام‏ «1» و من أهم ما في البنان، الذي كشف عنه العلم، خطوط رءوس البنان التي يستفاد منها كأضبط التواقيع التي لا تشتبه ببعض، و يستحيل فيها الاحتيال و التزوير، و هي من أهم ما يكشف بها الجرائم، فقد يعرف الجاني بالآثار الباقية على يديه في عملية الجناية، يعرف بسلاحه الذي استعمله و إن لم يكن فيه أثر الدم، و إنما المسكة يبين فيها بالعيون المسلحة، فللبنان بالغ الأهمية في الكشف عن أصحابها، و لأن الخطوط المهندسة في كل يد تختلف عن سائر الأيدي، فمهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فان عظام أصابع اليدين 58، و للرجلين ثمانية و عشرون المجموع 86 عظاما دقيقة وضعت لمنافع لولاها ما تمت تلك المنافع كالقبض و البسط و استعمال اليدين في الجذب و الدفع، و هي بين عظام الإنسان (248) تصبح ثلث العظام كلها، على ان الأصابع العشرين ليست الا زهاء 1/ 50 من الإنسان.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 18)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 274

تشابه الأشخاص و اشتبه بعضهم ببعض، لا يوجد تشابه بين البنان في هندستها بخطوطها.

فالقادر على تسوية البنان قادر بأحرى على جمع سائر العظام لمهمة الحشر للحساب و الجزاء العدل، و كافة البراهين الواقعية و الفطرية و العقلية و التحولات الكونية، كلها مسرودة لإثبات إمكانية و ضرورة حشر الأجساد، فلا يستطيع الإنسان- أيا كان- أن يثبت على حسبان: أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ‏:

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ. يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ الفجر هو الشق الواسع، و الإنسان يريد بنكرانه يوم القيامة- غير المسنود إلى برهان- ليشق أمامه من الزمان ليرى‏ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ خرقا لستر الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا اللّه، و إذ لا يجد جوابا عن هذا السؤال، يتذرعه إلى نكران الحساب، و هل يا ترى أية صلة بين عرفان وقت الحساب و واقع الحساب حتى إذا جهل الوقت أنكر الأصل؟.

و إنه يريد ليفجر أمامه من زمن الساعة، ليتوسع في فجوره أمامه إلى الساعة لا يصده شبح الحشر الحساب، فخوف الحساب لجام عن الفجور و مصدّ له، و هو يحاول إزالة هذا الصد ليتحرر و يمضي قدما في الفجور أمامه بلا حساب، إذ لا يحسب له أي حساب.

يتذرع سئواله المتعنت: أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ ليخلق ثالوث الفجر و الفجور، الموحد في نكران الساعة، من فجر الزمن بينه و بين الساعة ليعرف متى هي الساعة، فإذ لا جواب فلا ساعة! و من فجور مستمر بينه و بين ساعته إذ يحسب أن لا حساب، و من فجور و نكران بنفس الساعة، ثالوث الفجر المندفع من الفجور و الدافع اليه، و الأصل واحد هو التحرر في الفجور، أقانيم ثلاثة تتناصر في تحكيم صرح الفجور.

فليس السؤال‏ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ سؤال تفهم، و إنما يجرس ب «أيان»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 275

مديدا لاستبعاده يوم القيامة، أحيانا بسناد استحالة جمع العظام، و أخرى أن لا جواب لسئواله «أيان» فليفجر حياته كل ستر و ناموس إذ لا حساب! و انهم لا برهان لهم على نكران الحساب أو المرية فيه إلا ثورة الشهوة، فليفجروا و يشقوا واسعا كل ما يسدها و يصد عنها.

و مهما كان لسؤال‏ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ‏ جواب الأولوية: بَلى‏ قادِرِينَ عَلى‏ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ‏ فليس لسؤال‏ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ إلا عرض مشهد من مشاهد القيامة تشترك فيه المشاعر الإنسانية و المشاهد الكونية، فسوف يرون أنفسهم في نفس الجواب، و أما هنا فلا جواب عن زمن الحساب إلا أن اللّه عنده علم الساعة:

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَ خَسَفَ الْقَمَرُ. وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كجواب سريع خاطف حاسم دون تريّث و حتى في موسيقا اللفط، إيحاء أنه لا جواب عن زمن القيامة إلا عرضا لمشهده.

و برق البصر اضطرابه و تجوّله من خوف و تخطّفه و تقلّبه، سواء بصر القلب أو القالب: يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ (24: 37) و شخوصه من وطأة الطامة: فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (21: 97) برقا يبرز في البصر و يضرب إلى أعماق ذات البشر: مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (14: 43) برقا في قيامة الإماتة و التدمير إذ ترجف الراجفة، ثم برقا في قيامة الإحياء و التعمير، إذ تتبعها الرادفة: إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ (33: 10).

وَ خَسَفَ الْقَمَرُ خسوفا بنوره و خسفا بكيانه، و من أسباب خسفه أن تدركه الشمس و تقضي عليه حين تكويرها:

وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ: جمع كلّ في نفسه، و جمعت الشمس إلى القمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 276

لتحيط به بعد الفراق المديد «1»، فلم تكن الشمس ما دامت شمسا لتدرك القمر و لا القمر ما دام قمرا ليدرك: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (36: 40) و لكنهما إذا قامت القيامة يخرجان من لا ينبغي إلى ينبغي و يجب، فإذ يخسف القمر خسوفا في نوره، تدركه الشمس لانهاء كيانه و خسفه، فمن معاني كور الشمس جمعها إلى القمر لتجمعه عن قمريته، كما جمعت هي عن كونها شمسا، فجمع الشمس هنا يشير إلى تكويرها في نفسها و كورها إلى القمر و على القمر «2» و حقيق لهذا الخسف و الجمع أن يبرق البصر و يذهل البشر، فمن معاني برق البصر أن ينظر إلى برق:

يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ فمهما اختلق الإنسان هنا لنفسه مفرا عن الحساب و تكاليف يوم الحساب، فما يصنع يومئذ و هو في واقع الحساب يوم الحساب، إلا أن يقول متحسرا متحيرا أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ متسائلا نفسه و أهل الحشر، بكل فزع و ارتياع- إذ لا يجد مفرا من قهر اللّه و نكاله- أين المفر الذي كنا نحسبه: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ‏ .. أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ فهذا هو يوم القيامة، و قد جمعت عظامك و سويت بنانك‏ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ زمانه و مكانه:

كَلَّا لا وَزَرَ و هو الملجأ الذي يلتجئ اليه من الجبل، فلا ملجأ حينئذ إلا اللّه، و لا مستقر إلا إليه:

إِلى‏ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ: مستقر رحمة لك و لمن معك: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا (25: 24) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (25: 76)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لم يقل: و جمعت الشمس و القمر، ليدل بتذكير الضمير أن المجموع هنا هو كل منهما في نفسه، و كل مع زميله، جمعا من جهتين.

(2) راجع ص 137- 140 من الجزء الاول من الثلاثين على ضوء إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 277

و مستقر لعنة و عذاب لغير المؤمنين: إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (25: 66).

يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ: تنبّؤا بالبصر وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً و تنبؤا بالبصيرة إذ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى‏ (79: 35) و بما أن النبأ خبر ذو فائدة عظيمة، فعائدة تنبؤ الإنسان هي واقع الحجة له و عليه سرا و علانية، و ليعرفها أهل الموقف أيضا و يشهدوا مع الشاهدين: بما قدمه من عمل قبل فوته، و ما أخره بعده من آثاره خيرا و شرا: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (36: 12) و رغم أن الأعمال تحضر كلها، فبعضها منقطع الأثر فهو مما قدم، و بعضها باق بآثاره فهو مما أخّر و على حد المروي عن باقر العلوم (ع) «1» و كلّ داخل فيما قدم بمعنى آخر هو حضور العمل منقطع الأثر أو ثابته: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (3: 30).

بَلِ الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَ لَوْ أَلْقى‏ مَعاذِيرَهُ‏ فما هذه البصيرة؟ هل هي الإنسان نفسه: بالغ في الإبصار على نفسه قلبا و قالبا، لمكان تاء المبالغة، و مختص بهذه البصارة عليه، لمكان تقدم الظرف‏ عَلى‏ نَفْسِهِ‏ فهو هو، لا سواه من أمثاله، يعلم من نفسه سرها و علانيتها، يحيط بها حيطة العلم الجامع الجامح، لا يعزب عن نفسه شي‏ء من مداخلها و مخارجها، بصيرة يوم الدنيا بما له و عليه و معه و فيه و منه: من خير و شر، و بصيرة يوم الدين: حجة عليه و شاهد بما اقترفت من ذنب و احتملت من وزر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان 4: 406 القمي عن أبي جعفر الباقر (ع) في الآية: بما قدم من خير و شر و ما أخر من سنة ليستن بها من بعده فان كان شرا كان عليه مثل وزرهم و لا ينقص من وزرهم شيئا و ان كان خيرا كان له مثل أجورهم و لا ينقص من أجورهم شيئا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 278

و يبصر كذلك ما عمله من أعمال و ما قاله من أقوال، فهو بصيرة على نفسه على طول الخط وَ لَوْ أَلْقى‏ مَعاذِيرَهُ‏ و ان لفق الأقاويل و تعلق بالمعاذير: آلات العذر و أداته الملقاة يوم الدنيا و يوم الدين، علّه ينجو من الحساب و العقاب، وَ لَوْ أَلْقى‏ مَعاذِيرَهُ‏: ألقى ستوره مستخفيا، و أغلق أبوابه متواريا، فانه هو رقيب على نفسه، عالم بمستسر غيبه، فيما يقارفه من معصية، أو يفارقه من طاعة، أو يقاربه من ريبة.

هذا؟ أم هذه البصيرة هي الشهود عليه من خارج ذاته، إضافة إليه، فعلى نفس الإنسان شهود و حفاظ هي بصيرة عليه، لا يفلت منهم قالت و لا يعزب عنهم عازب، مهما تستر و ألقى معاذيره: ستوره، و مهما اعتذر بأسباب يختلقها و يلقيها علّه ينجو، فانه محاط بذاته و أفعاله ب «بصيرة» إلهية و ملائكية و بشرية و رسالية فالله على ما تعملون بصير و ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ و رسل اللّه و أنبيائه كذلك شهداء بصيرة، فهو غريق في يمّ البصيرة من دواخل ذاته، فانه على نفسه بصيرة، و من سواها، فان اللّه قرر على الإنسان عيونا بصيرة وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً (6: 61) و حتى أعضائه بصيرة عليه تتلقى أعماله يوم الدنيا، و تشهد عليه يوم الدين.

هذا أم ذاك؟ كلّ محتمل، و الجمع أتم و أجمل، و إن كان الثاني يشمل الأول:

بَلِ الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ‏ حفاظ و شهود «بصيرة» من دواخل ذاته و خوارجها و إن كان الأفضل أدبيا هو الجمع بالدلالتين.

و قد استدل الراسخون في العلم بآية البصيرة على أن الإنسان أعلم بنفسه من غيره فيما ينويه أو يفعله، و هو حجة على نفسه يحتج اللّه بها عليه في الدارين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

من لا يحضره الفقيه عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله (ع) ما حد المرض الذي يفطر فيه الرجل و يدع الصلاة من قيام؟ فقال: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ هو اعلم بما يطيقه،

و

الكافي عنه (ع) قال: ما يصنع أحدكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 279

[سورة القيامة (75): الآيات 16 الى 40]

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20)

وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (22) إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ (23) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (25)

كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى‏ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30)

فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى (31) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى‏ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏ (34) ثُمَّ أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏ (35)

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏ (37) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‏ (39) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏ (40)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ان يظهر حسنا و يستر سيئا أ ليس يرجع الى نفسه فيعلم ان ذلك ليس كذلك، و الله عز و جل يقول: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ان السريرة إذا صحت قويت العلانية،

و

فيه‏ قيل له (ع) انا ندخل على أخ لنا في بيت أيتام و معهم خادم فنقعد على بساطهم و نشرب من ماءهم و يخدمنا خادمهم و ربما طعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا و فيه من طعامهم فما ترى في ذلك؟

فقال: ان كان في دخولكم عليه منفعة لهم فلا بأس، و ان كان فيه ضرر فلا، و قال: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ فأنتم لا يخفى عليكم و قد قال الله عز و جل‏ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 280

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ‏- إلى- بيانه: آيات أربع اعترضت بين آيات القيامة، ناهية رسول الهدى عن عجلة اللسان و حركته بالقرآن قبل قضاء وحيه و قرآنه: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (20: 114) فقد أمر باتباع قراءته دون استعجال بها قبلها، و لا تحريك لسانه بها، مما يوحي انه (ص) استعجل في قراءة آيات أو حرّك لسانه بها قبل قضاء وحيها و قراءتها و لماذا و كيف؟.

فهل بالإمكان قراءة القرآن قبل قرآنه: نزوله مقروءا؟ و إذ لا! و طبعا لا! فكيف ينهى عنها؟ تجد الجواب في آيات القدر و حم، الدالة على نزول القرآن المحكم في ليلة القدر، فلقد كان للرسول (ص) خبرة و اطلاق بالقرآن المحكم قبل وحيه المفصل:

كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (11: 1) و يريد اللّه أن يكون القرآن وحيا مزدوجا: لفظا إلى معنى، و لا يكفى العلم بوحي المعنى و لا سيما المحكم منه، عن الوحي المفصل، الذي فيه وحي اللفظ و تفصيل المعنى، ففيه زيادة العلم و رجاحة الاعجاز: .. وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً «1».

فلم تكن العجلة بالقرآن استعجالا في ترداده بعد قراءته لحفظه‏ «2»، لمكان النص‏ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ‏ و ... قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ‏ و قد ضمن اللّه له بداية الوحي المفصل ألا ينساه: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏ و إنما هي لشغفه البالغ في تحلية لسانه بالقرآن المفصل بعد ما تحلى قلبه بالقرآن المجمل، و اعتمادا على هذا العلم المسبق، و لكن‏ فَلا تَعْجَلْ .. لا تُحَرِّكْ .. وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى‏ مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا فقد كان قرآنا غير مفروق في الوحي المجمل، ثم فرقه اللّه بالمفصل.

و آيتا النهي عن الاستعجال و التحريك توحيان أنه (ص) إنما حرك لسانه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع 30: 2 ص 373- 376 من سورة القدر.

(2) خلاف ما نراه في بعض الروايات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 281

ليعجل خلال آيات «القيامة» و انه استعجل بين الآيات من «طه» و هما مكيتان، و النهي هنا و هناك نهي تنزيه و إنباء، لا نهي تحريم، و ليجمع اللّه وحي اللفظ المفصل إلى وحي معناه، لا فحسب، فقد كتب على نفسه جمع المفصل أيضا و قرآنه.

فمن ثم توحي الآيات انه ليس على الرسول شي‏ء من الأمر بشأن القرآن، في نزوله عليه نجوما حسب الحاجات و المناسبات، و في جمعه و تأليفه كما هو الآن، إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ‏ و ليتبع قرآنه على الناس بعد جمعه و قرآنه من اللّه:

فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ‏، و في بيان ما أجمل فيه، بعضه ببعض أو بوحي السنة: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ‏، فلا عليه أن يحرك به لسانه ليعجل به سنادا إلى نزوله عليه محكما مسبقا ليلة القدر، فهو الذي يفصله هنا كما أجمله وحيا إلى قلبك هناك‏ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ‏ و لا موقع لجمع الآيات إلا بعد نزولها المفصل، إذا فجمع القرآن كنزوله إنما هو من اللّه، لا من النبي (ص) فضلا عن خلفاءه و أصحابه! فهنا قرآن قبل الجمع هي الآيات النازلة نجوما متفرقة خلوا عن الروابط، و قرآن بعد الجمع هو المقرؤ على الرسول سورا منسقة بآيات مرتبة مرتبطة، و كلاهما من اختصاصات اللّه، كان يأمر الرسول أصحابه و كتّاب الوحي أن يرتبوها كما يوحى إليه، ترتيبا و تأليفا بالوحي، كما النزول غير المؤلف كان بالوحي، و قد يوحي هكذا اجمع إلهي بنزول القرآن المفصل مرتين، و لو تدريجيا حتى نزلت المائدة آخر ما نزلت من القرآن، فأصبح القرآن مؤلفا مجموعا كما هو الآن، و قد كان يدرس و يحفظ جميعه كجمعه الآن، فجماعة من الصحابة ختموه على النبي (ص) عدة ختامات و كان (ص)- حين جمعه- يأمر الكتّاب أن يسجلوا الآيات المتفرقات في مواضيع خاصة من السور التي رتبها بالوحي، و سماها جميعا كما تواتر عنه (ص) و تصرح آيات عدة أن القرآن كان سورا زمن الرسول (ص) «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ‏ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 282

كما يروى عنه (ص) أيضا، أسماء السور و أعدادها و آياتها و حروفها «2».

و هل يا ترى بالإمكان أن ينزل القرآن نجوما ثم يجعل اللّه أمر الجمع و التأليف فوضى بعد الرسول (ص) و في مختلف التأليف مختلف المعاني المسرودة فرادى، المقصودة جملا! و لو صدقنا هذه الفوضى! فمن هذا الذي ألفه بعد الرسول (ص) و كيف أجمع المسلمون في جميع القرون على ما جمعه غير الرسول، و المسلمون شتى و الآراء شتى، لحدّ لم يجمعوا على جميع ما أتى به الرسول، فضلا عن سواه!.

و هل يا ترى ان اللّه ينهى رسوله عن أن يعجل بلفظه و عنده معناه و عن أن يجمعه و هو مهبط تنزيله بآياته، و عن بيانه و هو الرسول! فيختصها اللّه بنفسه دون رسوله، ثم يسمح لخلفائه غير المعصومين أو المعصومين، أن يجمعوه و يؤلفوه؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فالسورة جماعة من الآيات مرتبة، سواء نزلت سورة ام رتبت بعد النزول سورة، و التحدي لا يخص ببعض القرآن، حتى يقال: على المعني بسورة و عشر سور هي التي أنزلت سورا، فانما يتحدى القرآن بكله‏ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى‏ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

(2) كما

عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب (ع) انه قال: سألت النبي (ص) عن ثواب القرآن فاخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأول ما نزل عليه بمكة «فاتحة الكتاب» ثم‏ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ‏ ثم «ن» الى ان قال و أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم- الى قوله- ثم هل أتى، ثم قال النبي (ص): جميع سور القرآن مائة و اربع عشرة سورة و جميع آيات القرآن ستة الاف آية و مائتا آية و ست و ثلاثون آية و جميع حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف واحد و عشرون الف و مائتان و خمسون حرفا لا يرغب في تعلم القرآن الا السعداء و لا يتعهد قراءته الا أولياء الرحمن. (كتاب الإيضاح للاستاذ احمد الزاهد باسناده عن سعيد ابن المسيب عنه (ع)).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 283

ثالوث الاستحالة بعيدا عن العقل و الدين‏ «1».

و من ثم فآية الجمع و البيان يغنينا عن القيل و القال في «من جمع القرآن و كيف جمع»؟ و ما قيمة الأحاديث المتناقضة في كيفية الجمع و شخصية الجامع‏ «2» المعارضة- لو دلت- لآية الجمع و برهان العقل؟ و للأحاديث المتواترة أنه كان مجموعا زمن الرسول (ص) «3».

و ما مصحف الإمام علي عليه السلام الذي جمعه بعد النبي (ص) إلا نفس هذا القرآن في متنه، و إنما رفضوه للتفسيرات و التأويلات التي أوردها عن النبي (ص) في هوامشه، مما فضحت جموع المنافقين، و لذلك رفضوه.

و ما قصة جمع القرآن بعد النبي (ص) زمن الخلفاء، إلا جمع المجموع زمن النبي، المكتوب مفرقا، فجمعوه في مصحف واحد، لكيلا يضيع جمع النبي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هو: 1- عدم امكانية هكذا جمع منسق بغير الوحي 2- و استحالة اجماع المسلمين على ما جمعه أحدهم 3- و استحالة إحالة الجمع الى غير الرسول مع ما نهي الرسول عنه.

(2) فانها متناقضة في: زمن جمع القرآن، زمن أبي بكر؟ أو عمر؟

أو عثمان؟ و في من تصدى لجمعه: زيد بن ثابت؟ ام ابو بكر نفسه؟ ام زيد و عمر؟ و في: هل بقي من الآيات ما لم يدون الى زمن عثمان: بين نفي و اثبات! و في: هل محى عثمان شيئا مما كان قبله؟ بين نافية و مثبتة! و في: من اي مصدر جمع عثمان؟ اعتمد على مصحف أبي بكر؟ ام هو جمعه بشهادة شاهدين؟ او باخبار كل من سمع عن رسول الله؟ و في: من الذي طلب من أبي بكر جمع القرآن؟ هل هو عمر؟ ام زيد؟ و في: من جمع المصحف الامام و نشره في البلاد؟ هل هو عثمان؟ ام عمر؟ و في:

من عيّنه عثمان لكتابة القرآن؟ هل هو زيد و ابن الزبير و سعيد و عبد الرحمان؟

ام زيد للكتابة و سعيد للإملاء؟ ام ثقيف للكتابة و هذيل للإملاء؟ او المملي أبي بن كعب و سعيد كان يعرب ما كتبه زيد؟

(3) رواها جماعة كثيرة من محدثي الفريقين و أئمة الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 284

كما جمع، و أجمعوا على قراءة واحدة هي المتواترة عن النبي (ص) فرضيها المسلمون أجمع، و لكي يبقى القرآن وحيا خالصا حتى في قراءته، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه، لذلك فنحن المسلمين لا نعتمد على سائر القراءات المخالفة للمتواتر المسجل في القرآن، لا سيما إذا خلفت اختلاف المعنى.

و ما اختلاق نسبة أصل التأليف و الجمع إلى غير النبي (ص) إلا توهينا للرسالة المحمدية، و وهنا لكيان القرآن، و ترفيعا لشأن من نسبوا إليه هكذا أجمع!.

كلا! إن القرآن كما هو الآن، كله إلهي: من معانيه و ألفاظه و ترتيب آياته و قراءته، و سوره و أسماءها: ازدواجية الوحي، دون تدخل لغير اللّه في أيّ من هذه، و لا من الرسول نفسه إلا بالوحي.

و ان قصة الجمع المزيفة، غير الإلهي، مما تذرّعها المتقولون عن التحريف، ضعف الطالب و المطلوب!.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ‏ بيان للقرآن المحكم بالقرآن المفصل، و بيان بجمع الآيات كما الآن، فان الجمع يساعد على تفهم المفردات، و بيان لكل آية بنظيراتها و إن كانت في غير جمعها، و بيان بوحي السنة المفسرة للقرآن، ازدواجية البيان بازدواجية وحي السنة و القرآن و كما تجدها في تفسيرنا «الفرقان»، فقد تكفل اللّه تكفلا مطلقا بشأن القرآن، مجملا و تفصيلا و جمعا و حفظا و بيانا، ثم ليس للرسول و لا عليه إلا تلاوته للناس و بيانه كما بين له، و تطبيقه كذلك، و إن لتسجيل هذه المهمة الكبرى في وحي القرآن، قيمته في تعميق إيحاءاته للناس أجمعين.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ. وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ: هنا رجعة- بعد تحكيم وحي القرآن بهذه الجمل المعترضة- رجعة إلى التنديد بالإنسان الناكر لرجعته حيا بعد الموت: ان من بواعثه حب الحياة العاجلة، و لا يتجمع حبها و الآجلة:

فحب كلّ منهما ينسي الثانية على قدره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 285

كَلَّا إنه لا برهان على استحالة جمع العظام إلا حب العاجلة، فتذرون الآخرة، و

«حب الدنيا رأس كل خطيئة»

و طول الأمل في الأولى، كذلك ينسي الآخرة.

إن حب العاجلة يخلف وجوها باسرة، و حب الآجلة وجوها ناضرة، إلى ربها ناظرة:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ. وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ.

تقسيم ثنائي لأهل الموقف إلى وجوه ناضرة ناظرة، و أخرى باسرة فاقرة:

فما هذه الوجوه؟ و ما هو النظر إلى الرب؟.

الوجه ما يواجه به صاحبه و يواجه به، فهو من الإنسان لمثله وجهه الظاهر، فنظره نظر البصر، و هو من الكائنات كلها- و منها الإنسان للّه تعالى: ذواتها، ما ظهر منها و ما بطن، إذ لا يعزب عنه شي‏ء.

و هنا، نسبة الظن إلى الوجوه الباسرة، و النظر إلى الرب للوجوه الناضرة، هذه النسبة و تلك تصرفها عن وجوه الأبصار إلى وجوه البصائر، فالوجه الظاهر لا يظن، و إنما يبصر، و البصر الظاهر لا ينظر إلى الرب ذاته إذ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ (6: 103) و إنما البصيرة الباطنة هي التي تراه رؤية المعرفة، دون كيفية و لا إحاطة، و كما

عن الرسول الأقدس (ص) في تفسير الآية: «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حدود و لا صفة معلومة» «1»

و نظر البصر إلى أي مبصر، له كيفيات و حدود و صفات معلومة، إضافة إلى أن النظر لا يستلزم الإبصار: تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ (7: 198) و أحرى بعدم الإبصار إذا كان المنظور إليه غير مبصر!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 290- أخرجه ابن مردويه عن انس بن مالك قال:

قال رسول الله (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 286

ثم النص- بعد ذلك كله- «إلى ربها» لا «الى اللّه» و الربوبية هي الرحمة و الثواب و النعمة، و أهمها المعرفة الناتجة عن غاية الربوبية، و كما

عن علي (ع): «يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك و تعالى» «1»

و من أعظم الثواب كمال المعرفة المعبر عنها بالنظر و الرؤية، تنظر إلى ربها فتتنضّر بنوره، و كما

عن الصادق (ع) «يعني إلى نور ربها» «2».

ثم تقديم الظرف «إلى ربها» الموحي بالحصر، تصريحة أحرى أنه ليس نظر البصر، إذ لا يختص- إذا- بالرب، فهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر! هذا! فرؤيته تعالى بالبصر، و حتى إدراكه و الحيطة به بالبصيرة، إنها مستحيلة في كافة العوالم لكافة العالمين، فقد

«احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار و عمن في السماء احتجابه عمن في الأرض» «3»

و قد

«خلق اللّه الخلق حجاب بينه و بينهم ... فالحجاب بينه و بين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم، و لإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته، و لافتراق الصانع و المصنوع و الرب و المربوب‏ «4»

فلا يمكن رؤيته بالبصر إلا إذا صار مبصرا كخلقه، و لا إدراكه بالبصيرة إلا إذا صار خلقه مثله في الألوهية، استحالة مزدوجة في خرافة الرؤية و الإدراك الإحاطة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 464 عن كتاب التوحيد، و قد بحثنا عن الرؤية في ص 174- 177 ج 1 من الجزء الثلاثين في ضوء الآية: وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ‏، و فصلنا البحث عن استحالة الرؤية في كتابنا «حوار بين الإلهيين و الماديين».

(2) البرهان 4: 408 عن كتاب تحفة الاخوان عن هاشم الصيداوي عنه (ع).

(3) بحار الأنوار ج 3 ص 223- 224 عن الامام الحسين (ع) في خطبة توحيدية.

(4) التوحيد للصدوق عن الامام الرضا (ع) في خطبة توحيدية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 287

إذا فالمعني من نظر الوجوه هو نظر المعرفة، و انتظار الثواب و الرحمة فالنظر يأتي بمعنى الانتظار أيضا: فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (7: 35) ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً (36: 49) «1».

و من نضارتها طراوة المعرفة و اللقاء يوم الجزاء، فلتكن الوجوه هي الباطنة، الظاهرة نضارتها في الوجوه الظاهرة: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ‏ (83: 24) النعيم الشامل كيانه ككل سرا و علانية: وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (76: 11) «هم» لا «وجوههم» فالوجوه هنا و هناك تعم وجه العقل و الصدر و القلب و السر و الخفي و الأخفى، اصالة ثم الوجه الظاهر إذ تلوح عليه نضارتها، فالوجوه الستة الباطنة قد تشترك كلها في هذا النظر المجرد «بلا كيف و لا حدود و لا صفة» فتضرب معرفة اللّه و محبته إلى أعماق الذوات المؤمنة، ثم تتحقق في نظر البصر ايضا، لحدّ يتحقق صاحبه بما قاله الامام الصادق (ع):

«ما رأيت شيئا إلا و قد رأيت اللّه قبله و بعده و معه و فيه»

قبله بأزليته، و بعده بأبديته، و معه بقيوميته و علمه، و فيه بآيات حكمته و قدرته، فتصبح ذاته كلها عينا لا تنظر إلا الى الرب، كلّ حسب ما قدمته نفسه و سعى،

«الطرق إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق».

فكل حجاب من الخلق و الخالق ممكن الزوال، إلا حجاب الإمكان عنه، و حجاب الألوهية عنه تعالى، فبقدر ما أزيلت حجب العصيان هنا، تزال حجب المعرفة و الرحمة هناك، ثم حجب النور كذلك تزال لمن أنكر ذاته، و أصبح كله نظرا و معرفة لربه كالرسول الأقدس محمد (ص) «قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏».

فيا للنضارة و النظر إلى الرب هكذا، من نعمة يعجز الإدراك عن تصورها، إذ تتضاءل إلى جوارها الجنة بما فيها، و ما لها لا تتنضّر؟ و هي إلى ربها تنظر!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وجوه ناظرات يوم بدر- الى الرحمن تنتظر الخلاص، فالنظر يعم الأبصار بالبصر، و المعرفة بالبصيرة، و الانتظار للرحمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 288

نظر البصيرة بنور اليقين، و نضارة المعرفة و الرحمة بلقاء الرب الكريم.

و إن ارتقاء الكينونة الانسانية و انطلاقها من قيود الهوى، و من هذه الكينونة الأرضية، هو فقط محط الرجاء في التقاءها بهذه النضارة و النظرة.

ثم الوجوه الباسرة هي البنية التعيسة، المتقبضة الكالحة القاطبة، المحرومة عن كل نضارة و نظرة كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (83: 15) بما ارتكست في حيوانية الحياة، و انطمست و انغمرت في الشهوات، فانحجبت عن ربها بما حجبت نفسها.

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ: الكارثة القاصمة الظهر، المحطّمة الفقار، تظن ظن اليقين بما قدمت لأنفسها ولات حين مناص!.

كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ. وَ قِيلَ مَنْ راقٍ. وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ. وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلى‏ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ‏ كَلَّا ليست العاجلة المحّببة هي الباقية، إنما هي الآجلة المرفوضة، فيا لها من حياة مرتكسة منكوسة، فليتذكر متذكر:

إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ‏: حين تبلغ الروح مبلغها الأخير من الجسم: «التراقي» العظام الواصلة بين ثغرة النحر و العاتق، و هي الحلقوم: تترقى إليه النفس عند الموت، و إليه يتراقى البخار من الجوف، و هناك يقع تردد النفس‏ فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (56: 83): سكرات مذهلة و كروب تزيغ الأبصار، كأنما القلوب تبلغ الحناجر، و يا لها من عبرات لمن لم يغرب عقله! وَ قِيلَ مَنْ راقٍ‏؟ قيل من أعماق المحتضر:

«هل من طبيب» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 465 عن الكافي باسناده الى جابر عن أبي جعفر الباقر (ع) في «من راق» قال: فان ذلك ابن آدم إذا حل به الموت قال:

هل من طبيب؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 289

يرقى بي مما أنا فيه من خفض الاحتضار، أو لعلّ رقية تفيدني فتلوّي من سكرة و تشفين، أو علّ توبة ترقى بي من دركات تنتظر، أو- و في آخر المطاف- من يرقى بي الى البرزخ؟ أ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

و قيل من أخصّاءه الحضور: من يرقى به الى طبيب يشفيه؟ أو يخلصه مما هو فيه، أو من هذا الطبيب الذي يرقى به، أو من يرقى به من وطأة الآخرة الى رحمتها؟

و قيل من الملائكة: من يرقى بروحه، ملائكة الرحمة أو العذاب، حتى يصدر الأمر من رب الأرباب‏ «1».

قيلات هي ويلات للمحتضر إلا من رحم اللّه و يومئذ يفرح المؤمنون، بلا قيل و لا ويل.

وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ‏: رغم أشراط الموت و علاماته، و لكنه لا يرضى أخيرا إلا الظن بالموت، و لا يحن الى يقين الموت، إذ لا يحب الفراق، حبا للعاجلة و فرارا عن الآجلة.

وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ‏ إذ بطلت كل حيلة و وسيلة تصدّ عن الفراق، و علّ الساقين هما الشدّتان المجتمعتان على المرء، من فراق الدنيا العاجلة المحبّبة، و لقاء أسباب الآجلة المنسية «2»، و أين ساق من ساق؟: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (68: 42).

و الكشف عن الساق- و هو التشمير عنه- كناية عن صعوبة الأمر، فمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راق اما من الرقية و هي العوذة، او من الرقاء و هي العلو، و قد جمعنا هنا بين المعنيين.

(2)

نور الثقلين 5: 465 في آية الساقين عن الباقر (ع): «التفت الدنيا بالآخرة».

(تفسير الفرقان- ج 29- م 19)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 290

التفاف الساق بالساق، التفاف الدنيا بالآخرة، إذ كشف عن ساق الآخرة لتأخذ بساق الدنيا فتنهيها و تقضي عليها «1».

و يلتف بهذا الالتفاف بين ساقي الآخرة و الأولى، التفاف ساقي المحتضر في اضطراب النزع، إذ يضرب بإحدى رجليه على الأخرى، كذلك و التصاقهما ببعض بعد الموت، و التفافهما في شدّ الكفن، ثم التفاف سوق اهليه و مشيّعيه، يلتف بعضهم من شديد الحفز و عنيف السير و السّوق‏ «2».

إِلى‏ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ‏: الرجوع: إِنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الرُّجْعى‏ فلا يساق الميت بعد التفاف الساق بالساق، إلا الى ربك، الى نشأة البرزخ ثم القيامة، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ. لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ‏ فلا سوق بالموت إلا إلى الرب‏ لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏.

فمهما كان انسياق الإنسان يوم الدنيا بخيرته، فهو مساق مسيّر في سوق الآخرة الى سوقها، فلا سائق هناك إلا اللّه، فلا مساق إلا إليه، سوقا الى ربوبيته، لا الى ذاته، فانما الى حسابه و جزاءه، بثوابه أو عقابه.

و من ثم يسدل الستار على سكرات الموت، و ينتقل الى عرض مشهد اللاهين المكذبين.

فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى. وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى. ثُمَّ ذَهَبَ إِلى‏ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى‏.

عرض موجز عن أردء حالات الكفر لألعن حماقي الطغيان، فرعون هذه الأمة أبي جهل على حدّ

المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «إن لكل أمة فرعونا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة «ن» حول الآية يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ‏.

(2) هذا الأخير بناء على كون الساق جمعا للساقة: فهم الذين يكونون في أعقاب الناس يحفزونهم على السير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 291

و إن فرعون هذه الأمة ابو جهل» «1»

كان يأتي الرسول أحيانا يسمع منه القرآن، ثم يذهب الى أهله متفكها متمطيا كالمطي: «فلا صدق» بما يجب تصديقه، رغم توفر آيات الصدق، البينات «و لا صلى» للّه: مهانة و نكرانا للّه، و للرسالة الإلهية، دون أن يتأدب أو يخشى «و لكن كذب» كأنه فقط رزقه من الحياة: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ‏ كذب بقلبه و قوله و فعله «و تولى» بركنه، مدبرا عن الحق و رسوله‏ «ثُمَّ ذَهَبَ إِلى‏ أَهْلِهِ» كأن جاء لهم بما يتفكهون «يتمطى»: يمدّ مطاه: ظهره، كالمطي، فالمطيّة ما يركب مطاه من حمار و سواه، فأبو جهل يمدّ مطاه ليركبه الشيطان، و هو يحمل الى أهله تفكّه الهزء و الطغيان، مختالا فخورا بما فعل، كأنه يرفع من شأنه، و ما هو إلا حمارا، يقرب من خطاه و يمدّ مطاه.

و كم من آباء جهالات في تاريخ الرسالات الإلهية، يعيشون مطايا، و يحملون خطايا، يتبهجون تفننا في الصدّ عن سبيل اللّه‏ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً و هم يفخرون و يتمطون حياتهم بما بغوا و مكروا و لا يحيق المكر السي‏ء إلا بأهله» فأولى لهم ثم أولى:

أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏، ثُمَّ أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏:

كلمة تسفيه و تقبيح، و توعيد بأشد وعيد، تشمل الأولى و الأخرى، توجّه الى الذين في قلوبهم مرض، مادّين مطاهم فاخرين: فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى‏ لَهُمْ (47: 20).

و قد أمسك رسول اللّه (ص) بخناق أبي جهل مرة و هزّه قائلا: «أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏. ثُمَّ أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏» فقال: أ توعّدني يا محمد! و اللّه لا تستطيع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 7: 1296 اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن منذر عن قتادة عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 292

أنت و لا ربك شيئا، و اني لأعز من مشي بين جبليها .. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى‏.

فالآية الاولى تلمح لنكالين في الأولى تلو بعض، ذاق الأول حياته الكافرة و هو كفره و تكذيبه بما طبع اللّه على قلبه‏ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏ و الثاني يوم بدر إذ قتله المؤمنون، و الآية الثانية توحي لنكاليه بعد قتله: يوم البرزخ و يوم القيامة، نكال مضاعف في الأولى، و آخر كذلك في الأخرى، أولويّات أربع بويلات له في الدارين، و بعدا له من خيرات النشأتين، و على حد المروي عن الامام الجواد عليه السلام‏ «1».

«أولى لك»: حالك الحاضرة الخاسرة، إذ تمتطى منحيّا مطاك ليركبك الشيطان، فما أنت إلا حمارا «فأولى»: لك أن تقتل في سبيل الطاغوت، كما قتل يور بدر «ثم أولى لك»: حالك المستقبلة بعد الموت يوم البرزخ إذ تحمل خطاياك مع خطايا من سواك من المضلّلين بك و لا ينقص من أوزارهم شي‏ء «فأولى»: بخلود النار يوم القيامة الكبرى: فأنت حمار في الدارين فيهما تتمطى، و إن كنت هنا بثوب الإنسان و صورته تتغطى! ويلات أربع كلها لك أولى، فانك فرعون هذه الأمة، فليأخذك اللّه نكال الآخرة و الأولى.

أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً‏:

عود على بدء في التنديد بالإنسان في حسبانه: أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ‏ و هذا هو تركه سدى و هملا، و إنه بعيد عن عدل اللّه و حكمته: ألا يجازيه بما فعل و افتعل، خيرا أو شرا، أو يختص جزاءه بروحه دون جسمه، و هما شريكان في الأعمال كلها إلا الروحانيات المحضة، كالنيات و الاعتقادات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 466 في عيون الأخبار عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني قال‏ سألت محمد بن علي الرضا (ع) عن هذه الآيات، قال: يقول اللّه عز و جل: بعدا لك من خير الدنيا و بعدا لك من خير الآخرة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 293

فكأنما الإنسان يحسب الحياة أرحاما تدفع و قبورا تبلع، فوضى و سدى، و قد

«خلقنا للبقاء و كيف يفنى جنة لا تبيد و نار لا تخمد .. إنما نتحول من دار الى دار» «1»

، فما خلقنا دون هدف و حكمة، لهوا و لعبا و زينة و تفاخرا و تكاثرا في الأموال و الأولاد!: أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (23: 115)

لم يخلق خلقه عبثا و لم يتركهم سدى، بل خلقهم لإظهار قدرته و ليكلفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك رضوانه، و ما خلقهم ليجلب منهم منفعة و لا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم لينفعهم و يوصلهم الى نعيم‏ «2».

و ما الحياة العبث السدى إلا لهوا تعالى اللّه عنه: لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (21: 17) و لماذا يعبث بنا ربنا و يلهو؟ هل لنقصان في علم أو حكمة؟ أم بغية ظلم لعباده؟ أم لعجز عن إحياءهم كما بدء؟ و هو الذي خلق أول مرة:

أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏. ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‏: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏؟

فالأكثرية الساحقة من ناكري إحياء الموتى يسندون الى استحالته، و واقع الخلق من نطفة الى علقة الى مضغة الى عظام و الى إنشاء الخلق الآخر:

«الروح» برهان لا مرد له على إمكانية الإحياء مرة أخرى و هو أهون و أحرى: وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (30: 27) ثم علمه بالمحسن و المسي‏ء و الظالم و المظلوم، و حكمته العالية و عدله تعالى:

تفرض الإحياء الممكّن للحساب و الجزاء الوفاق!.

أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً: خليّة واحدة حية صغيرة لم تكن تبين بالمكبرات،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في العلل قال‏ رجل للصادق (ع) إنا خلقنا للعجب؟ قال: و ما ذلك اللّه أنت؟ قال:

خلقنا للفناء؟ فقال يا ابن أخ! خلقنا للبقاء ...

(2) علل الشرائع عن عمارة: سألت الصادق (ع) فقلت: لم خلق اللّه الخلق؟ فقال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 294

ممّا ذا؟ «من منى يمنى» عن شهوة دون اختيار ثُمَّ كانَ عَلَقَةً تعلقت بجدار الرحم لتأخذ سيرها حثيثا الى خلقه إنسانا مؤلفا من مليارات الخلايا الحية، و قد بدأت من خلية واحدة مع بويضة «1»، و هذه الرحلة القصيرة المدة، البعيدة المدى، هي أبعد بكثير من مولده الى مماته، و القائد في كلتا الحركتين واحد هو اللّه: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏؟

سبحانك اللهم و بلى‏ «2»

و

أنا على ذلك من الشاهدين‏ «3»

بلى، إنه على ذلك لقدير، و انه بالتصديق و الإيمان به لجدير، فسبحانه سبحانه تعالى من حسبان هذا الإنسان الصغير الصغير، فما ذا يملك أمام هذه الحقائق التي تفرض نفسها دون تكلف؟ إلا أن يؤمن بالخبير القدير!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة العلق 30، ص 362- 365.

(2)

الدر المنثور 6: 296 عن أبي هريرة ان رسول اللّه (ص) كان إذا قرأ أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏ قال: ...

و

في نور الثقلين 5: 467 في أخلاق الرضا (ع): «و كان إذا قرأ هذه الآية «قال عند الفراغ» سبحانك اللهم و بلى.

(3)

الدر المنثور 6: 296- اخرج البخاري في تاريخه عن أبي امامة قال: صليت مع رسول اللّه (ص) بعد حجته فكان يكثر من قراءة لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ فإذا قال‏ أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏ «سمعته يقول: بلى و أنا على ذلك من الشاهدين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 295

سورة الدهر: الإنسان- مدنية- و آياتها احدى و ثلاثون‏

[سورة الإنسان (76): الآيات 1 الى 22]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

هَلْ أَتى‏ عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (3) إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالاً وَ سَعِيراً (4)

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (5) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (8) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً (9)

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (11) وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (12) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً (13) وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14)

وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (16) وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (17) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (18) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19)

وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (20) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (21) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 296

\*\*\* هَلْ أَتى‏ عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً:

هل الإنسان هنا الإنسان الأول؟ و لم يخلق من نطفة أمشاج و غير أمشاج! أم جنس الإنسان بما فيه الأول؟ فكذلك الأمر! أم ولده المتناسلون عنه؟

فكيف يخرج الأول عن انه (ع): لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً! الجواب: أنه جنس الإنسان هنا، و غير الأبوين الاوّلين هناك في استعراض من خلقه: مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ‏ و قد عرض خلقهما في محالّ اخرى: مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ‏ كما استعرضت بقية المشاهد لخلقهم كذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 297

و هل الاستفهام تقريب و تقرير: أن أتى عليه حين: قطعة محدودة- من الدهر: مجموعة الزمان غير المحدودة، لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً:

كان شيئا و لم يكن مذكورا «1»

حيث النفي هنا يوجّه الى الوصف، دون الموصوف كما في: أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً إلا في علم اللّه، أما في الخلق و التقدير فلا، و إن في مبادءه ترابا أم نطفة أم ماذا؟

أم الاستفهام انكاري يعني نفي مدخوله: أنه كان شيئا مذكورا طوال الدهر: قبل خلقه في علم اللّه، و بعده في رحمة اللّه و عنايته، و على حدّ

المروي عن الامام الصادق (ع): «هل أتى عليك يا إنسان وقت لم يكن اللّه ذاكرا لك فيه؟» «2»

، كل محتمل، و الجمع أجمل، حيث الاستفهام هنا يتحملهما فقد كان شيئا معلوما عند اللّه، مذكورا عنده في عداد ما أراد خلقه، ثم اللّه ذاكر له على طول الخط إذ خلق أصله: التراب، ثم منيّه من سلالة التراب، ثم نطفته من سلالة المني، ثم درج به في خلقه و تصويره و تسويته الى درجة الإنسان، ثم هو ذاكره طول الحياة الى الممات و بعده «فهل أتى عليه وقت لم يكن اللّه ذاكرا له؟» اللهم لا.

و قد كان شيئا في علم اللّه كسائر الأشياء و لم يكن مذكورا في الخلق:

«كان مذكورا في العلم و لم يكن مذكورا في الخلق» «3»

: «كان شيئا مقدرا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر (ع) عن الآية فقال: .. و فيه عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق (ع) مثله.

(2) ج 10 ص 259 تفسير روح البيان لإسماعيل حقي.

(3) تفسير العياشي عن سعيد الحذاء عن الباقر (ع): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 298

لا مكوّنا «1»

و بعد ما خلق ترابا كان شيئا في أصله التراب بشيئية التراب، و لم يكن مذكورا في عداد الإنسان، و لا بمبدئه الجرثومي: نطفة و سواها، ثم إذ خلقت نطفته كان شيئا هو أصله الجرثومي و لم يكن مذكورا كإنسان، و لا مذكورا باسم النطفة و المني أيضا- تأدبا، إذ كان قذرا لحدّ لم يك يذكر إلا لمن اضطر، بحثا عن أصله فيزيولوجيا، أو خناء لمن يستحقة، أو تذكيرا بأصله: لقد كنت نطفة قذرة .. فهذه اولى النعم التي أبلانا اللّه عز و جل بها أن خلقنا و لم نكن شيئا مذكورا «و على حدّ تعبير علي (ع) و تقرير الرسول (ص) «2».

فهل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا؟ اللهم بلى، إذ كان منسيّا في الخلق كإنسان، غير مذكور قبل خلقه إنسانا، ذكر الكيان أم ذكر اللسان، ثم اللهم لا! إذ كنت ذاكره كل الدهر: قبل خلقه و بعده! إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً فما هي النطفة الأمشاج؟ النطفة هي واحدة النطف: الماء الصافي، فالمني نطف يخلق الإنسان من نطفة منها: أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏ و صفاءها هي اصطفاءها من البدن كله، فانها:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي باسناده عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني باسناده عن الامام الصادق (ع): سئل عن قوله تعالى: أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً فقال: «لا مقدرا و لا مكونا» و سئل عن قوله تعالى: هل أتى على الإنسان ... قال: كان مقدرا غير مذكور،

و

عن حمران عنه (ع) شيئا مقدرا و لم يكن مكونا

أقول: التقدير هو تقدير العلم و الخلق قبل ان يخلق.

(2)

اولى الشيخ الطوسي باسناده الى الامام الباقر (ع) ان النبي (ص) قال لعلي (ع) قل:

ما أول نعمة أبلاك اللّه عز و جل و أنعم عليك بها؟ قال: أن خلقني جل ثناؤه و لم أك شيئا مذكورا، قال: صدقت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 299

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (32: 8) فالمني بحر لجي من ملايين النطف:

الدودات العلقية، و لمائه صفائه لأنه المصطفى من كل البدن، ثم النطفة التي يخلق منها الإنسان هي سلالة من هذه السلالات، فالإنسان نتيجة نهائية لتسلسل سلالات عدة: يتسلل المني عن البدن كله بما تغذّى، كما الغذاء سلالة من طين، فالمني سلالة من طين: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (23: 12): سلالة هي من طين، و هي المني، ثم نطفة: سلالة من هذا المني!.

و من ثم إذا كانت هذه النطفة واحدة فكيف توصف بالأمشاج؟ فكيف يجمع بين الوحدة و الجماعة؟ نقول هنا ما قلناه في‏ وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً (23: 50) فهما من حيث الوجود اثنان، و من حيث الآية المعجزة آية واحدة لتلازمهما فيها، كذلك النطفة واحدة في كيانها و جاه سائر النطف، و لكنها حصيلة الأمشاج: الأخلاط، جمع المشيج أو المشج أو المشج أو المشج: الخليط أو الخلط، فهي‏

«محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب» «1»

حيث‏

«ماء الرجل و المرأة اختلطا جميعا» «2»

و هذا مشج واحد فما هي الأمشاج؟:

مشج اوّل هو أصول الغذاء الإنساني المركبة من عناصر عشرة هي:

الأوكسجين، و الأودروجين، و الكربون، و الأزوت، و الكبريت، و الفوسفور، و البوتاسيوم، و المغنسيوم، و الكلسيوم، و الحديد، و تلك عشرة كاملة تتبنى غذاء الإنسان.

فهذه العناصر داخلة في كل نبات و حيوان، و أخيرا في الإنسان لأنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في نهج البلاغة قوله (ع) عالم الغيب من ضمائر المضمرين الى قوله: ...

(2) القمي: عن الامام الباقر (ع) في تفسير الأمشاج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 300

غذاءه، فأعصابه و خليّاته تتكوّن و تتقوى منها، و هي كلها دخيلة في خلق المني، و يا لها من اختلافات لونية و عنصرية في المفعول!.

و مشج ثان: خلق المني من مجموعة هذه الأعصاب، ذكرا و أنثى، فهو قطرة من بحر الكيان الانساني ككل، طالما تكون خزانته الاحتياطية البيضتين، و الأصيلة صلب الرجل و ترائب المرأة، و دليلا حسيا على هذه الجمعية ارتخاء الأعصاب كلها، بما يشدها و يمدها المركز الرئيسي: الصلب و الترائب.

و مشج ثالث: خلط ماءي الذكر و الأنثى: خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (86: 7) اعتبرا ماء واحدا لمكان المزج و المشج، و لكي يخلق منهما إنسان واحد فيمشجان في الرحم: بيت الزوجية الثاني للزواج الثاني.

و مشج رابع: تزاوج النطفتين:- خلية الذكر و بويضة الأنثى- بعد خلط المائين، فالبحران المنويان هنا يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، ثم تلتقي من كلّ دودة مع الأخرى في الآخر، زواج بعد زواج عجيب‏ «1».

و مشج خامس: هو تتمة عملية الزواج الأخير في بناء الإنسان الجديد: أن يمشج الشريكان، كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط (الكروموزومات‏semsomorhC ( و ما فيها من الخلق المخلّقة (الجينات‏seneQ ( التي خطتّها و خلقتها و سوّتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال من الجدود و الآباء الى الأبناء، فالوراثات المتداخلة الكامنة في النطفة، الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا، و لصفات الجنين العائلية أخرى، هذه الوراثات هي الدور الخامس من النطفة الأمشاج.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 362- 365، تجد فيه كيفية زواج النطفتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 301

و مشج سادس: هو خلط الطبائع الكامنة في النطفة من حرارة و برودة و يبوسة و رطوبة، و تبتني البنية الحيوانية المعدّلة الأخلاط منها، التي هي ظروف و مجالات فاسحة لتصرفات الروح: الغضبية و الشهوية و العقلية و أمثالها، و الى أمشاج أخرى لم تصل إليها أيدي العلم حتى الآن.

و كما الإنسان حين نزول القرآن ما كان يدري شيئا من هذه الأمشاج، مما حمل جماعة من المفسرين يحاولون في جعل الأمشاج مفردا، و جماعة أخرى ساكتون عن تفسير الجمع بعد تصديقه، و ثالثة يكتفون بمشج ماءي الذكر و الأنثى، رغم ان للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن! ... نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً:

الابتلاء هو نقل الشي‏ء من حال الى حال، و من طور الى طور، كابتلاء الذهب من كدر الى صفاء في البوتقة، و الإنسان كائن متطور متنقل منذ النطفة حتى الممات، روحيا و جسدانيا، و كافة تطوراته هي من فعل اللّه و ابتلاءه، سواء أ كانت من سعيه، كالمختار فيها بعقله و حوله، أم سواها مما لا حيلة له فيها، من التطورات الجنينية و سواها، من نطفة الى علقة و الى آخر الأطوار المتعاقبة حتى إنشاءه خلقا، ثم من ولادته الى وفاته من حياة التكليف و الإختيار و سواهما، و إنما ابتلاءه في حياة العقل و التكليف يتطلب السمع و البصر قلبا و قالبا، و لكي يصدر الإنسان بهما و بسائر وسائل الإدراك، من آفاق التكوين و التشريع الى عقله و قلبه، استزادة للوعي و اهتداء الى ما يجهله بما هداه اللّه السبيل، و ليكون أحسن المخلوقين، فإما شاكرا و إما كفورا.

فهل إن «نبتليه» هنا حال من الإنسان منذ النطفة حتى الممات؟ و ابتلاءه من غايات خلقه- المهمة: فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً لتكملة هذا الابتلاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 302

بإكمال وسائله الاختيارية؟ إذا فَجَعَلْناهُ‏ تفريع على نبتليه: فلكي نكمل ابتلاءه جعلنا له وسائله.

أم إنها حال من الإنسان في التطورات الجنينية فَجَعَلْناهُ‏ بعد ابتلاءه هذا سَمِيعاً بَصِيراً؟ و أهم الابتلاء إنما هو في الحياة و لا سيما حياة التكليف! طالما يعم قبلها منذ النطفة حتى الولادة حتى عقل التكليف! أم حال منه في حياة التكليف فحسب فابتلاءه إذا بعد جعل السمع و البصر؟ و هذا يقتضي قلب الجملة جعلناه سميعا بصيرا لنبتليه و هو خلاف الفصيح! أم غاية لخلقته: خلقنا الإنسان .. لنبتليه فجعلناه .. و هذا تكلّف دون دليل! و الاول أشمل و أوفق لفظيا و معنويا دون تكلف: حال أنا «نبتليه» لهذه الحالة التي هي ايضا غاية: فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً لتحسن حالة الابتلاء! و السمع و البصر هما العنصران الأساسيان للابتلاء، و لا يعنيان الجارحتين فحسب، لأن مدار الابتلاء هو سمع العقل و بصر القلب، ففاقدهما لا يبتلى مهما كان قويا في سمع الظاهر و بصره، فأصل الابتلاء هو السمع و البصر عقليا و قلبيا، و كماله السمع و البصر قالبيا وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ «1» و لا يبتلى و يكلف من لا يجدهما عقليا، دون العكس.

و السميع و البصير هما مبالغتان في السمع و البصر، ما ذكرا في القرآن إلا وصفين للّه، إلا في موضعين ثانيهما: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى‏ وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ (11: 24) مما يدل على أهمية التوصيف بهما لغير اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الى تفسير هذه الآية في سورة الملك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 303

تعالى، فالإنسان السميع البصير لا يكاد يخفى عليه ما ينفعه في ابتلاءه و اهتداءه السبيل، و قليل هؤلاء الذين يتذرعون هذه الوسائل لاهتداء السبيل:

إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ‏: السبيل هي الطريق الذي فيه سهولة، سبيل الخير لتطلب و سبيل الشر لتجتنب: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (90: 10) و لقد يسر اللّه هاتين السبيلين للإنسان: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (80: 20) فهداية السبيل و تيسيرها، يوحيان بيسر على يسر مندغمين في ذات الإنسان، مركّزين في نجدي الخير و الشر «1» لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ.

فالهداية- هنا- هي دلالة الطريق: فطريا و عقليا و أمثالهما من سائر التكوين، و تشريعيا بكتابات الوحي و أنبياءها و دعاتها و رعاتها.

و السبيل هنا تعم النجدين: الخير و الشر، إذ ألهمناهما: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (91: 9). فإن لاستبانة سبيل المجرمين دخلا عظيما و دافعا لسلوك سبيل المؤمنين: وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ‏ (6: 55) فليست هداية سبيل اللّه كافية في اجتناب سبيل الطاغوت، فلنهتد السبيلين، لكي نكون على بصيرة منهما في الضلالة و الهدى، و تتم حجة اللّه علينا فيهما: وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (6: 153).

إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً: «إما» هنا ليست للترديد في علم اللّه تعالى، و إنما ايحاء لتردد الإنسان بين الأمرين تخييرا دون تسيير، فيما إذا كان شاكرا أو كفورا حالين من الإنسان أو خبرين ليكون المقدر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 122- 123 ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 304

أو انها لتقسيم السبيل الى شاكر أو كفور، إذا كانا حالين للسبيل أو بدلين عنهما: هديناه سبيل الشكر و سبيل الكفر، و ما أجمل التعبير عن السبيل الواضح بالشاكر و الكفور، كأنهما مندغمان في السبيل لكثرة وضوحهما فيها كالشمس في رايعة النهار: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ‏.

و الآية تتحمل المعنيين معا لفظيا و معنويا، فليكونا مقصودين، و الشكر علّه من الكشر: الكشف، و هو تصور النعمة و إظهارها، بخلاف الكفر، أو انه‏

«الأخذ بها، و كفرها و تركها» «1»

و أكمله الأخذ باللسان كله، و الجنان كله، و الأركان كلها، أن يصبح المنعم عليه شكرا للمنعم في كيانه ككل، و كامله الأخذ مبدئيا في الكلّ مع تسرّب اللمم أحيانا، و ناقصه الأخذ بالبعض، و كله أخذ و شكر و تركه كفر، كلّ على حدّه، و هذه المعاني الثلاثة متقاربة أو مترادفة تعني: إظهار النعمة و صرفها فيما أوتيت لأجلها، فاللسان معبر عما في الجنان، و الأركان تعبر بأعمالها عن مدى الإيمان، و على حدّ

المروي عن الرسول (ص): «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فإذا عبّر عنه لسانه إما شاكر و إما كفور» «2».

و مقابلة «شاكرا» ب «كفورا» و هي صيغة موغلة في الدلالة على الكفران، دون «كافر» هذه المقابلة توحي بأن غير الشاكر كفور، فان ترك الشكر بهذه الموهبات الربانية كفران لها و كفر بالرب، و كفر بالفطرة و الضمير و العقل: الدافعة الى الشكر، و كفر بحملة الرسالات الربانية، إذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد للصدوق عن الامام الصادق (ع) و اصول الكافي عنه (ع) و القمي عن الامام الباقر (ع) في الآية قالا: «إما آخذ فهو شاكر و إما تارك فهو كافر» (نور الثقلين 5: 46).

(2) الدر المنثور 6: 298- اخرج احمد و ابن المنذر عن جابر بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 305

كَفُوراً: وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ (34: 17) مما يدل على أنه كل كافر، إذ يحصر الجزاء العقاب بالكفور، و كما الكفور أيضا دركات حسب دركات الكفران، و هنا ينقسم الى كافر و كفور.

و من ثم تعني أن الشاكر أعم من الشكور، و لذلك لم تقابل الكفور بالشكور، فمن الشاكر شكور و قليل ما هم، و منهم غير شكور و ما أكثرهم، كأنما الإنسان بطبعه كفور: فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (42: 48) و ليس بطبعه شكورا وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (34: 13).

إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً:

و الكافر هنا أعم من الكفور، كما كان الشاكر هناك أعم من الشكور، و الإعتاد هو إعداد الشي‏ء حتى يكون عتيدا حاضرا، فقد هيأ اللّه تعالى لأخرى الكافرين ما قدموه في دنياهم: سلاسل: قيودا لأقدامهم، و أغلالا:

لأيديهم تشدها الى رقابهم و تجعل الأعضاء وسطها، و سعيرا: نارا متسعرة يلقون فيها مسلسلين مغلولين، عذابا فوق العذاب! و لقد ظلوا يوم الدنيا مسلوكين في سلاسل الهوى، ينقادون ما قادهم الشيطان، و مغلولين في أغلال الشهوات في سعير حياتهم الجهنمية كل الحياة، فالإعتاد الإلهي لهذا العذاب حسب ما أعتدوا و اعتدوا و بغوا، جزاء وفاقا، و هذه الآية كأمثالها من آيات الإعتاد توحي بخلق الجحيم بأصولها، و إنما تترقب حطبها لكي تسعر أكثر فأكثر. هذا هو جزاء الكفور، فما هو جزاء الشكور؟:

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً. عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً:

الأبرار هنا تعم المقربين- و أحرى- طالما الآيات تنتهي بسيرة أقرب (تفسير الفرقان- ج 29- م 20)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 306

المقربين‏ «1» اهل بيت الرسالة المحمدية «علي و فاطمة و الحسن و الحسين (ع)»:

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ .. إِنَّما نُطْعِمُكُمْ .. فانها خاصة بهم كما تواترت أحاديث الفريقين‏ «2» رغم ان كثيرا من مفسري القرآن لم يشيروا الى نزول هذه الآيات بشأنهم عليهم السلام، و عله تجاهلا عن فضلهم، لحدّ عدّوا السورة مكية، و هي تنادي بمدنيتها كما يأتي.

فهم يشاركون سائر الأبرار في أبر النعم و أوفرها، و يختصون بما لا ينالونها، و هم أصدق المصاديق لآيات الأبرار و على حد المروي عن الامام الحسن المجتبى (ع) «3».

.. كانَ مِزاجُها كافُوراً: مزاج الكأس، لا المشروب، لذكورته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 222 من 30: 1، على ضوء الآية إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ‏.

(2) راجع تفسير البرهان و تفسير نور الثقلين و كفاية الخصام، تجد فيها تضافر الأحاديث ان الآيات نزلت بشأنهم عليهم السلام و فضة طالما ابتدأت بالابرار كل الأبرار، و لكي تشمل فضة خادمة علي و فاطمة، و ممن صرح بذلك الواحدي في كتاب البسيط و صاحب الكشاف رواية عن ابن عباس، و في الدر المنثور 6: 299- اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى‏ وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ .. قال: نزلت في علي بن أبي طالب و فاطمة بنت رسول اللّه (ص).

و من ذلك،

في الإحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل يقول فيه‏ للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: نشدتكم باللّه هل فيكم احد نزل فيه و في ولده‏ إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ .. الى آخر السورة- غيري؟ قالوا: لا.

(3)

مناقب ابن شهر آشوب باسناده عن الهذيل عن مقاتل عن محمد بن الحنفية عن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) قال: كل ما في كتاب اللّه عز و جل من قوله‏ إِنَّ الْأَبْرارَ فو اللّه ما أراد به الا علي بن أبي طالب و فاطمة و انا و الحسين لأنا نحن ابرار بآبائنا و أمهاتنا، و قلوبنا عملت بالطاعات و البر، و مبراة من الدنيا و حبها و اطعنا اللّه في جميع فرائضه و آمنا بوحدانيته و صدقنا برسوله‏ (نور الثقلين 5: 473- 474).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 307

و أنوثة الكأس، و الكافور اسم أكمام الثمرة التي تكفرها، مبالغة في الكفر:

الستر «1»، فمزاج الكافور لكئوس الشراب في الجنة، كفر لها عن كسرها و تغيّرها، و تغييرها لشرابها، و لم يأت في القرآن مزاج الكافور لشي‏ء إلا الكأس، و إلا هنا، آية وحيدة في مزاج الكافور لكأس الجنة.

و «كان» توحي بسبق هذا المزاج عن الشرب و الشراب و التفجير، مما يؤيد مزاج الكأس نفسه دون الشراب، و أنهم مزجوا كؤوس قلوبهم و أرواحهم بما يكفرها و يسترها عن موتها، و يعدّها لشرب مياه الحياة المعرفية و الروحانية.

فهذه سيرة الأبرار في دنياهم، و تلك صورة واقعية لهم في عقباهم، كأسا بكأس، و مزاجا بمزاج، و شربا بشرب، فمن اين يشربون؟:

عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً. و ما أحلاها مشربا من نبعة تنبع بما يفجّرونها تفجيرا أنيقا يسيرا ليس فيه من تكلف لا كثيرا و لا قليلا، و إنما تفجيرا كثيرا وفيرا، فما أنظفها شربا و شاربا و كأسا و عينا و تفجيرا: عباد اللّه الأبرار، كأس الكافور، عين مفجرة بذات أيديهم، و علّه بغمزة و اشارة، أو قولة و ارادة، أو أيا كان من تفجير كما يشاءون:

فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ‏!.

ثم إن «عينا» تلمح لواحدة، فكيف يكتفي عباد اللّه بعين واحدة؟

أم كيف يشتركون كلهم في تفجير هذه الواحدة؟ و لعل الجواب أنها واحدة في منبع أصيل، كثيرة في نبعات فرعية في مناكب أرض الجنة، كل يفجّر هذه الواحدة عنده بساقية تحت الأرضية عنها، و الأصل من تفجير اللّه!:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الكافور المعروف تستخرج من شجرة اريجية من فصيلة الغاريات مهدها الاصلي جنوب الصين ازهارها بيضاء ضاربة الى الصفرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 308

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (15: 45) عيون مفجرة من تلك الواحدة، و كما المقربون لهم عين خاصة بهم: عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (83: 28) و قد تجاوب هاتين العينين: فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (55: 50) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (55: 66) عينان تفجّر من كلّ عيون!.

و هذه‏

«هي عين في دار النبي (ص) تفجر الى دور الأنبياء و المؤمنين» «1»

كما تفجرت عيون النبوات الى دور النبيين من البيت المحمدي طوال الرسالات الإلهية، و الى دور المؤمنين، فلكلّ عين من هذه الأصيلة يوم الدين حسب ما فجروها يوم الدنيا.

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً:

قد يوحي تأخير «يوفون بالنذر» و هو عمل الدنيا، عن «يشربون» و هو جزاء الآخرة، يوحي هذا التعبير العبير بأن الوفاء بالنذر هو من هذه الأعمال الخيرة التي تشربهم في الجنة و تفجّر لهم عيونها، كما شربوا حب اللّه، و حب الفقراء في سبيل اللّه، و فجّروا عيون قلوبهم له و لهم، و كما يوحي بأن الحالة هذه نفس الحالة تلك، طبقا عن طبق، فحال الأبرار في شربهم موجودة يوم الدنيا، كما أن حالهم في وفائهم موجودة يوم الدين.

و الوفاء بالنذر- و منه الإيجاب على النفس لسبب- يلمح بأنهم وصلوا في استجابة أمر اللّه القمة، فإذ يوفي الإنسان ما يفرضه للّه على نفسه فهو أوفى للّه بفروضه الأصيلة، و هذه الآية تجاوبها آيات عدة في وجوب الوفاء بالنذر:

وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ (22: 29) إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (19: 16).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). امالي الصدوق عن الامام الباقر (ع) في آية التفجير قال: «هي عين في دار ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 309

و قد يعم النذر إيجاب الواجب، فرضا على فرض، كإيجاب المندوب فرضا على ندب، فالأبرار ينفذون ما اعتزموا من واجبات، و ما التزموا من طاعات، كما و يعم ما أوجب اللّه عليهم في الميثاق‏ «1» فهم يوفون بنذورهم و نذور اللّه.

و إنها لهي صورة لمّاعة عن قلوب صافية، و صدور منشرحة ضافية، معتزمة على الوفاء للّه، عاملة لوجه اللّه، دون أن تريد إلا مرضاة اللّه.

إنهم‏ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً فهنا شرّ مستطير، و هناك شرّ ثابت، فالمستطير هو شرّ الدنيا، و الثابت هو شرّ الآخرة الناتج عن الاولى، فان شر الآخرة من شر الدنيا المستطير إليها، فحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة: البعثة على الطيران، فشر الدنيا مبعوث من قبل اللّه للطيران الى مسجلات الكون: شهود الأعمال، و للطيران الى اعماق البرزخ و القيامة، ثم يقف للحساب و الجزاء: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (17: 13) و إنها تيارات الشر، كأنها طائرات و هي في أعناق ركابها.

و تجاوب «مستطيرا» «كان» فانها تلمح بمضيّها، بأن شر الآخرة- المستقبل- هو استمرار لشر الدنيا- الماضي- المستطار، طبقا عن طبق، فليقطع العاقل أجنحة الشر و أصولها في الاولى، لكي لا يستطير و الى الآخرة.

و لأنهم يخافون ذلك اليوم البئيس العصيب، يدأبون- هنا- في اجتثاث جذور الشرور لكي لا تستطير، و يعملون في استطارة الخيرات لكي تستطير،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده عن أبي الحسن الماضي في آية النذر قال: يوفون للّه بالنذر الذي أخذ عليهم في الميثاق من ولايتنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 310

و من أسباب ذلك السلب و هذا الإيجاب الإيفاء بالنذر و اطعام الطعام على حبّه لوجه اللّه، المسكين و اليتيم و الأسير كما فعله علي و فاطمة و الحسنان (ع) و احتج به علي (ع) على أبي بكر «1».

وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً، إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً.

مكرمة أخرى للأبرّين، هي إطعام الطعام على حبّه للمحاويج، إيثارا على أنفسهم، و بهم خصاصة! لوجه اللّه لا سواه، أركان ثلاثة في الإنفاق ترفع به الى قمته، و توحي بالخير المستطير، بعد ما اجتثوا جذور الشر المستطير.

1- فمن أصول البرّ و الإنفاق الحسن أن يكون محبوبا، طعاما و إطعاما:

«على حبّه» فلا كرامة في إطعام الطعام المرذول، أو إطعام مكروه و ان كان الطعام محبوبا و كان لوجه اللّه: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ‏ (3: 92) حبّا مزدوجا للإنفاق و ما تنفقون.

و النص «على حبّه»: الطعام و الإطعام لا «في حبّه» لكي يؤول الى حب اللّه: وَ آتَى الْمالَ عَلى‏ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ (2: 177)، اضافة الى أن الطعام هو المرجع الأقرب «الطام على حبّه» و «اللّه» أبعد في الموقع الكلامي «عينا يشرب بها عباد اللّه» و ان المضاف اليه ك «اللّه» هنا، لا يرجع اليه ضمير أيا كان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الخصال في احتجاج علي (ع) على أبي بكر قال: أنشدك باللّه انا صاحب الولاية يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً أم أنت؟ قال: بل أنت‏ (نور الثقلين 5: 477).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 311

و من الناحية المعنوية ايضا قد يطعم الطعام غير المحبوب في حب اللّه، و أما إذا يطعم المحبوب لوجه اللّه فهو الوجه الأحسن في الإطعام، و وجه اللّه مذكور بعده‏ إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ‏ فلما ذا يؤول «على حبه» الى حب اللّه؟

كلا: إنما على حب الطعام و الإطعام، حبّا عاليا الى حاجة مدقعة لهؤلاء المطعمين، فلم يقل «مع حبّه» إنما «على حبّه» ما يوحي باستعلاء حبّه عليهم، لا حبّا ذاتيا للطعام أو نوع الطعام، فإنهم كانوا أخلص المخلصين و أبر الأقربين، لا يحبون إلا للّه و في اللّه، فإنما حبا لإدمان الصيام الذي نذروه، و لتقوى أبدانهم على طاعة اللّه و تقواه، و معهم الطفلان الحسنان! و أنهم حصلوا الطعام على مشقة و صعوبة بالغة.

فهم- على حبهم هكذا طعام، و حبهم للإطعام يطعمون لقمة الفطور و بلغة الصيام للمحاويج السائلين، بأريحية نفس و رحمة قلب و خلوص نية، و كما فعله علي و فاطمة و الحسنان «و هما صغيران» «1» و معهما الخادمة فضة و قد تواترت به أحاديث الفريقين‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

امالي الصدوق عن الامام الباقر و الصادق (ع) في الآية انهما قالا: مرض الحسن و الحسين و هما صبيان صغيران فعادهما رسول اللّه (ص) و معه رجلان ... و فيه‏ انهما صاما مع أبويهما- الى نهاية القصة.

(2) رواه فيمن رواه ابو صالح و مجاهد و الضحاك و الحسن و عطا و قتادة و مقاتل و الليث و ابن عباس و ابن مسعود و ابن جبير و عمرو بن شعيب و الحسن بن مهران و النقاش و القشيري و الثعلبي و الواحدي في تفاسيرهم، و صاحب اسباب النزول و الخطيب المكي في الأربعين و ابو بكر الشيرازي في نزول القرآن في أمير المؤمنين (ع) و الأشنهي في اعتقاد اهل السنة و ابو بكر محمد بن احمد بن الفضل النحوي في العروس في الزهد، و روى أهل البيت عن الأصبغ بن نباتة و غيرهم عن الباقر (ع) (نور الثقلين 5: 471 عن المناقب لابن شهرآشوب).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 312

2- و من أصول الإطعام أن يحل محله الأحرى و الأحوج، و لا أحوج من:

مسكين أسكنه العدم عن الحراك في حاجيات الحياة، و يتيم انقطع عمن يصلح شأنه و هو قاصر عما يصلحه، و أسير: سجين أو ملك يمين: هؤلاء المحاويج الذين لا يجدون حيلة و لا سبيلا، الذين طرقوا باب الرحمة سائلين، فآثرهم أهل بيت الرحمة على أنفسهم و قد كانت بهم خصاصة! هنا تظهر مدنية هذه الآيات‏ «1» لمكان الأسير بين السائلين، و لم يكن المؤمنون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد روى نزول هذه الآيات في المدينة فيمن رواه: السيوطي في الإتقان عن البيهقي في دلائل النبوة عن عكرمة و الحسين بن أبي الحسن، و عن الضريس في فضائل القرآن باسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس، و عن البيهقي في الدلائل عن مجاهد، و جلال الدين السيوطي في الدر المنثور باسناده عن ابن عباس، و أبو حمزة الثمالي في تفسيره، و الطبرسي عن السيد ابو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القايني باسناده عن ابن عباس، و الأستاذ احمد الزاهد عنه.

و القصة حسب نقل البحراني في غاية المرام عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين (ع) و الحمويني في كتاب فرائد السمطين و عن الثعلبي و الواحدي في تفسيرهما، و

في الكشاف: «ان الحسن و الحسين مرضا فعادهما رسول اللّه (ص) في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي و فاطمة و فضة جارية لهما إن برءا مما بهما ان يصوموا ثلاثة أيام فشفيا و ما معهم شي‏ء.

فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعا و اختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال:

السلام عليكم أهل بيت محمد! مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم اللّه من موائد الجنة فآثروه و باتوا لم يذوقوا إلا الماء و أصبحوا صياما، فلما أمسوا و وضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، و وقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن و الحسين و أقبلوا الى رسول اللّه (ص) فلما أبصرهم و هم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها و غارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبرئيل و قال: خذها يا محمد هناك اللّه في أهل بيتك فأقرأه السورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 313

في مكة في حرب حتى يأسروا، و لا في قوة حتى يجسروا أن يأسروا المشركين، و إنما كانوا هم في أسرهم و حصرهم حتى اضطروا للهجرة الى المدينة، و من ثم قويت شوكة الإسلام و بدأت دولته، فكان أسير و حصير بأيديهم من جراء حروبهم مع المشركين، و كان الأسير منهم‏ «1» لا من المسلمين إذ لا يعهد أسر المسلم إسلاميا، اللهم إلا الكتابي و لم يكن منهم أسير وقتذاك.

فهنيئا لآل بيت الرسالة المحمدية إذ تنزل السورة بشأنهم، كما

قال جبرائيل:

خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة

مهما شملت من حذا حذوهم و نحا نحوهم.

و هنا يبرز الحنان الإسلامي بشأن بني الإنسان كافة، و أسارى الحرب، المشركين، فلا يرضى أن يظلوا جياعا، و لا يأسرهم إلا عن أخطارهم، و ليتعرفوا الى الإسلام في أسر المسلمين في دورهم و ديارهم، علّهم يؤمنون أو يؤمنون دون حبس و تعطيل عن الحياة إلا لضرورة، و سئوال الأسير هنا أقرب شاهد انه لم يكن سجينا مهما كان تحت الرقابة في بلد الإسلام،

«و قد كان يؤتى الرسول (ص) بالأسير فيدفعه الى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه فيكون عنده اليومين و الثلاثة فيؤثره على نفسه» «2».

و يعم الأسير كلّ من هو في أسر الإنسان معنويا أو ماديا، إلجاء عليه، أو لجأ إليه، ك

«عيال الرجل، ينبغي له إذا زيد في النعمة أن يزيد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور- اخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن مردويه عن الحسن قال: كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ ...

(2) تفسير روح المعاني للآلوسي ج 29 ص 155 عن الحسن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 314

أسرائه في السعة عليهم» «1»

و ملك اليمين‏ «2»، و الغريم كما

عن الرسول (ص) «غريمك أسيرك فأحسن الى أسيرك» «3»

هذا و كذلك- بالأحرى- كل من تعوله علميا و عقائديا.

كما و ان المسكين و اليتيم يعمان المسكنة و اليتيم معنويا كما يعمان المادي سواء.

3- و من أصول الإطعام أن يكون لوجه اللّه دون منّ و لا أذى‏ إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ .. دون سائر الوجوه المادية و المعنوية: جزاء أو شكورا، رحمة فائقة فائضة من قلوب رفيقة ندية على من لا يرجى خيرهم، و إنما ابتغاء مرضاة اللّه و رجاء رحمة اللّه، متجردة عن البواعث الارضية، الى باعث سماوي فقط هو وجه اللّه: مرضاته، لا ذاته و لا وجه الذات، إذ لا وجه له كما لنا.

و هذه التجردية هي حجر الأساس في بناية الإنفاق على المحاويج، و في سبل الخير: الفردية و الجماعية، تضامنة اجتماعية عريقة على أساس التقوى و روح الحنان لبني الإنسان عامة، و للصالحين خاصة، تهذيبا لأرواح الباذلين و رفعها الى مستوى رفيع، و حفاظا على كرامة و سيادة المبذول لهم، و تعميما للبذل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

أصول الكافي باسناده عن أبي الحسن (ع) قال: ينبغي للرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته و تلا هذه الآية وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ ... قال: الأسير ..

و

عن الرسول (ص) اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم أعوان‏ (تفسير الرازي ج 30 ص 245).

(2)

تفسير الرازي ج 30 ص 245 روي مرفوعا من طريق الخدري عن النبي (ص) في الآية قال: مسكينا، فقيرا، و يتيما: لا أب له، و أسيرا: المملوك المسجون.

(3) تفسير روح المعاني للآلوسي ج 29 ص 156.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 315

و لو كان البذل محصورا في حصار التجارات: جزاء أو شكورا، أصبح الكثير من ذوي الحاجة محرومين، و لو كان مقرونا بمنّ أو أذى انقلب عارا في أنفس المحتاجين، و لكنه اشترط في الإنفاق أن يكون مما نحب و بطريقة حبيبة بعيدة عن المنّ و عن بغية الجزاء و الشكور، و عن لمحات توحي بوهن و مهانة للمعطى، و استعظام للمعطي، و لكي يصبح الإنفاق كأنه من يد اللّه دون وسيط، و يا له إنفاقا عزيزا رفيقا يصاحب حيوية العاطفة و يحافظ على حساسية القلوب.

و هل إنهم خاطبوا مسكينا و يتيما و أسيرا هكذا: إنما نطعمكم .. قولة في آذانهم؟ و لا نلمس هنا نقل قول: قالُوا إِنَّما .. و لا ان في قول اللسان رجحان، و قد يكون نقصانا من روحانية الإطعام و إخلاصه‏

و اللّه ما قالوا هذا لهم و لكنهم أضمروه في أنفسهم فأخبر اللّه بإضمارهم، يقولون: لا نريد جزاء تكافوننا به، و لا شكورا تثنون علينا به، و لكنا إنما أطعمناكم لوجه اللّه و طلب ثوابه» «1»

: و من أثوب ثوابه معرفته و مرضاته و هذه عبادة الأحرار!. فليست إذا قولة في الآذان، و إنما قالوا في أنفسهم قولا بليغا، فإطعام الطعام هكذا- مع ما تصحبه من ملابسات- تنفي الرئاء و سائر وجوه النية السيئة، و إنه تعبير عبير في أنفس المحاويج عن‏ إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ... دون قولة باللسان، فالتلميح أبلغ من التصريح: لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً: لا مكافأة و لا إظهارا بثناء جميل، أو تلميحا للناس أن ذلك من فلان و فلان، فان شكر النعمة و شكورها هو إظهارها قلبا أو لسانا أو عملا، ف «إنما» هناك تنفي كل غاية من هذا الإطعام إلا وجه اللّه، لا واقع الجزاء و الشكور فهم رافضوه، و لا إرادته أو نيته فهم مترفعون عنها، و إنما ارادة وجه اللّه لا سواه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). امالي الصدوق عن الصادقين (ع) في حديث طويل عن القصة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 316

فهل لا يريدون من اللّه أيضا جزاء كما لا يريدون منهم؟ تلمح‏ إِنَّما ..

أنهم لا يطعمون جزاء و لا من اللّه، فانها عبادة الأجزاء! و لا تحرزا عن عذاب اللّه فإنها عبادة العبيد! و إنما يعبدونه لأنه اللّه، «لوجه اللّه» و إنها عبادة الأحرار، فهؤلاء الأبرار هم أبر الأحرار، و لا تعني «منكم» نفي ترقب الجزاء و الشكور منهم فقط، و إنما كأقرب الجزاء المترقب، و «إنما» المسبقة تحصره في وجه اللّه، اللهم إلا أن يكون ترقّبه من اللّه بأمر اللّه و لوجهه، لا أجرا منه، ثم و ليس خوفهم يوما عبوسا قمطريرا إلا خوف البعد عن زلفاه و معرفته و رضاه، و إنما هي جنة الرضوان يعملون لها، و نيران البعد يتحذرون عنها:

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً:

نَخافُ مِنْ رَبِّنا خوفا من ربوبيته لعدله، الظاهر «يوما عبوسا»:

قاطبا وجهه معبّسا

«يقبض ما بين الأبصار» «1»

يستدل بعبسه و قطوبه على إرصاده بالمكروه و عزمه على إيقاع الأمر المخوف «قمطريرا»: شديدا ضره، طويلا شره، و هذا اليوم نفسه متطلق مستبشر لمن يخافون ربهم فيحسبون حسابه حياتهم، فالطّلق و العبس ليوم الحساب، كلّ بحساب كيفية الحساب، دون أن يحمل اليوم بذاته أيا منهما إلا ميزان الحق و العدل.

ف «الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران» «2» و المؤمن يلقّى نضرة و سرورا:

فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً فَوَقاهُمُ اللَّهُ‏ بما وقوا أنفسهم يوم الدنيا و اتقوا شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 299- أخرجه ابن مردويه عن انس عن النبي (ص) في الآية.

(2) تفسير روح البيان 10: 267 كما روي أن الكافر ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 317

و عبسه و قطوبه «و لقّاهم»: استقبلهم «نضرة» في وجوههم «و سرورا» في قلوبهم‏ «1» تلقية لكيانهم ككلّ إعلانا و إسرارا كما كانوا يوم الدنيا ناضري الوجوه و طاهري القلوب.

وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً، مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً:

طرف من نعيم الجنة إيجابا و سلبا جزاء بما صبروا في اللّه على الحرمان من نعيم الدنيا، و على طاعة اللّه، و عن معصية اللّه.

فبعد أن سبق شرابهم من كأس الكافور، هنا يجمل في ذكر مكانهم و أكلهم ب «جنة» ثم تختص الحرير من لباسهم، فإن‏ «لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ» (22: 23) أنعم لباس و ألينه و أحسنه، فهذه نعم إيجابية.

ثم سلبية هي عدم رؤية شمس و لا زمهرير، فهم في حياة مريحة مطمئنة ناعمة معتدلة دون أن يلمسوا شمسا لاهبة ساخنة و لا بردا قارسا، عوان بين ذلك سجسج لا قرّ فيها و لا حرّ.

ترى إن الأبرار لا يرون فيها شمسا لأنها كورت عند قيامتها فلا شمس هناك؟ و لا زمهريرا لأنها لا تكون؟ إذا فليست هذه نعمة يختصون بها عن أهل النار، إذ هم يشاركونهم في عدم الرؤية هذه و تلك! أو إن في سماء القيامة شمس غير هذه المكوّرة، فقد ترجع هي شمسا أو غيرها من غازات فتصبح شمس الآخرة أو شموسها، كما ان هناك زمهريرا:

برد قارس شديد، فزبائن الشمس و نورها للنافذ هي على أهل النار عذاب فوق العذاب، و أهل الجنة لا يرونها، إذ تجنّهم أشجارها عن نورها، و جوّها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). امالي الصدوق عن الصادقين (ع) (نور الثقلين 5: 480).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 318

عن نارها، كما ان زمهرير على أهل النار عذاب فوق العذاب، فأهل الجنة لا يرون بردها و قرّها، إذ تبعد عن أولاء و تقرب من هؤلاء، فالأبرار في جنة عادلة معتدلة عوان، في دلال و ظلال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ‏ (77: 41) وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (4: 57) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (56: 30).

و لا معنى لظل و لا ظلال، إذ لا شمس تشرق و تحرق، فالظل دليل الشمس كما الشمس دليل الظل‏ أَ لَمْ تَرَ إِلى‏ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَ‏ ... ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (25: 45).

و على إن زمهرير العذاب لأهل النار كلهم مع النار؟ لا دليل على الشمول! فإنها الآية الفريدة في ذكرها سلبا عن الأبرار، لا إيجابا على كل أهل النار! أو ان المعذبين بزمهرير لا يعذبون بالنار؟ تنافيه الآيات في شمول النار لغير الأبرار! إذا فهما في الجحيم متقاربان و كما في المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم‏ «1».

و من ثم إذا اختصت زمهرير ببعض أهل النار أو شملتهم، فكيف يجمع بين هذين المتناحرين المتنافرين، و كلّ يخفّف الآخر و يفنيه!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 300- أخرج ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن مردويه من طرق عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (ص) اشتكت النار الى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا فجعل لها نفسين نفسا في الشتاء و نفسا في الصيف فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها و شدة ما تجدونه في الصيف من الحر من سمومها. و اخرج نحوه عبد بن حميد و ابن المنذر عن الحسن قال ذكر لنا ان نبي الله (ص) قال: ...

و

فيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (ص) في حديث: و إذا كان يوم شديد البرد .. قال العبد لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهرير جهنم قال الله لجهنم ان عبدا من عبيدي استجارني من زمهريرك و اني أشهد أني قد أجرته، فقالوا و ما زمهرير؟ قال كعب: بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة بردها بعضه من بعض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 319

هذا الواقع الخطير من عذاب النار الزمهرير، يجاوبه واقع النار في الشجر الأخضر: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ‏ (36: 80) أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (56: 72) و آية غرق آل فرعون في الماء و النار: مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً (71: 25) نارا برزخية أدخلوها و هم غرقى الماء «1» و تجاوبه أولا و أخيرا القدرة الإلهية النافذة في كل شي‏ء، ان يجعل المنافرين يساعد بعضهما بعضا جنبا بجنب! ثم الرؤية المنفية في الشمس و الزمهرير، ليست هي رؤية البصر فحسب، و إنما رؤية الإدراك المزعجة: لمسة الحرارة و البرودة، و ابصار عين الشمس و نورها الضارية، و اما إبصارها الزمهرير، و من بعيد، فلا عذاب فيه، كما لا عذاب في رؤية النار لأهل الجنة، بل رحمة فوق رحمة أن يروا أعداء اللّه كيف يعذبون! كما تجاوبها آيات الترائي و الحوار بين أهل الجنة و النار.

و كما تبعد عنهم الشمس و الزمهرير، كذلك تدنو منهم ظلال الجنة عن الشمس:

وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا:

و دانية عليهم ظلال الجنة بما تجنهم من شجراتها و قصورها، و القطوف جمع قطف: المقطوفة المجتناة، و هي عناقيد الأعناب و أشباهها، ذللت لهم:

جعلت قريبة من أيديهم، غير ممتنعة على مجتنيها، لا يحتاجون الى معاناة في اجتنائها، و لا مشقة في اهتصار أفنانها، كالظهر الذلول يوافق صاحبه، و يؤاتي راكبه، راحة لهم مرهفة وضيئة، غير شماس مستصعبة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في سورة نوح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 320

«من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه و هو متكئ» «1».

و التذليل هنا من الذّل: ضد الصعوبة- كالأرض المذلول- لا الذّل:

ضد العز و الحمية، حيث الجنة عزّ بحذافيرها، بنعيمها و أهليها.

وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا، قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً:

وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ‏: و الطائفون‏ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (56: 15) بِآنِيَةٍ:

كئوس‏ مِنْ فِضَّةٍ و يا لفضة الجنة من صفاء و جلاء! وَ أَكْوابٍ‏: كوز و أقداح لا عروة لها كانَتْ قَوارِيرَا و ليست قوارير زجاجية، و إنما قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ أصلها فضة، و قواريرنا هنا من الحصى، و إذا كانت قوارير الحصى الدنيا، لها جلائها و صفائها «2» فكيف إذا قوارير فضة الأخرى، و الفضة في الدنيا لا تصبح قوارير كيفما رقت و لطفت! فلو ضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من وراءها. فنسبة قارورة الجنة الى قارورة الدنيا هي نسبة فضتها الى حصلى الجنة و أدنى! ثم الأكواب هذه، الشفافة المتلألئة، التي تزيد شرابها صفاء كما تزيدها جلاء، إنها توضع في صحاف من ذهب: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ (43: 71) ... قَدَّرُوها تَقْدِيراً: آنية و أكوابا و شرابا كما يشتهون، فمن لذة الماء و الشراب أن يكون على قدر الريّ لا زائدا يرفض، و لا ناقصا ينقص.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روضة الكافي باسناده عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: ان رسول الله (ص) سئل عن قول الله عز و جل‏ وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا: قال: ... و في آخره: و ان من الفاكهة ليقلن لولي الله يا ولي الله كلني قبل ان تأكل هذه قبلي‏ (نور الثقلين 5: 481).

(2)

المجمع 10: 410 عن الامام الصادق (ع) في‏ قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ: ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 321

فآنية الفضة، و أكوابها القوارير في صحاف الذهب، بطائفيهما الولدان المخلدين اللؤلؤ المنثور، تزيد الأبرار قرارا بين الظلال الوارفة، و القطوف الدانية و الجو الرائع، ما لم تعهده الأرض، و لا تصورا!.

و هل المشروب بآنية الفضة من قواريرها، هو الماء؟ أم خمر الجنة؟ علها هي‏ «1» حيث يذكر شراب الماء بعدها من ماء السلسبيل:

وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا. عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا فللأبرار كأسان لشراب الماء، كأس الكافور و كأس الزنجبيل‏ «2»:

عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ‏ و عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا: سهلا لذيذا حديد الجرية، غاية في السلامة و سهولة الانحدار في الحلق‏ «3» فسل عنها سبيلا «4» يوم الدنيا، ان تدخل في صنف الأبرار، فتشرب منها يوم الدين.

و مزاج الزنجبيل كمزاج الكافور هو كوقاية للكئوس بما فيها من ماء الجنة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع 30: 1 ص 226: خمر الدنيا و الآخرة، في ظل‏ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ‏.

(2) قال الدينوري «الزنجبيل نبت في ارض عمان و هو عروض تسري في الأرض و ليس بشجرة، و منه ما يحمل من بلاد الزنج و الصين و هو الأجود و كانت العرب تحبه لأنه يوجب لذعا في اللسان إذا مزج بالشراب فيتلذذون «أقول: و زنجبيل الجنة يزيد لذة للشاربين كما يعلمها أهلها.

(3) لم تذكر سلسبيل إلا هنا، و قد يقال انها لم تسمع في غير القرآن إذ لا توجد الا في الجنة، فليكن اسمها ايضا خاصا بها و كما يوحي له «تسمى» مما يختص هذا الاسم بهذه العين في الجنة.

(4)

تفسير الرازي 30: 250 و قد عزوا الى علي بن أبي طالب (ع) ان معناه: سل سبيلا إليها.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 21)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 322

و خمرها، و كما أن خمر الجنة و ماءها جنة الخمور و المياه، كذلك زنجبيلها و كافورها.

و قد يذكر من عيون الجنة كنبعات أصلية لمياهها و أنهارها عيون عدة:

هي الكوثر و السلسبيل و التي يشرب بها عباد اللّه و التسنيم، و نبعة الكوثر هي في جنة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم و لها سواقي الى بيوت النبيين و المقربين و الصديقين و الشهداء و الصالحين.

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ، إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ‏ كخدام لمحاويجهم‏ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ‏: دائمون في طوافهم، و فيما هم عليه من البهاء و الجمال و حسن الخدمة، كما هم في الجنة خالدون، خلودا مثلثا لا يعنى منه هنا الأخير، فإن أهل الجنة كلهم خالدون، دون اختصاص ب وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ‏.

و من حسن منظرهم: إِذا رَأَيْتَهُمْ‏- و أنت أول من تراهم- حَسِبْتَهُمْ‏: حسبانا في النظر و البصر لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً: منشورا بين أيدي أهل الجنة، مبذولا لهم متوافرا، و رغم ان اللؤلؤ المنظوم له جماله، و لكنما المنثور أجمل و أروع، للتشعشعات المتقابلة بينها، و لأنه تدل ألّا قيمة له و جاه أهل الجنة، فطالما للمنظوم حساب، فليس للمنثور المنشور حساب.

وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً نعيما لأهل الجنة كلهم على درجات، و ملكا كبيرا لهم كلهم على درجات، و هو من أفضل النعيم إذ يرجع الى حظوة الروح، و لا سيما نعيم القرب و الرضوان من اللّه، «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ»، فالرسول هو ملك الملوك في الجنة بكل ما له من معنى عادل، و على حد

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: «أنا أوّلهم خروجا إذا خرجوا، و أنا قائدهم إذا و فدوا، و أنا خطيبهم إذا أنصتوا، و أنا مستشفعهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 323

إذا جاسوا، و أنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة، و المفاتيح بيدي، و لواء الحمد بيدي، و آدم و من دونه تحت لوائي و لا فخر، يطوف عليهم ألف خادم كأنهم بيض مكنون، أو لؤلوء منثور» «1».

و إن النعيم العميم و الملك الكبير في الجنة بعد العناء الطويل في الدنيا، هو من شئون نزول الآية «2»، و من النعيم:

عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً.

عالِيَهُمْ‏: مكان تعلوهم على أرائكهم‏ «3» و

تعلوهم على أبدانهم: لا يتكلفون في لبسها، و إنما تعلوهم الثياب فيلبسونها «4»

ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ:

ما رقّ من الحرير لهم شعارا وَ إِسْتَبْرَقٌ‏: ما سمك منه لهم دثارا فوق الشعار، و كلاهما خضر: وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ (18: 31) .. مُتَقابِلِينَ (44: 53) تقابلا بينهم و في ثيابهم و نعمّا هما، و من خواص الحرير- إضافة الى ليونته و لطافته- أنه لا يجذب حرارة و لا برودة، و إنما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 300- أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله (ص):

(2)

الدر المنثور 6: 301- أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن عكرمة قال‏ دخل عمر ابن الخطاب على رسول الله (ص) و هو راقد على حصير من جريد قد أثر في جنبه فبكى عمر فقال ما يبكيك؟ فقال: ذكرت كسرى و ملكه و قيصر و ملكه و صاحب الجشة و ملكه و أنت رسول الله على حصير من جريد، فقال (ص): «أما ترضى ان لهم الدنيا و لنا الآخرة فأنزل الله:

و إذا رأيت ثم رأيت نعيما و ملكا كبيرا».

(3) منصوب على الظرف ك وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ‏ لا الحالية فان الحال لزامها التنكير، و لا كونه مفعولا ل «رأيت» إذ يقتضى نصب ثياب كمفعول ثان، و لا تصح قراءة الجزم إذ المدار على المتواترة الموجودة في المصاحف.

(4) مجمع البيان: و روى عن الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 324

يساير حرارة البدن و الهواء لأنه حرير: حرّ طليق عن التأثر و التأثير، و الخضر أحسن الألوان و أنضرها و أطراها.

وَ حُلُّوا: زينوا أَساوِرَ جمع سوار معرب: دستوار، زينة الزند، زيّنت بها زنادهم «من فضة» و يا لها من صفاء لبياضها، و من ذهب و لؤلوء: يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (35: 33) أساور من أجملها: ذهبا و فضة و لؤلوء.

وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً فلما ذا حُلُّوا و سَقاهُمْ‏ كأمر مضى و هو يستقبلهم بعد الموت؟ علّه لأن تلك التحلية و ذلك السقي، هما مما حلّوا به أنفسهم يوم الدنيا بلباس التقوى، و سقوا قلوبهم حب اللّه، فمستقبلهم إنما هو ابن ماضيهم، قد يعبّر عن سبب مضى، و قد يؤتي بمسبّب يأتي.

و كما كان شرابهم يوم الدنيا طهورا: طاهرا في نفسه، مطهرا لهم عن سائر الأقذار، كذلك يتجلى يوم الدين شرابا طهورا: يطهرهم عن سائر الأقذار و إن كان خمرا، فبين خمر الدنيا و الآخرة بون الجنة و النار، فطالما خمر الدنيا تخمر عقل الإنسان و صحته، فخمر الآخرة تستره عما سوى اللّه:

وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (47: 15) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (37: 47) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ (56: 19):

لا فيها صداع الرأس و لا فراغ العقل و نزفه‏ «1».

إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً: كان جزاء فضلا من اللّه، لا استحقاقا عليه، جزاء بما وعد و كتب على نفسه من فضل و رحمة، لولاه لم يكن استحقاق‏ وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً يشكركم به اللّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 226 من هذا التفسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 325

وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (2: 158) و نفس هذا الشكر نعمة فوق النعم فانه من جنة الرضوان و نعمته، يشكرنا ربنا أن عملنا من الصالحات لصالحنا: وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ‏ (27: 40).

[سورة الإنسان (76): الآيات 23 الى 31]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (25) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27)

نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (28) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (31)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا. فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً:

تسلية أنيسة لخاطر الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلم الجريح من تهريجات المعارضين، سلوانا بمثلّث التنزيل للقرآن العظيم: إِنَّا نَحْنُ‏ نَزَّلْنا نزولا في ظلال جمعية الصفات و الأسماء الحسنى الإلهية «نا- نحن- نا» فيا له من قوة و روعة في التنزيل، ما له من مثيل بين كتابات السماء! .. لذلك فليصبر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 326

صاحب هذه الرسالة صبرا طويلا لحكم ربه: صبرا يساير الحكم تثبيتا و تنفيذا، و صبرا يدافع عنه إذ يصدر أمر ربه بملاحقة المعارضين.

إنها ملابسات معركة مصيرية واحدة يخوضها كل صاحب دعوة في أي عصر و مصر، فليصبر صبرا جميلا صارما في وجه الطغاة دون انفلات عن الدعوة و لا فشل، لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرا، و دون أن يطيع منهم آثما أو كفورا، فهناك طرق لهم شتى من الإغراء و الإطراء، و التهديد و الإيذاء، ليلتقي بهم صاحب الدعوة في منتصف الطريق و يسايرهم مداهنا، و لكنه نقص في الدعوة و نقض لها، فلتكن صارمة صابرة دون انزلاق عنها و لا قيد شعرة، حتى يحكم اللّه و هو خير الحاكمين.

وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا، وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا:

إن العب‏ء ثقيل، و الطريق لتحقيق أمر اللّه طويل، فلا يكتفى فيه بزاد قليل، بل ذكرا للّه تعالى بكرة و أصيلا، و السجود و التسبيح ليلا طويلا، اتصالا دائبا بالمصدر الذي نزل عليك القول الثقيل، لتخف عليك أتعاب الدعوة و مشاغبها و عراقيلها.

و البكرة هي الصبح، و الذكر الواجب فيها هي صلاة الصبح، و الأصيل من الأصل هي قاعدة النهار و أصله في الطرف الأخير، و الواجب فيه صلاة العصر، و السجدة المأمور بها ليلا هي فريضة الليل: العشاءان أم إحداهما، و الآية على أية حال لا تشمل الفرائض الخمس كلها، كآية هود: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ (11: 114) مما يدل على مكيتهما و نزولهما قبل فرض الخمس، و قد نوافيكم بالبحث الفصل حولها في طيات آياتها.

إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا:

إن الأثمة و الكفرة يحبون الحياة العاجلة، حبّا لا يبقي لهم و لا يذر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 327

مجالا أن يعملوا للآجلة، ليوم ثقيل بأوزارهم التي قدموها، فبدل أن يجعلوا هذا اليوم الأمام إمامهم: يذكرونه و يعملون له، إنهم يذرونه وراءهم ظهريا كأنه لا يأتيهم، و إنما العاجلة أمامهم و إمامهم، يبصرون إليه فيعميهم، و لا يبصرون به ليبصّرهم: يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (30: 7) غرقى في عاجلة الدنيا الخفيفة التي تمضي على أية حال، و غافلين عن الآجلة الثقيلة البعيدة المدى: ثقيلة بخلودها، ثقيلة بنتائجها، ثقيلة بحسابها، فيا لهم من غفوة و غفلة شملتهم و أعمتهم و جنّتهم، حياتا صبيانية زهيدة حمقاء! نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا:

لفتة تذكر هؤلاء الغافلين المعتزين بقوتهم، المعتزمين التغافل طول حياتهم، تذكّرهم بمبتدئهم و منتهاهم: فقد صدروا بخلقهم و شدة أسرهم-: ربطهم الموثق،- صدروا من الخلاق الحكيم، أسرا و ربطا موثقا بين الروح و الجسم، و بين أجزاء كلّ منهما، و بينهما و بين العالم الخارجي، و بينهما و بين اللّه تعالى بما فطر الإنسان على معرفته، و سوف يبقى أسر الروح بجسمها إذ يتلاقيان يوم المعاد، فويل هذا الإنسان إذ يجعل نفسه في أسر الشهوات، و يفك أسره و وثاقه عن ربه!.

بدأوا من اللّه و ليسوا بمعجزيه، و إذا شاء بدّلهم أمثالهم‏ «1»: أمثالهم في المادة و الصورة، كأن يفنيهم و يأتي بخلق جديد: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (14: 19) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ‏ (70: 40- 43).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بدّل يقتضى مفعولين، ذكر ثانيهما «أمثالهم» و حذف الأول «هم». بدلناهم أمثالهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 328

أو أمثالهم في الصورة، و المادة نفس المادة، كما في قيامة الإحياء، فإن الأجساد لا تعاد بصورها الأوّلية و إنما بأمثالها في الصورة و أصولها في المادة، فالأجساد المعادة يوم المعاد هي هي بموادها و هي غيرها بصورها، طالما هي أمثالها: نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (56: 63) أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (50: 15).

وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا هم‏ أَمْثالَهُمْ‏ في العاجلة بخلق جديد بدلهم، و في الآجلة بخلقهم مرة أخرى لتجزى كل نفس بما تسعى‏ بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا:

الى من هم أحسن منهم، أو أبدان أخلص و أخلد من أبدانهم كما في القيامة، و هذا الثاني مقصود من الآية قطعا لمكان «إذا» الدالة على تحقق مدخولها لا محالة، طالما تشمل الأول ضمنيا.

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا:

التذكرة حاصلة بالفعل، برحمة اللّه و حكمته، تذكرة بالغة كافية، و لكنما التذكر بها منوط بمشية الإنسان، فمن شاءه اتخذ الى ربه سبيلا كما يسعى:

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏ فالسبل الى اللّه كثيرة، كلّ يسلك سبيلا قدر سعيه، متذكرا بالتذكرة قدر وعيه، و لكنما المشية منّا غير كافية للوصول، فهي بحاجة الى مشيئة اللّه، أن يشاء ما يشاءه العبد من خير فيوفقه له:

وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً:

هذا شرط اللّه لنا دائبا، أن لانشاء الاهتداء إلا أن يشاءه اللّه لنا بعدها، يشفع مشيئته بمشيئتنا نصرا من عنده، و توفيقا لنا لدحر ما لا نقدر عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 329

من عراقيل السير، فلولا توفيقه لم نقدر على ما نشاء. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ‏: في أن نعبدك لا سواك.

إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بقصورنا حَكِيماً في مشيئته، فلولا حكمته لم يشأ ما نشاء و وكلنا الى أنفسنا، و لو لا حكمته لشاء هدانا شئنا أم أبينا فأصبحنا على سواء «1».

و لنا أن نعاكس المشيئتين: ان مشيئته المخاطبين هنا من مشيئة اللّه، لا يشاءون إلا ما يشاء اللّه، فإنهم المعصومون المطهرون، مهابط وحي اللّه، و أمناء اللّه في مشيئته‏

و ان فعل أمناءه فعله‏ «2»

، فقد

جعل قلوب الأئمة موردا لإرادته و إذا شاء شيئا شاؤه‏ «3»

و الآية تتحملهما معا، و هما متداخلان في المعصومين، فهم لا يشاءون أمرا إلا أن يشاءه اللّه و يحققه، و ليست لهم مشية إلا ما يرضاه اللّه، و أما غيرهم فليس لهم إلا المعنى الأول، و شاهدا على أن الآية تعنيه فيما تعنيه:

يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً:

فإنه لا يدخل في رحمته إلا من يشاء الدخول في رحمته فيوفقه لها، فمشيئته للهداية هنا منوطة بمشيئة العباد، و أما الظالمون، الذين لا يشاءون رحمته،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 180 ج 30 على ضوء الآية وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ‏.

(2)

الاحتجاج للطبرسي حديث طويل يقول فيه (ع) .. و فعل ملك الموت فعل الله، لأنه يتوفى الأنفس على يد من يشاء، و يعطي و يمنع و يثيب و يعاقب على يد من يشاء و ان فعل امنائه فعله كما قال: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ‏.

(3)

تفسير البرهان 4: 416 عن الكافي عن أبي الحسن الثالث قال: .. ثم قال: و هو قوله: و ما تشاءون إلا أن يشاء الله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 330

فهو كذلك لا يشاء لهم الرحمة، و إنما أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً ختاما في السورة كالمطلع تصويرا لنهاية الابتلاء، إذ خلق من نطفة أمشاج للابتلاء فجعل سميعا بصيرا، و هدي السبيل إما شاكرا و إما كفورا يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

هذا، و كما يعني أيضا من يشاءه الله و هو- لا ريب- من شاء رحمة اللّه و سعى لها حتى شاء اللّه إدخاله فيها، فالمشيئة إذا مزدوجة، بادئة من المرحومين إذ يعدّون لها عدتها بإذن اللّه، و منتهية الى اللّه إذ يدخلهم في رحمته، مشيئتين من اللّه، و واحدة من العبد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 331

سورة المرسلات- مكية- و آياتها خمسون‏

[سورة المرسلات (77): الآيات 1 الى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (1) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (2) وَ النَّاشِراتِ نَشْراً (3) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (4)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (9)

وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (10) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (14)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)

\*\*\* وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً: قسما بالطاقات المرسلات من رب العالمين: مادية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 332

و روحية، ملائكية و بشرية و سواهما كرياح الرحمة «1»، آفاقية كهذه أو أنفسية كالفطر و العقول، و العرف هو المتتابع كعرف الفرس، و المرسلات الإلهية متتابعة كالآيات القرآنية النازلة تترى، و العرف هو المعروف من الإحسان: خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ (7: 199) و هذه المرسلات هي عرف بذواتها، عرف بطاقاتها، عرف في إرسالها، عرف في رسالاتها و غاياتها، أرسلت حا لكونها عرفا، و أرسلها اللّه عرفا، و لغاية هي العرف:

المعروف من الإحسان، رغم ما يبدّله الإنسان و يواجهه بغير احسان‏ «2».

فملائكة الوحي و الحياة و الموت و التدبير، من المرسلات عرفا، كما النبيون أجمع، مرسلات روحية في الآفاق، و كما العقول و الفطر مرسلات روحية في الأنفس: معروفا من الإحسان متتابعا.

كما و أن رياح الرحمة و أمطارها و أشباهها مرسلات مادية، فهذه المرسلات و تلك ترسل عرفا و تهدف عرفا و هي عرف في ذواتها و صفاتها، و كلها تشهد شهادات عينية و علمية و عقلية إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ‏! فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً: توحي الفاء هنا أن العاصفات هي من المرسلات- و ان كانت بعدها عصفا- فمنها عاصفات و منها دون ذلك، و العصف هو شدة المرور، و هو الكسر، و هو المكسور من العلوفة كعصف مأكول.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 303- أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن جده قال قال رسول الله (ص): «الرياح ثمان اربع منها عذاب و أربع منها رحمة، فالعذاب منها العاصف و الصرصر و العقيم و القاصف، و الرحمة منها الناشرات و المبشرات و المرسلات و الذاريات، فيرسل اللّه المرسلات فتثير السحاب، ثم يرسل المبشرات فتلقح السحاب، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب فتدر كما تدر اللقحة، ثم تمطر و هي اللواقح، ثم يرسل لنا الناشرات فتنشر ما أراد».

(2) و عرفا على ترتيب هذه المعاني: حال من المرسلات، حال للمرسل، مفعول لأجله من الإرسال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 333

فقسما بالمرسلات العاصفات عصفا، عرفا أو سواه، فمن العاصفات عرفا الملائكة النازلة بالرحمات سريعة كاسرة الموانع و العراقيل، و غير العرف منها هي النازلة بالنوازل و الصعوبات، كما النبيون عرف للمصدقين، و عذاب على الكافرين، و من الرياح عاصفات عرفا كالتي تنشر السحاب و تثيرها، و منها عاصفات نكرا كالصرصر و العقيم و القاصف، إذ تقصف بمرورها الشديد و تكسر و تخسر.

وَ النَّاشِراتِ نَشْراً: و النشر هو البسط، و الإذاعة، و الريح الطيبة، و التفريق، و النحت، و التعويذ، و الهبوب، و الإصابة، و الإحياء، و النبت و إيراق الشجر: معان عدة حسب عديد المتعلقات‏ «1».

و قسما بالطاقات الباسطات المذيعات أخبار السماء في أرجاء الكون حيث تبث رياحها الطيبة و تفرقها على أهليها، و تنحت بأخبارها ما يقبل النحت من قلوب صافية، و تصيب القلوب المقلوبة غير الصافية، و تهبّ كالرياح في الأجواء، و القلوب أوعية فخيرها أوعاها فتصيب كلّا حسب وعيه، و التي تنشر الأجساد من الأجداث فإلى ربهم ينسلون.

فَالْفارِقاتِ فَرْقاً: فارقات من الناشرات، لمكان الفاء، الناشرات وحي السماء، الفارقات بين مصدقيه و مكذبيه، و بين الحق و الباطل، و الناشرات أرزاق الخلائق، الفارقات بينهم حسب تقديراتهم، و الناشرات أحياء، فالفارقات بينها، ففريق في الجنة و فريق في السعير.

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً: إنما يوصف وحي السماء بالذكر الملقى، بعد ما ينشر و يفرق بين الحق و الباطل، و الإلقاء هنا من النبيين، فإنهم هم رسل الخلق المذكرون لهم بوحي السماء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نشرا هذا مصدر و مفعول به ايضا كما في الأحياء: الناشرات أحياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 334

عُذْراً أَوْ نُذْراً: فلإلقاء الذكر أثره، عذرا عند اللّه فحجة على المنذرين، أو نذرا لهم به ينذرون و يتأثرون‏ «1»، فاشتراط التأثير نذرا- فحسب- في وجوب البلاغ و الأمر و النهي، شطط من القول و هراء، بل و عذرا أيضا، كما هو لزام إلقاء الذكر دائبا، و على من لم يتذكر ايضا، و نذرا أحيانا: لمن يتذكر، فالمعذرة الى الربّ في أداء البلاغ لها المكانة الأولى في المنذرين، لا يعذرون في تركها بحال، فاللّه ينجي من يأمر بالعرف و ينهى عن السوء عذرا أو نذرا، و يأخذ الظالمين بعذاب بئيس، من فاعل للمنكر، و تارك للنهي عنه حتى عند عدم التأثير: وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً. قالُوا مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (7: 166) فانها تصرح بنجاة الناهين عن السوء فقط، و بعذاب شامل تاركي النهي عن المنكر فيما لم يكن له تأثير، إلا معذرة الى الربّ، طالما تشدد عذاب العاتين عما نهوا عنه: كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ‏! و هل إن هذه المقسم بها خمس كما يشهد له عديده؟ أم اثنان لأن الأصل المعطوف عليه فيها اثنان و المرسلات ... و الناشرات و الثلاثة الباقيات متفرعات؟

ام واحد لوحدة المقسم لأجله، فلتكن متوحدة في رباطها به؟ لكلّ وجه، و هي متداخلات في صفاتها و غاياتها، و هي كلها دالات‏ إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ‏.

فمرسلات العقول و الفطر و الفكر، و معها مرسلات الرسالات الملائكية و البشرية، و معها مرسلات الرياح وصلا و فصلا، و سائر المرسلات الفاصلة و الواصلة، تدل دلالات عقلية و واقعية و حسية لإمكانية و ضرورة وقوع الوعد الحق، و خسر هنالك المبطلون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد يكون عذرا أو نذرا، جمعين لعاذر و نذير، أو مصدرين بمعنى الإعذار و الإنذار، و على الاول هما حالان للملقيات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 335

كما العاصفات من المرسلات تدل بشدة مرورها و كسرها و مكسورها أن موانع نشر الموتى سوف تذل لديها بما أراد اللّه.

و كذلك الأمر في الناشرات نشرا، فالفارقات فرقا، فالملقيات ذكرا:

إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ‏: إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ. وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ‏ (6: 51) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7: 52) فويل للمكذبين بيوم الدين، رغم هذه الكثرة من الأدلة و البراهين.

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ‏: طمس النجوم هو محو آثارها، و

ذهاب ضوءها «1»

و أنوارها، و إزالتها عن الجهات التي كان يستدل بها، و يهتدى بسمتها، كالكتاب المطموس الذي أشكلت سطوره، و استعجمت حروفه.

يوم الطامة الكبرى تطمس النجوم منكدرة، و الكواكب منتثرة، كلآلي منظومة، ينخرط سلكها فتتفرّق، فتطمس عن كيانها كواكب و نجوما و علامات هادية و رجوما، ذاهبة في الفضاء بددا، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها.

وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ‏: أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (50: 6) فالسماء غير ذات الفروج تصبح من ذوات الفروج، و لحد كأن كلها أبواب و فروج: وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (78: 19) فروجا بزوال نجومها و بروجها، فانها شغلت كثيرا من أجواءها، و فروجا بانشقاقها و انكشاطها في كافة أرجاءها «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير القمي عن أبي جعفر الباقر (ع): فطمسها ذهاب ضوءها.

(2) راجع سورة الانشقاق ج 30 ص 236 و الانفطار 30- 184 و التكوير 30- 154.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 336

وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ‏: قلعت و أزيلت بمتفجرات الزلزال الدكداك، و بالانفجارات الذرية و سواها آخذة مسيرها الى الدمار و الهلاك، تنسف فلا يبقى إلا سراب و قاع صفصف: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً. لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (20: 107) «1».

وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ‏: و التوقيت هو تقدير الوقت لوقوع الفعل، و تأجيله لأجله، فالرسل عند قيامة الإماتة تؤقّت، عند الصيحة التي تصعق من في السماوات و الأرض إلا من شاء اللّه، و هم ممن شاء اللّه، لا يصعقون عن الحياة كلّ الحياة، مهما كانوا ميتين عن الحياة الدنيا، فهم في البرزخ أحياء، و الى يوم يبعثون، لا يصعقهم الفزع الأكبر، فهم منه آمنون.

فالرسل تؤقّت تأجيلا لقيامة الإحياء، لتحقيق الوعد الواقع الصادق و ليسألوا ماذا فعلوا و ماذا أجيبوا، و سئوال المرسل إليهم ماذا أجابوا:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (7: 7) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (5: 109) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (28: 65) تساؤلات و تساؤلات و ليشهدوا لهم أو عليهم، و لأنهم من أكرم الشهداء.

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ الْفَصْلِ‏: إن التأقيت التأجيل هو ليوم الفصل: الفصل بين المختلفين، و بين المتصلين بالقرابات، و فصل الحق عن الباطل، و الفصل عن الأعمال و الآمال: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (78: 17) للناس عامة، و للرسل بوجه خاص، و توقيت لأجل معلوم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة النبأ ج 30 ص 39.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 337

وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ‏: إنك تدري ما هو، و لكنها بما أدراك ربك فلا سبيل لها إلا وحي السماء.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏: حذار و إنذار من العزيز الجبار، بويل كل ويل للمكذبين بيوم الدين، و هم محضرون لمجلس القضاء يوم الفصل، ذلك لأن تكذيبهم كان ويلا عقيديا و عمليا.

أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ. ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ. كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏.

إن ذلك الويل قد يهلكهم يوم الدنيا كما يهلكهم يوم الدين، فإهلاك المكذبين الأوّلين، ثم إتباعهم الآخرين، ذلك تحذير لهؤلاء الظالمين أن ليس الويل لهم مختصا بيوم الدين، فحذار حذار أيها المكذبون، فإن مصارعكم تنكشف و أنتم حشود أقوياء، و على مدّ البصر ترى المصارع و الأشلاء لهؤلاء و هؤلاء، و أمامها وعيد اللّه ناطقا بسنة اللّه: كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏.

[سورة المرسلات (77): الآيات 20 الى 50]

أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (21) إِلى‏ قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24)

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (25) أَحْياءً وَ أَمْواتاً (26) وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انْطَلِقُوا إِلى‏ ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

انْطَلِقُوا إِلى‏ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (30) لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34)

هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ (41) وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49)

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

(تفسير الفرقان- ج 29- م 22)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 338

أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ‏: مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (32: 8) كما أن هذا المهين نفسه كان سلالة من طين: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (23: 12) .. و إنه تذكير بحالة الإنسان المسبقة الهزيلة الرذيلة، النتنة المهينة، أن خلقه اللّه منها في أحسن تقويم، نعمة سابغة سابقة، و حجة بالغة على ناكري الألوهية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 339

فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ‏: قرار الرحم و ما أمكنه من قرار الحياة الجنينية، و قرار الأرض التي من طبعها الفرار: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً (40: 64) قرارا بكيانها و قرارا بحركاتها التي تفلتها من مداراتها لولا أن جعلها اللّه كفاتا أحياء و أمواتا.

إِلى‏ قَدَرٍ مَعْلُومٍ‏: دون فوضى حتى في قدر القرارين: في الرحم و في الأرض.

فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ‏: قدرنا لا فقط قدرناه أو قدرنا عليه أو قدرنا به و إنما قدرناه و عليه و به و الكل مقصود:

قدرناه: هيّأناه للتكامل الجنيني، أن قسمناه: الماء المهين، فأخذنا منه سلالة هي النطفة الجرثومية مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ‏ و استخدمنا الباقي لتكملتها، فهذه النطفة الأمشاج تسير سيرا زهوا بطيئا في البوق، و لا تنتهي منه الى الرحم إلا بعد ثمانية أو عشرة أيام، تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيما بعد تقسيم، لكي تهي‏ء كل قسم و تعدّه للدور الذي سيقوم به في تكوين الجنين الجديد، أو حفظه و حمايته، أو في تغذيته، فتصل البيضة النطفة الى بيت الزوجية المهيأ لها، فتلتصق بجداره، و تبدء خلايا الأقسام عملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرحم، فتجعل حول الجنين غلافا فوق غلاف فوق غلاف: فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ‏:

و قدرنا عليه: قوينا عليه و تمكنا أن نخلقه ما نشاء كما نشاء، و ضيقناه في مضيق الرحم حفاظا عليه من كل صدام، و في مضيق من الحياة الدنيا.

و قدرنا به: قسنا به سائر الخلق فجعلناه في أحسن تقويم‏ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ‏ و دبرناه فصورناه: فَنِعْمَ الْقادِرُونَ‏ فيما قدرنا «ه» و «به» و «عليه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 340

و كما أن للإنسان قرارا مكينا ركينا في الأرحام، لا تنافيه تقلّبات الأمهات في مختلف الحركات، كذلك اللّه جعل له الأرض كفاتا: قرارا مكينا، رغم حركاتها الدائبة المتداخلة، تضم ما عليها في حضنها أحياء و أمواتا:

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً. أَحْياءً وَ أَمْواتاً، وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً:

هذا الاستفهام التقريري في مقام تعداد النعم السابقة يوحي بأن كفات الأرض نعمة غالية فيها، تشابه قرار الرحم المكين، لولاه لم تمكن أو لم تسع للإنسان حياة، كما أن لقرار الرحم دوره الهامّ في بداية المطاف، و هذه هي الحقيقة التي تساعدها اللغة و الواقع، مهما تغافلت عنها قرون خلت، فتخيلت أن الأرض جامدة على قرني الثور أو ظهر الحوت‏ «1»! الأرض الكفات:

إن آية الكفات هذه تظهر الأرض بمظهر الطير المسرعة في طيرانها، المتقبضة جناحيها، حيث الكفات هي الإسراع في العدو و الطيران مع تقبض فيه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). انها ليست على ظهر الحوت أو على قرني الثور، و إنما هي كسائر الكواكب تسبح في جو السماء، و حديث الثور مقطوع في أوله، يعني غير ما عنوه،

فقد سأل احد الزارعين الامام الصادق (ع) ان لي ثورين أزرع بهما الأرض، و انا كبير أريد ان أبيعهما فأعيش في عزلة العبادة بثمنهما؟ قال (ع): «لا تفعل فان الأرض على قرني الثور»

يعني زراعة الأرض في تلك الزمن، كما في زمننا على قرني التراكتور.

(2) كما في لسان العرب و تاج العروس و غريب القرآن و أمثالها، ففي التاج عن الزهري:

«كفت الطائر و غيره يكفت كفتا و كفاتا ككتاب و كفيتا كأمير و كفتاتا»: اسرع في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 341

و أوفق الوجوه في «كفاتا» أدبيا و معنويا: أنها مصدر، مفعولا ثانيا ل «نجعل» فقد كانت أرضا و لم تكن كفاتا، لا أموات فيها و لا أحياء، فلا تقبّض لها لا للأحياء و لا للأموات، إذ كانت مجنونة الحراك محترقة، لا تحنّ لعائش: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا (67: 15) «1» فذلت بعد شماس، و اعتدلت بعد ارتكاس.

كذلك اللّه جعلها كفاتا: سريعة الطيران في جو السماء، شديدة التقبض حالته: أحياء و أمواتا، طائرة متقبضة كأنها الطيران نفسه، و التقبض نفسه، كما يوحي به المصدر «كفاتا» نفسه.

و ما أهمهما من أصلين أصيلين في كيان الأرض، طالما غفل عنهما ساكنوها عبر قرون خلت قبل القرآن، و قرون بعده، بين مستند الى الحسّ، فمؤوّل لآيات حركات الأرض، و ساكت عنها شاكّ فيها حتى فسرها العلم، فليس العلماء بعد القرآن هم الكاشفين عن حركاتها، و لا ان (كبرنيك و نيوتون) هما اللذان أبديا نظرية القوة الجاذبية، رغم ما يزعمه الزاعمون‏ «2». و إن للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الطيران، و الكفتان من العدو و الطيران كالحيوان في شده، و يقال: كفت الطائر إذا طار و تقبض فيه، و الكفت في عدو ذي الحافر سرعة قبض اليد.

و فيه عن الصحاح: الكفت السوق الشديد، و رجل كفت و كفيت سريع دقيق، و فرس كفيت و قنيص و عدو كفيت أي: سريع، و كذلك في اللسان و غيره.

(1). راجع سورة الملك الجزء 29 في تفسير آية الذلول.

(2) مضت قرون و البشر تزعم الأرض جامدة على قرني الثور أو الحوت أم ماذا؟ و أول من تجرء على خلاف هذا المحسوس! (فيثاغورث الحكيم 5 ق م) ثم تبعه (فلوترجوس و أرشميدس) ثم أيدها بعد قرنين (ارسترجوس) و أبدى نظرية حركة الأرض حول الشمس، و لذلك كفروه، و بعد نصف قرن أوضح (كليانتوس) ان الأرض محكومة بحركتين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 342

فأرضنا هذه محكومة بحركات عدة أنهاها العلماء الى أربعة عشر «1»، و كما توحي بها: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ «2»: حركات متداخلة يعبر عنها بالرّجفة، و قانون الفرار عن المركز يقتضي فرار ما عليها متناثرة الى أعماق الأجواء، و كذلك تفسّخ الأرض نفسها، و لكنها كفات تتقبض الأحياء و الأموات، بقانون مكافح قانون الفرار، تبديلا له بالقرار:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الوضعية و الانتقالية، فألحقوه بزملائه الكفرة، و بعد قليل قام (بطلميوس) ضد هذه البدعة! و لذلك سمي بعلامة القرون و محيي العلوم.

إن الهيئة البطلميوسية أخذت من الشهرة و الاعتماد مبلغا وافقها جماعة من المسلمين كأنها وحي السماء، فأولوا آيات و روآيات تدل على حركات الأرض، كأن كتاب بطلميوس هو كتاب الوحي الأصيل، يحق تأويل القرآن لأجل الحفاظ عليه! طالما النبهاء منهم كانوا بين مخالف أو ساكت.

ثم بعد الألف من الهجرة أخذ (غاليلة) يبحث بصراحة عن حركتي الأرض، و لذلك سجن و أحرقت كتبه في المجتمع الأوروبي، و لقد كان القرآن أصدق شاهد على هذه النظرية المسجونة المهانة.

ان القوة الجاذبية التي توحي بها آيات بينات، ليست هي القوة المغناطيسية، إنما هي قوة مرموزة تستفيد منها كافة الجاذبات في الكون، و لو ان أرضنا ما كانت كفاتا أحياء و أمواتا، فلم تملك القوة الجاذبية، لم يكن لها قرار عليها، و لا امكانية التنفس فيها، فمن فضل هذه القوة ترى الكواكب السيارة تسير حول مداراتها الخاصة دون انفلات عنها كأنها تسير على جادة حديدية ثابتة.

هذه القوة توجد في أبعد الكواكب و المجرات التي تسير في مسايرها كل ثانية مآت الأميال، الأرض تسير حول فلكها كل ساعة مائة الف كيلومترا، و لا يستطيع أي إنسان مواجهة الرياح بهكذا سرعة، و رغم ذلك يعيش على هذه السفينة الفضائية في كمال الطمأنينة و الارتياح، و حسه ينكر حراكها.

(1). كما عن (فلا ماريون) و (فيلكس) قبله كان يقول بإحدى عشر حركة، و بالإمكان ان تستكشف حركات لها أخرى في المستقبل.

(2) راجع ج 30 ص 71 حول آية الراجفة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 343

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً (40: 64)، و هو الجاذبية العمومية التي اعتبرت كجناحين لهذه الطائرة العجيبة: «كفاتا. أحياء و أمواتا»: تقبض على ظهرها ما عليها، بهذه الأجنحة غير المرئية: «الجاذبية» و كما أن السماء بكواكبها مرفوعة بها: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها (13: 2)

فثم عمد و لكن لا ترونها «1»

و هي أو منها: الجاذبية العمومية التي تقبض بها الأرض الكفات الأحياء و الأموات.

كما و ان الرواسي الشامخات عدّلت حركاتها و منعتها عن التهافت و الانفراج:

«و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها .. فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع أديمها» «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها» «2».

و لقد تجاوب آية الكفات آيات أخرى بيّنات في حركات الأرض، تتجلى لكم في طيات الكتاب، كآية المهد و المهاد و القرار و الذلول و يسبحون‏ «3» فانها تتجاوب في أن كرتنا الأرضية طائرة قوية، و سفينة جوية، تسبح في البحر المحيط كبحّارة دائبة الحراك و الميدان، مهدا لأطفالها، و مهادا للحياة عليها، و ذلولا لركّابها دون شماس و شراس و انطماس، و إنما حنونة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما عن الامام بن محمد علي الباقر (ع).

(2)

نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي (ع) و عن الامام الصادق (ع) «ان حركات الأرض و سكانها من جملة أدلة حدوث العالم» (الاحتجاج للطبرسي).

(3) و هي على الترتيب‏ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً (20: 53) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (78: 7) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا (67: 15) وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ .. وَ الشَّمْسُ تَجْرِي.. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ‏ .. وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ‏ (36: 33- 40).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 344

رءوفة لا يحس أولادها بحركاتها السريعة لحد نكرانها، فيا لها من أمان رغم الميدان! أَحْياءً وَ أَمْواتاً: علّ الأحياء هنا تشمل أصول الحياة كالأوكسيجين، فكرة الفضاء المحيطة بسفينتنا الأرضية، تشعّ عنها قرابة مائة كيلومترا، و هي مركبة من أوكسيجين و أزوت و أرجون، و كافة نباتات الأرض و حيوانها و إنسانها بحاجة حيوية الى هذه الكرة التي تعتبر حياتا للأرض و ما عليها.

ففي حالة نقصان الأوكسيجين أو فقدانها لا واقع للحياة على وجه الأرض، فإنها مادة ضرورية للتنفس أولا، و لتركيب الماء منها ثانيا و قد جعل منه كل شي‏ء حيّ، فالأوكسيجين بأصلها و تراكيبها هي أصل الحياة، لا للنبات و الحيوان و الإنسان فحسب، بل لمثل النار كذلك فانها تخمد لو لم تستمد بأوكسيجين الفضاء.

فلو لم تكن الأرض كفاتا، تتقبض بالجاذبية كرة الأوكسيجين، لتكافح قانون الفرار عن المركز و خفة الأوكسيجين، في فرارها و انهيارها عن الكرة الأرضية، لماتت الأرض و ما عليها! و من جهة أخرى: إن كرة الفضاء الحائلة حول الأرض التي قطرها ثمانمائة كيلومترا، إنها تعتبر مدرّعة مجنزره تحافظ على الأرض من عشرين مليونا من الأحجار السماوية التي تقصدها بسرعة 50 كيلومترا في كل ثانية- يوميا، فلو لم تكن الأرض كفاتا لا نصدمت بهذه النيازك النارية و القاذفات الجوية، فتدكدكت.

إن هذا الجو المدرع- إضافة الى هذه المكافحة الخارجية- يعدّل درجة الحرارة على سطح الأرض، و ينقل الذخائر اللازمة من الماء و بخاره، من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 345

البحار الى البراري و القفار، فلو لم تكن الأرض كفاتا لأصبحت للقارات كلها قاحلة يابسة.

ثم بقية الأحياء من حيوان و إنسان، تعيش على طمأنينة تامة، و تمشي على مناكبها، فلولا جاذبية الأرض الكفات، لانفلتت الى اعماق الأجواء، و لولا كفات الحركات المنتظمة المعدّلة لاستحالت عليها الحياة في الحركات الراجفة، و لكنها كفات و يا لها من بركات! و من ثمّ الأموات التي لا مسكة لها في قرارها على وجه الأرض، فلولا كفات الأرض لا لانفلتت الى غيرها، فيا لها من كفات كافية للحفاظ على الأحياء و الأموات! و من أهم ما يحافظ على طمأنينة الأرض و ما عليها، لحدّ لا تحسّ حركاتها، أنها تتحرك مع كرة الفضاء المحيطة بها فلا يحسّ حراكها، كمن يقفز في طائرة، فإنه يرجع الى مكانه الأول لأن الطائرة تطير بفضائها، خلاف ما إذا لم تكن مسقفة، إذ لا تطير بفضائها، كذلك الأرض تطير بكرة الفضاء، المدرّعة حولها، فلذلك لا تبدو حركاتها لركابها.

هذا هو المعنى الشامل لكفات الأحياء و الأموات، و قد يشمل قبور الأموات و بيوت الأحياء دون اختصاص بهما، فإنهما ليسا من ضمنيات جعل الأرض، و إنما من فعل المخلوقين، و الآية في مقام الامتنان بما خلق اللّه، لا بما فعل الناس‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي: نظر أمير المؤمنين (ع) في رجوعه من صفين الى المقابر فقال: هذه كفات الأموات أي مساكنهم، ثم نظر الى بيوت الكوفة فقال: هذه كفات الأحياء ثم تلا قوله: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً، أَحْياءً وَ أَمْواتاً. و في معاني الأخبار للصدوق مثله عن أبي عبد اللّه الصادق». (نور الثقلين 5: 489)

أقول و هذا من باب الجري و التطبيق لا التفسير، و إنما بيانا كما كان يفهمه الناس في تلك الزمن، و لقد فسر العلم كفات الأرض كما تصدقه اللغة ايضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 346

فيا لكفات الأرض من بركات في جاذبيتها و حركاتها، للأحياء و للأموات! و يا لرواسيها الشامخات و مياهها الفرات من خيرات، لولاها لم تكن لأهلها حياة، سبحان الخلاق العظيم! وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. انْطَلِقُوا إِلى‏ ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ. انْطَلِقُوا إِلى‏ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ. لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ. إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏:

انْطَلِقُوا: تخلّوا و تحلّلوا من وثاق التكذيب و أسره، الى حرية التصديق: بما كنتم به تكذبون، في تأنيب مرير و إيلام عسير، انْطَلِقُوا:

متجللين عن رهانة ثالوث التكذيب: باللّه و رسوله و اليوم الآخر، بثالوث ترك التصديق و الإقرار و العمل الى ثالوث العذاب: ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ‏:

سرادقات ثلاث تحيط بكم: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها (18: 29) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ (39: 16) انطلقوا الى ظلّ‏ لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ‏ رغم أن من فوائد الظل أنه ظليل عن وهج النور و النار، و أنه يغني من لهب النار، و لكنه ظل حار لافح خانق، أشد حرورا من النار: وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (56: 43) يزيد أهلها تغلغلا في زبانيتها و شررها القصر، و إنه ظلّ نارها بدخانها دون نور، إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ: كما أنهم طول حياتهم الشريرة النكدة كانوا يرمون بشرر من قصورهم، كذلك ثالوث ظلهم في النار تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ: جمالة صفر ترتع هنا و هناك، و تحرق القصر بأصحابه ..

هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ. وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏:

لا يَنْطِقُونَ‏: لا هم‏ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 347

(3: 77) أجل- و فيم ينطقون؟، فهل في تخليص أنفسهم عن رهانة العذاب بعد ثبوته عدلا؟ وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ‏ (27: 85) فهم في البداية محكومون دون حاجة الى استئناف و تمييز، إذ لا يخفى على الحاكم هناك أمر عن إضبارات المحكوم عليهم، و لا هو جائر فيميل عن العدل فيهم.

أم ينطقون بالاعتذار و قد مضى حينه و حان حين الجزاء الوفاق و إنما الاعتذار لمن كان له عذر و

الله أجل و أعدل و أعظم من أن يكون لعبده عذر و لا يدعه يعتذر به، و لكنه فلج فلم يكن له عذر «1»

: لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (66: 7) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ (9: 66). فلا كلام هناك إلا بإذن الرحمن إذا كان صوابا:

لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (78: 38) فالكلام المأذون مقيد بالصواب، كما الصواب ايضا مقيد بالإذن، فهل يتأتى صواب من أهل النار حتى يؤتوا إذنا في الكلام؟! كلّا! و إن الهول هناك يكمن في الصمت الرهيب، و الكبت الرعيب، الذي لا يتخلله كلام، و لا يقطعه اعتذار، فلا يؤذن لهم حتى في الاعتذار وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏ إذ حجبوا عن رحمة اللّه و عن خطابه، بعدا في بعد، ظلمات بعضها فوق بعض! و إنما لا ينطقون بما ينفعهم، و قد ينطقون بما يضرهم و يخجلهم: يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (43: 77) وَ لَوْ تَرى‏ إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (32: 12) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ. قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ (23: 108).

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ. فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). روضة الكافي عن الامام الصادق (ع) في تفسير الآية قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 348

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ‏: فصل القضاء، فلا رجوع بالاعتذار، و فصل الحق عن الباطل فلا اعتراض‏ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ‏ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (44: 40) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ حيلة للفرار أو الاستعفاء و الاعتذار فَكِيدُونِ‏ كلّا! و إنما هو الصمت الكظيم، في ذلك اليوم العظيم على العذاب الأليم‏ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ. وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ. كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ‏:

إنهم‏ فِي ظِلالٍ‏: وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (4: 57) ظلال ظليلة تعاكس ظلال المكذبين، ظلال عن نور الشمس بما تجنهم من أشجار، كذلك و هم في ظلال السابقين و المقربين.

وَ عُيُونٍ‏ تحت هذه الظلال، بكل جلال و دلال‏ وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ‏ و هذه النعم الناعمة للمتقين‏ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏ ويل على ويلهم! وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ‏:

ويلهم إذ لا يتمتعون إلا قليلا، و كلّ فان قليل، و لا سيما الذي يعقّب العذاب الوبيل، و هذه القلة المنقطعة بانقطاع الحياة الدنيا، ليست إلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ‏: قطعتم ثمرة الحياة و اجتثثتم أصولها بالمغريات.

فأنتم أجرمتم الأكل و المتعة: قطعا لهما عن الخلود، و حصرا في الأولى الفانية القليلة: أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (9: 38).

فويلهم في هذه المتعة القليلة، إذ جنّدوا لها طاقاتهم الكثيرة و خسروها بها، ويلهم بعدها: أكل و متعة قليلة يتوسطان ويلين: فكلوا و تمتعوا قليلا في الأولى، لتحرموا و تعذبوا طويلا في الأخرى: مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (3: 197) قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (39: 8).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏29، ص: 349

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ‏:

هؤلاء الذين يركعون و يسجدون للشهوات الطائشة، و المحرمات الفاحشة، إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا و القائل هو الرب المنعم، و الركوع هو الخضوع لمن يربّيهم، شكرا لبعض النعم، و تركا للفرعنة و الاستبداد، دون أن ينتفع به المنعم .. مع كل ذلك‏ لا يَرْكَعُونَ‏ و إنما يمرحون في غفلة، و يلتهون في شهوة و غفوة كأن لا ربّ و لا حساب‏ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ‏: يأمرهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم عن اللّه بالصلاة فيقولون: لا ننحني، فإن ذلك سبّة علينا،

فيقول صلّى اللّه عليه و آله و سلم: لا خير في دين ليس فيه ركوع و سجود «1».

لا يحنون ظهورهم للّه مخافة المسبّة، و يحنونها لمن يستحمرهم في اللهو و لا مسبّة! فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ‏: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ‏ (45: 6) وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (4: 84)؟ فهل في الكون حديث أثبت من اللّه، و أضبط من كلام اللّه؟ فأنى يؤفكون؟

و من لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي و يصدّعها من خشية اللّه، فبماذا يؤمن؟: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (59: 21) فما لهذه القلوب المقلوبة الصلدة الصلبة، و هذه الضمائر اليابسة البائسة، ما لها لا تتقلب بما يقلّب الجبال الرواسي!؟.

تمّ بحمد اللّه- مكة المكرمة: محمد الصادقي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع عن مقاتل نزلت في ثقيف حين أمرهم الرسول بالصلاة ...